



رواية

أسياد سومر

سلسلة أسياد الصواعق

د. علي مغنم

1-

(سرجون الأكادي)

أنا (سرجون) الملك العظيم..
ملك بلاد (أكاد)..
كانت أمي كاهنة عظيمة.. ولكني لا أعرف لي أب..
كان شقيق أبي يحب التلال..
ومدينتي (أزوبيرانو) الواقعة على ضفة نهر (الفرات)..
لقد حملتني أمي وولدتني سرًا..
ووضعتني بسلة من البردي ختمت غطاءها بالقير..
ثم قذفتني باليمّ الذي لم يغرقني..
فحملني اليمّ لمن اتخذني ابنًا له..
واتخذني بستانيا عنده..
وعندما كنت بستانيا منحنتني (إينانا) حبها..
فاضطلعت بمهمة الملوكية أربعًا وخمسين عامًا..

(ترجمة من رقيم سومري يتحدث فيه الملك (سرجون الأكادي) عن نفسه)

تصميم لشخصيات الأسياد المذكورة بالفصل الأول



اينانا



انليل



نینورتا

بلاد ما بين الرافدين.. (نيبور) البشرية..

معبد الإله (إنليل)..

تحرك ذلك الموكب المهيب الصاحب عبر عتمة الليل المظلم.. بددت المشاعل التي حملها الجنود ذلك السواد الذي كان يلف المكان كله بقبضة قاسية مقبضة، وأظهرت الأضواء المتراقصة للنار المتأججة وجوه الجنود القاسية وهي تتبع رجال ضخم الجثة حاد ملامح الوجه، ورغم ارتداء هذا الضخم لنفس ملابس ودروع الجنود العسكرية ولكنه تميز عنهم بذلك التاج الذهبي الذي كلل هامته وعرفه كملك لهؤلاء الجنود.. كان هذا الملك يجرّ بذراع ذات بأس محاربا ممزق الملابس متخن الجراح التي تسيل منها الدماء خلفه مخلّفة خيطا رفيعا حفّر نفقا دقيقا شقّ الرمال الصفراء كأخدود ذي جدران دامية.. وخلف التلة التي اتجه نحوها هذا الحشد الصاحب هرول عدد من عامة الشعب منبهرين بهذا الموقف الذي لم يشاهد أحد منهم مثله من قبل، فها هو ملكهم يصرع ذلك الملك المدّعي ويسحق جيوشه ويدك حصونه ويهدم بواباته، ثم يأتي به جازًا إياه بمهانة صاعدا درجات زقورة المعبد حيث مقر عبادة الإله (إنليل) إله مدينة (نيبور) الرئيسي.. إله الهواء والسحاب والطقس والعواصف.. إله الخير وسيد كل الآلهة.. وكان كل من المشاهدين يرفع مشعلا بيده يمكّنه من رؤية درج الزقورة الحجري والذي يبدو وكأنه لا ينتهي.. في حين كان يصعد خلف العامة بضع جنود يحملون قطعة خشبية ضخمة على ظهورهم ويجاهدون لحملها أثناء صعودهم الدرج الحجري المائل لأعلى باضطراد..

ارتقت الزقورة في وسط الأرض كمبنى ضخم للغاية، تنشأ عدة درجات سلمية حوله ليصبح بالإمكان تسلقه من كل الجهات الأربعة.. ترتقي الدرجات حول جدران أربع مهيبة تشق الفضاء لتنتهي على ارتفاع عالٍ، ثم تظهر طبقة جديدة من الدرجات والتي تخترق جدران أربعة أخرى مائلة ليصبح المبنى ضيقا أكثر كلما ارتفع.. ثم تستمر سلسلة الدرجات السلمية والجدران في التكرار لعدة طوابق لينتهي بها الحال لمعبد الإله (إنليل) في المنتصف وعلى قمة الزقورة في أكثر نقاطها ضيقا وارتفاعا..

تسلق الملك الدرج بسرعة وقوة وقد تبعه جنوده بنفس الوتيرة، بينما عانى المتابعين من العامة من تسلق الدرج بنفس سرعة الجنود واضطر بعضهم للجلوس في كل طابق على مقاعد حجرية مخصصة لأخذ قسط من الراحة.. تحرك موكب المشاعل للجنود كدوامة نائرة من النيران التي كانت تُرى من بعيد وكأنها تدور وتطير كريح شريرة حمراء تتخطى الطوابق وتتجه بثبات نحو المعبد بالقمة..

وصل الملك أولاً.. قذف بجسد غريمه أرضا أمام تمثال الإله (إنليل) فهلل الجنود خلفه وهم يرون الجسد المصاب يتدحرج أرضا ويستقر عند قدمي التمثال الحجري الضخم والذي تنطق

ملاحج وجهه بالحياة.. الوجه القاسي العجوز ذو التجاعيد الكثيفة واللحية الغزيرة المجدولة والتي تتشابك مع شعر رأسه الغزير المتدلي من مؤخرة رأسه.. أدار الملك رأسه نحو جنوده ونحو عدد قليل من العامة نجحوا في الوصول بالتزامن مع الكتيبة العسكرية، وصاح بصوت جهوري لا يبدو عليه أدنى أثر من إرهاق تسلق درجات الزقورة مشيرا لصدرة:

- انتهت الحرب وأصبح (شارو كن) هو الملك والامبراطور..

تصايح الجنود والعامة بمنتهى الحماس مرددين اسمه عبر حناجر احترقت أحبالها الصوتية بنيران الفرحة بالنصر.. (شارو كن).. (شارو كن).. (شارو كن).. نطقوها كما نطقها هو بلغته السامية الأكادية ولم يفهم أغلبهم من السومريين معناها والذي يعني الملك المكين.. سرى الحماس بين الأشخاص جنودا وعواما كالنار بالهشيم وتضاعفت الأصوات وعلت حدة.. نظر غريم الملك للملك بعينين لم تستلما بعد، وقد كان الملك قد وضع الأغلال الخشبية المحكمة بأطرافه الأربعة، وكمم فمه بقيد خشبي سميك امتد حتى عنقه، ألقى عليه الملك نظرة حارقة وهو يصيح بملء فيه:

- أعدوا المشنقة!

وصل في هذه اللحظة الجنود حاملي المشنقة، فسارعوا بوضعها أمام تمثال الإله (إنليل) وفي مواجهة الملك مباشرة، في حين انبرى اثنان من العامة ليجلس كل منهما بين أقدام تمثال الإله مُخرجا لوحا طينيا جافا من تنورته وقلما مثلثا حجريا حاد الطرف (مرقم)، وشرعا في الدق على اللوح بسرعة ومهارة ليقوما بتدوين هذه اللحظة المصيرية كعادة كل أهل حضارات ما بين الرافدين، تم نصب المشنقة، انحنى الملك ورفع غريمه بيد واحدة، ساعده اثنان من الجنود ليدفعوا بجسد الملك المهزوم أسفل المشنقة ويقوم ثالث بشد الأشرطة وإحكام ربطها قبل أن يحيط بها عنق المحكوم عليه بالإعدام ويضيق على العنق الخناق، ورغم أن نظرات الغريم لم تطرف وظلّ يثبت نظراته على وجه الملك، إلا أن الملك أشار نحوه صائحا:

- (لوكال زاكيزي).. ملك (أوما) السومري.. يا من لقت نفسك بملك ما بين البحرين وابن (إنليل)..

ثم أشار نحو تمثال الإله (إنليل) مكملا بنبرة خلقت الرعدة بعروق الجميع:

- هل سينجذك (إنليل) نفسه من بين يديّ الآن؟!

صمت الكل.. عمّ الوجوم.. أطرق العامة والجنود.. عم صمت تام مطبق فلم يكن يُسمع سوى صوت حسيس نيران المشاعل.. رفع (شارو كن) يديه ببطء للسماء وشخص ببصره عاليا وهو يقول بنبرة قوية:

- (إينانا).. حامية جيوشي جيوش الملك (شارو كن).. أمديني بالقوة لأحطم عدوي وعدو البلاد.. لم يكد يتم كلماته.. ورغم خلو السماء من السحب وتمام صفائها.. انبعثت صاعقة من اللا شيء من قلب السماء.. وهوت على رأس التمثال لتضيئه وتعطيه لمحة حياة.. كان المشاهد رهيبا.. نطق وجه التمثال ونظر مباشرة ل(شارو كن) وكأنه يباركه.. أضاء البرق جانبا من وجه الملك نفسه لتبرز ابتسامه واثقة قاسية على وجهه.. ولأول مرة يظهر الخوف جليا في نظرات الملك المهزوم (لوكال زاكيزي)..

تصايح الجميع.. إنها مباركة سيد الآلهة (إنليل) قد حلت على ملكهم الشاب الأسطوري.. هذا ملك تحميه إلهة - (إينانا)- وبياركة سيد الآلهة - (إنليل)- وهو ملك لن يجود الزمان بمثله.. ملك يستحق أن يصبحوا شعبه وأبنائه وخدمه مدى الحياة.. ووسط التهليل والتراقص والحماس كانت عنق (لوكال زاكيزي) تُدقّ بصوت تاه وسط الزخم اللامتناهي للملك (شارو كن).. وتدلّى جسده في الهواء يمنا ويسرة لدقيقة كاملة لم يتوقف فيها حماس القوم..

وفوق تمثال الإله (إنليل) لم يستطع أي منهم أن يرى ذلك التجسد لنفس الشخص الذي يحمل ملامحه التمثال الحجري.. كان (إنليل) شخصا يجلس القرفصاء على سحابة شديدة البياض.. بوجهه العجوز المتغضن وعينييه الزرقاوتين وإن أطلت من خلالهما نظرة تشع قوةً، وجنتاه غائرتان وأنفه معقوف، واشتركت لحيته وشعر رأسه في بياض اللون وغزارة الشعر الفضي المجدول.. وبدا التاج الثلاثي الأزرق على جبهته مشعا بقوة.. وتطاير رداؤه الذهبي للخلف بقوة ليبرز جسدا ما زالت عضلاته فنتية.. وكان يمسك بيمينه سوطا أسودا براقا..

وكان يدور حوله شاب مفتول العضلات مدججا بالدروع البيضاء، كان يحمل سيفا ذهبيا بيمينه، وتدور بين أصابع يسراه شوكة ذهبية قصيرة كان الشرر يتطاير من أطرافها الحادة، ويبدو أنها كانت مصدر هذه الصاعقة التي باركت (شارو كن).. وبدت أطراف شعره الأبيض المجدول تتطاير من خلف خوذته الحربية.. بملامح وجه شديدة الشبه من ملامح أبيه (إنليل) ولكن بوجه شاب خالٍ من تجاعيد الزمن..

ثم هبطت عليهما من أعلى فتاة جميلة ملامح الوجه دقيق الأنف والذقن، بعينين واسعتين مكحولتين وشعر أسود غزير كثيف تسلل من أسفل خوذتها الحربية مثلثة الشكل، شديدة أنوثة الجسد ممتطية متن أسد ذهبي ضخم، برداء وردي من قطعة واحدة يغطي من عنقها وحتى قدميها، تميزت بأساور من ذهب أحاطت بمعصمها وعنقها، وزوج من أجنحة بيضاء نباتا من أعلى ظهرها، بينما نبت من طرفي خوذة رأسها قرنان معدنيان ملتفان للخارج.. وكانت تمسك بيسراها حبالا غليظا ينتهي بطوق يحيط بعنق الأسد الضخم المجنح الذي تمتطيه..

انحنى الفتاة للعجوز قائلة بأدب وبصوت شديد العذوبة:

- أشكرك يا أبي على مباركة المحارب الذي في حمايتي..

قال لها **(إنليل)** بابتسامة هادئة:

- صغيرتي **(إينانا)**.. إنه يستحق.. دماؤه دماء امبراطور بشري حقيقي، ولديه هالة الآلهة الهالة السماوية وبلا شك.. سيكون هو ملك ما بين البحرين حقا.. والذي سيذيع اسمه الحقيقي منذ الآن بين السومريين ك**(سرجون الأكادي)**..

قال له الشاب المدجج بالدروع:

- أتمنى أن يخرج من البشر من يستحق دعمنا حقا نحن مخلوقات (سومر) السماوية..

اتسعت ابتسامة **(إنليل)** وهو يقول له:

- لا تقلق يا **(نينورتا)** لن يخيب أملك به..

ثم سألهما:

- أتريدان أن تعرفا أصل هذه المشهد؟

أومأت **(إينانا)** برأسها بصمت في حين أجاب **(نينورتا)** بقوة:

- أريد أن أعرف قصة صعود هذا المحارب ذي البأس..

راقب **(إنليل)** موكب الفرح الذي ما زال مستمرا بالأسفل بقمة الزقورة وهو يقول:

- كانت والدته كاهنة من الدرجة العليا.. وكان عملها يقتضي أن تشرف على طقوس الزواج المقدس.. كانت تمثل فيه دور الإلهة **(إينانا)** ويقوم العريس بتمثيل دور الإله (تموز).. هذا الطقس يتم في بداية كل ربيع لجلب الوفرة في المحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية.. وتنص القوانين على أنه لو أنجبت هذه الكاهنة بعد إجرائها هذه الطقوس سيكون الطفل ربانيا في منزلة الآلهة.. وهذا ما لم يعجب الملوك فتم منع الكاهنات ممن يمارسن طقوس الزواج المقدس من الإنجاب.. وإلا فعليها أن تخسر وليدها جزاءً وفاقا.. وهكذا خالفت أم (سرجون) القواعد وأنجبت الطفل سرًا.. وسارعت بالتخلص منه بوضعه في سلة من القصب وطلتها بالقار حتى لا يتسرب إليه الماء، ثم قذفته بنهر (الفرات) وهي تدعو للإلهة **(إينانا)** بحمايته.. حمل النهر السلة بعيدا ليجدها قَدْرًا ساقى بمدينة تتبع ملك من سلالة مدينة **(كيش)** السومرية الواقعة بالشمال، ملك يدعى (أور زبابا).. أحب الساقى الطفل وتبناه وعلمه حرفته إلى جانب الزراعة.. ولما بلغ العشرين هنا رأيته أنت يا عزيزتي **(إينانا)** وأعجبتني به وقمتي بتذليل الصعاب لوصوله للمناصب العليا..

هزت **(إينانا)** رأسها وهي ترنو إليه قائلة:

- رأيت فيه حينها ما تراه أنت الآن يا أبي.. ملك من البشر يضاهي طموحه منزلة الأسياد..
دمدم **(نينورتا):**

- هذا مبالغ فيه.. إنها أسطورة من الأساطير التي يبرع البشر في اختراعها لتعظيم أنفسهم..
تابع **(إنليل):**

- لقد كتبها **(سرجون)** عن نفسه بالفعل كجزء من حياته ليضفي على سيرته مسحة أسطورية..
ولكن ما حدث تاريخيا بالفعل بعد تبني الساقى له هو أن ترقى المناصب بسرعة ليصبح ساقى
الملك (أور زبابا) حاكم **(كيش)**.. وهو منصب شديد الحساسية ويضاهي منصب الرجل الثاني
بالدولة..

كان حينها الصراع السومري محتدما بين ملوك **(أوما)** وملوك **(لكش)** بجنوب شرق
الرافدين.. وكانت كل سلالة تحكم مدينة ما يشبه حكم دويلة مستقل عن باقي المدن.. هنا برز
الملك (لوكال زاكيزي) حاكم مدينة **(أوما)** -الذي تم شنقه منذ قليل- وقام بشن الحرب على
(لكش) ودمرها نهائيا ليركها أطلالا محترقة منها مئة عام من النزاع بين الدولتين.. ثم أكمل
مسيرته لضم دويلات جنوب بين الرافدين وضمهم لحكمه.. ثم اتخذ من مدينة **(الوركاء)** الواقعة
بمنتصف الرافدين عاصمة جديدة لدولته المتحدة من دويلات (سومر) السابقة.. اتجه في فتوحاته
شمالا حتى وصل ل**(كيش)** ثم حيث يوجد **(سرجون)** و(أور زبابا)..

قام الملك (أور زبابا) بإرسال **(سرجون)** برسالة ل(لوكال زاكيزي).. وهنا فوجئ (سرجون)
بأن (لوكال زاكيزي) يخبره ساخرا بأن الرسالة يطلب فيها (أور زبابا) منه قتل **(سرجون)**.. هل
خاف (أور زبابا) من **(سرجون)** ورآه خصما محتملا أم أنه كان يشك بولائه؟.. فضّل (لوكال
زاكيزي) تجنيد **(سرجون)** لصفه.. وهكذا يقوم الملك (لوكال زاكيزي) -بمساعدة **(سرجون)**-
بسحق الملك (أور زبابا) وأسره وقتله، ثم عاث (لوكال زاكيزي) الفساد ب**(كيش)** ودمر معابدها
ودنس حرمة آلهتها..

بعدها ولسبب خفي ينقلب **(سرجون)** على (لوكال زاكيزي) ويجند الجيوش وينطلق من **(كيش)**
بجيش منظم قوي هدفه العلني الثأر لحرمة آلهة **(كيش)** التي دنسها (لوكال زاكيزي).. وكانت
معركة **(الوركاء)** العاصمة والتي فاجأ فيها **(سرجون)** خصمه (لوكال زاكيزي) بخطط حربية لم
يكن يدري عنها أي سومري حينها شيئا..

قال **(نينورتا)** ببساطة:

- هذا الفتى يسير بخطى ثابتة نحو الحكم المطلق.. لا يتخذ صديقا!

أوما له (إنليل) برأسه موافقا، في حين انبرت (إينانا) تقول ل(نينورتا):

- كانت معركة (الوركاء) مفاجأة لكل السومريين وليس ل(لوكال زاكيزي) فقط.. كانت الحروب حينها ومنذ فجر السلالات البشرية تعتمد نظام الصفوف المتراسة.. أدخلت عليهم نظام المبارزات الفردية والتي تمكّن فارسا واحدا قويا من الفتك بالعشرات من الخصوم.. أوضحت لهم أنه بإمكانهم تجنب القتال المباشر والرمي بالأسهم من بعيد قبل الالتحام المباشر.. تم استخدام الأسلحة الخفيفة ذات المدى البعيد بدلا من راجمات الأحجار الثقيلة وغير العملية خاصة في الحروب ضد بلد بلا أسوار.. أدخلت عليهم مناورات الكرّ والفرّ كتكتيك حربي للمعارك بسبب اعتماد الجنود للتجهيزات والأسلحة الخفيفة.. حتى أزياء الجنود أوحيت له بجعلها بسيطة وخفيفة لضمان سرعة تحركهم وسهولة استخدام التكتيكات المختلفة.. وشاع في جيوشه الحرب عن بُعد بالأسلحة الخفيفة..

أضاف (إنليل):

- كل هذا لأنه يعتبرك حاميته ويحمل معه في مقدمة جيشه دائما تمثالا كاملا لك.. ويبدأ معاركه بتلاوة الترانيم لك..

هزت (إينانا) كتفها قائلة:

- وحاميته لم تدخر جهدا لنصره..

نظر (نينورتا) ل(سرجون) مليا وهو يقول رافعا أحد حاجبيه:

- السؤال هو ماذا سيفعل الآن..

قالت (إينانا) بقوة:

- لن يتوقف!

اختفت سحابة (إنليل) ليختفي معها كائنات (سومر) السماوية الثلاثة.. ولكن لم يكن الحفل بالأسفل قد انتهى بعد!

وحقا كما توقعت (إينانا) لم يتوقف (سرجون الأكادي) عند هذا الحد..

انطلق يوحد بلاد (سومر) الواحدة تلو الأخرى معتمدا على سمعته وأساطيره.. أصوله المتواضعة ساعدت الطبقة العاملة بالبلاد -وهي الأكثر عددا- على الانضمام له والإيمان بقضيته.. قاومه الطبقات العليا فسحقها بالقوة.. كوّن جيشا قويا عظيما ثابتا.. جعل للجنود أراضٍ زراعية بطريقة نظامية يستثمرونها وقت السلم ويجنون خيرا وقت الحرب.. قام بفصل الدين

عن الدولة فالغى جميع المحاكم الدينية واستبدلها بمحاكم مدنية وقوّض كثيرا من سلطات الكهنة.. تحالفت مدينتنا **(أور)** و**(لكش)** لخلق جبهة دفاعية قوية ضده ولكنه سحقهم بقوة غاشمة واستراتيجيات عسكرية حكيمة، ثم هدم أسوار المدينتين ليقطع عنهم فرصة التمرد عليه لاحقا.. بعد توحيد كل بلاد **(سومر)** أنشأ مدينة **(أكاد)** على ضفاف نهر **(الفرات)** والتي صار اسمها ملازما لاسمه فيما بعد.. أكمل إزالة كل الأسوار التي أقامتها دويلات **(سومر)** المختلفة حول مدنها وبالتالي منعهم من احتمالية الثورات عليه فيما بعد والتحصن بمدنهم.. اتجه نحو مدينة **(أشور)** بأقصى الشمال التي انضمت إليه دون قتال ثم ضم **(نينوى)**.. غزا **(ماري)** و**(إبلا)** ثم أكمل نحو غابات شجر الأرز ومنها لجبال الفضة **(طوروس)**.. كان جيشه المكون من السومريين والأكاديين والساميين مخيفا حقا.. اتجه شرقا حتى البحر السفلي –الخليج العربي حاليا- وأكمل مدّ سيطرته ليشمل العيلاميين من بلاد **(فارس)**.. ثم اتجه لأقصى الغرب للقبائل الحيثية والحورية ببلاد **(الأناضول)** ب**(آسيا)** الصغرى محاربا الحاكم **(نور دكال)** حاكم مدينة **(بور شخندا)** المحصنة بطريقها صعبة المنال.. كانت الطريق وعرة ومليئة بالجبال فقام **(سرجون)** بقطع الأشجار ممهدا لنفسه الطريق، وبعد طريق طويلة صعبة تمكن **(سرجون)** من الوصول لمدينة الحاكم **(نور دكال)** ومحاصرتها ثم اختراقها.. وأراد أن يفعل بالحاكم **(نور دكال)** كما فعل ب**(لوكال زاكيزي)** من قبل لِمَا سمع بقوله أنه المفضل لدى الإله **(إنليل)**، ولكن سارع **(نور دكال)** بنفي هذا والاستسلام ل**(سرجون)** دون شرط أو قيد.. وهكذا عفا **(سرجون)** عنه وعن أهل مدينة **(بور شخندا)** وظل هناك ثلاثة أعوام توغل خلالها في البحر العلوي –البحر الأبيض المتوسط حاليا- حتى شواطئه الغربية وشن الحملات العسكرية على جزيرة **(كريت)** – **(قبرص)** حاليا- قبل أن يعود ل**(أكاد)**.. اعتمدت استراتيجيته على منح الأقوام التي ضمها لامبراطوريته على حرية العقيدة الدينية مما ساهم في منحه ودّ رعاياه خارج **(سومر)**.. وقد ساعدته ابنته **(إنخيدوانا)** كثيرا في استقرار حكمه من الناحية الدينية إذ كانت تعمل كاهنة عليا – كوالدتها من قبل- ولكن بمعبد إله القمر **(سين)** وكذلك معابد الإلهة **(إنانا)**.. كانت تقوم فيهم بتمثيل دور زوجة الإله بالزواج المقدس.. وكذلك اشتهرت في مجال الأدب بقصائدها الشعرية المسماة **(سيدة النواميس الإلهية العالمية)** والتي تُعتبر أول كتاب بالتاريخ البشري.. وتعتبر **(إنخيدوانا)** نفسها أول من استخدم توقيعه على أعماله في التاريخ..

وجد كل دويلة من **(سومر)** تتخذ تقويما مستقلا بذاتها فقام باعتماد تقويم موحد لكل دويلات **(سومر)** اعتمد في تسميته على أسماء الشهور الأكادية، مما ساهم في مزيد من الاستقرار بامبارطوريته ذات التقويم الواحد رغم تعدد أقوامها..

وتوفى **(سرجون الأكادي)** العظيم عن عمر ستة وخمسين عاما تاركا إرثا أسطوريا كأول امبراطور بالأرض..

ولكن لم ينسَ أحد من أهله ممن حضروا النزع الأخير له عندما كان يشهق ليأخذ آخر نَفَس له في حياته العظيمة، عندما رفع رأسه بحركة سريعة وابتسم للسماء وهو يرفع يديه للأعلى هامسا:

- (إينانا)!

قبل أن تسقط يديه ويهدم جسده ويتوقف تنفسه وتنغلق عينيه للأبد..

لم يعلم أحد منهم أنه قد انجلى عنه غطاء بصره مع آخر لحظة في حياته ليصبح بصره حديد فيستطيع أن يرى (إينانا) بالفعل والتي كانت واقفة فوق رأسه تنظر له بحنان مغممة:

- لم ينته الأمر بعد أيها المحارب.. لقد بدأ للتو!

وبينما كان جسده يلفظ روحه كانت هي تمدّ ذراعيها نحو رأسه.. لم يرَ أحد ذلك الطيف الفضي الذي انفصل عن جسده ليرتقي للأعلى مع وفاته.. ولكن انفصل عن ذلك الطيف خيوط دقيقة اتجهت نحو يدي (إينانا)، بينما أكمل باقي الطيف ارتقاءه للسماء.. التحمت الخيوط الفضية الدقيقة بيدي (إينانا) قبل أن تختفي تماما مندمجة بالأصابع القصيرة الممتلئة.. وابتسمت (إينانا) بانتصار قبل أن يخفق جناحيها ويرفعا جسدها للأعلى لتختفي تماما.. ثم يعاود جسدها الظهور في نفس المكان ولكن في عالم آخر ليس بعالم البشر..

((من أشعار الكاهنة (إنهيدوانا) ابنة (سرجون الأكادي) بعد نفيها من مدينتها ومنصبها
الكهنوتي فور وفاة والدها..))

دخلت أنا الكاهنة العليا زقورتك حاملةً قفة الطقوس..

ورتلّت أدعيتك..

منبوذة الآن بين المجذومين..

حتى ما عاد بمقدوري أن أحيا معك..

تدنو الظلال من ضوء النهار..

اسودّ النور من حولي..

تغشي عاصفة رملية ضوء النهار..

وقد بُهت فمي العذب من الشهد..

وأصبح وجهي الحلو هباءً..

لقد أهملتني الآلهة بعد أن كنت المظفرة المبجلة..

فصرت هاربة كسنونو من النافذة..

حياتي في سعير منذ أن تم تعريتي من الإكليل..

وكأنهم ناولوني خنجرا وسيفا وقالوا..

أديريهم صوب جسدك.. فقد وُجِدَا لك..

2-العالم السماوي

أنا الأولى وأنا الأخيرة..

أنا البغي وأنا القديسة..

أنا الزوجة وأنا العذراء..

أنا الأم وأنا الابنة..

أنا العاقر وكثير هم أبنائي..

أنا بعريسٍ عظيم ولم أتخذ زوجًا..

أنا القابلة التي لم تنجب أحدًا..

أنا سلوة أتعاب حملي..

زوجي هو من أنجبني..

وأنا أم أبي.. وأخت زوجي..

وهو من نسلي..

(ترجمة لنص سومري لحديث (إينانا) عن نفسها)

تصميم لشخصيات الأنوار المذكورة بالفصل الثاني

الحكيم (ماندانو)





نیشوبور

(الوركاء) السماوية..

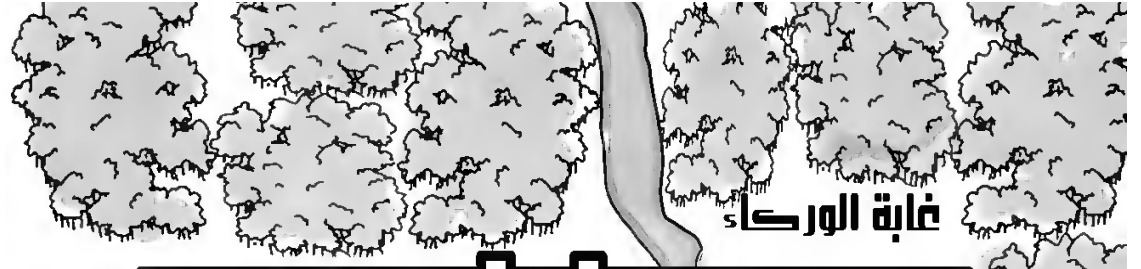
حلقت (إينانا) عائدةً من عالم البشر بعد امتصاص هالة (سرجون) الإلهية لتتجه نحو مدينة (الوركاء) ولكنها ليست ب(وركاء) البشر.. إنها (وركاء) مخلوقات (سومر) السماوية.. كان الانتقال سلسا بالنسبة لها - كأحد الأسياد- والذين يمكن أن ينتقل أحدهم من العالم السماوي لعالم البشر والعكس بسهولة وكأنه ينتقل من مدينة لأخرى.. فقط مرّت بالبرزخ لتعبر ذلك النفق المضئ ذي الجدران الأفعوانية المثيرة للرغبة والذي أفضى لعالمها السماوي.. رأت من زاوية نظرها البانورامية وسط السحب التصميم الهندسي البديع للمدينة والذي لم يختلف كثيرا عن تصميم السومريين للمدينة البشرية، فقد كانت هناك زقورة ضخمة بالوسط يتربع على قمته معبد السماوي (أنو) كبير كائنات (سومر) السماوية، وحول الزقورة تدفقت مياه نهر (الفرات) السماوي العظيم -يمائل نهر (الفرات) عند البشر والذي كان يطلق عليه حينها اسم (بورانو) بالأكادية- لتتوغل وسط البيوت التي أحاطت بالزقورة في الاتجاهات الأربعة كأضلع مربع ضخم، وبين البيت والآخر كانت هناك حدائق كثيفة تعج بالأشجار الخضراء والتي تشابكت أغصانها على قمم البيوت.. البيوت كلها بيضاء، مما أعطاهما تناسقا مع اللون الأخضر السائد للأشجار الكثيفة المنتفة، وكذلك اللون الأزرق لصفحة نهر (الفرات) -السماوي- الرائقة.. ثم كان كل هذا مسورًا بسور ضخم أبيض اللون أحاط بالمستوطنة كلها إحاطة السوار للمعصم.. وبرزت بوابة ضخمة زرقاء اللون مليئة بالنقوش والترانيم المجددة ل(إينانا).. فقد كانت البوابة مهداة في الأصل ل(إينانا) وأطلق عليها بوابة (إينانا).. ثم تكرر هذا النسق لعدة مستوطنات أخرى حول هذه المستوطنة بنفس التصميم.. ما يقارب عشرة من المستوطنات مترابطة بجانب بعضها البعض.. يتمائل تصميم كل منها بزقورة في المنتصف، والمنازل حولها وسط مياه النهر والأشجار المنتشرة، والسور الأبيض حول كل هذا وبوابة (إينانا) الزرقاء بمنتصف أحد الجدران الأربعة..

ثم برز ذلك القصر الضخم أبيض اللون على ضفة النهر مباشرة.. قصر السيد (أنو) وقد أحاطت تماثيل الثيران البرونزية بمدخله الذي تزين بنقش ضخم لنجمة ثمانية الرؤوس.. القصر والذي لم يكن يغادره (أنو) إلا فيما ندر.. ووسط النهر برزت صخرة ضخمة شُيِّد عليها ما يشبه معبدا فخما ولكن بحجم أصغر من حجم قصر (أنو).. إنه قصر (إينانا) والذي تميز بلونه الوردى المشابه للون رداء (إينانا) الطويل والمقام على ارتفاع فوق زقورة (إينانا) التي يحيط بها الماء من كل الاتجاهات.. وكذلك بوجود قطيع من الأسود العملاقة الذهبية كان يحيط به من جميع الأرجاء كحرّاس متأهبين على الدوام..

ثم كان كل هذا المزيج من المستوطنات وقصر (أنو) محاطين بسور واحد عظيم شاهق الارتفاع بالغ الطول، علته الأبراج الشاهقة الحربية المدججة بالجنود والرماة، وتوسطته بوابة

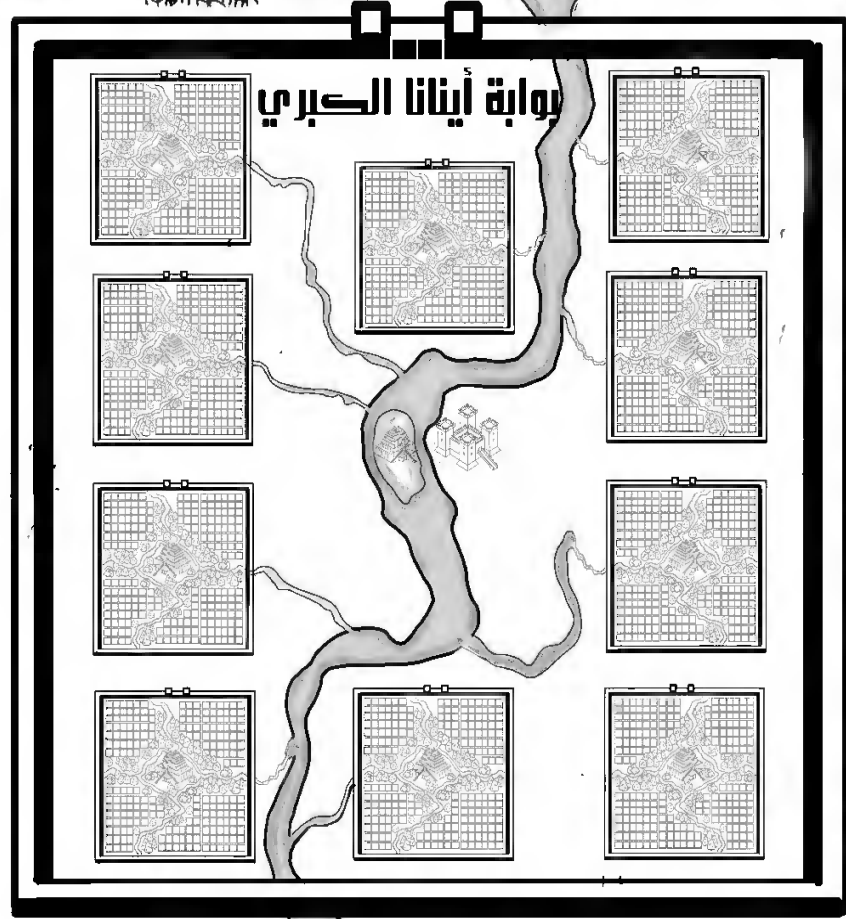
(إينانا) زرقاء عملاقة أكبر من كل ما سواها من بوابات.. بوابة منيعة ذات نقوش زاهية.. ثم برزت كتلة ضخمة من اللون الأخضر شمال وشرق المدينة بحجم كبير يناهز حجم مستوطنات (الوركاء) كلها بسورها الحامي.. إنها غابات (الوركاء) والتي مثلت عائقا طبيعيا يسبق بوابة (إينانا) والسور الأبيض لكل من يريد حصار المدينة آتيا من الجهة المعمورة شمالا وشرقا المحيطة والمكونة من عدة مدن من مدن (سومر) السماوية، حيث لم يكن يحيط بالمدينة من الغرب سوى الصحراء الشاسعة.. خاصة بوجود حامي الغابات الوحش المخيف (خومبابا) والذي لم يره مخلوق قطّ، لأن تعيس الحظ الذي يغامر ويدخل الغابة ويجده (خومبابا) يقوم بقتله على الفور ويلق عظامه على أحد الأشجار بمدخل الغابة.. المدخل الذي أصبح مع الوقت عبارة عن كتل من العظام والجماجم المعلقة على الأشجار..

اتجهت (إينانا) مباشرةً نحو قصرها المشيد على الماء، ألقت نظرة خاطفة على قصر (أنو) وهي تهمس لنفسها:



غابة الوركاء

شمال



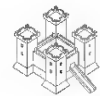
بوابة اينانا الكبرى



مستوطنة



قصر انو



زاقورا



- متى يمكن لأي مخلوق أن يراك خارج قصرك هذا يا جدي؟!!

اخترقت الفضاء وحلقت فوق مستوى الماء عابرة نصف مسافة النهر قبل أن تتوقف عند باب قصرها، ابتعدت الأسود لتفسح لها ممرا للدخول، لامست قدمها الأرض ثم انطلقت تمشي برشاقة لتدخل قصرها الوردى الأنيق وهي تخطو بصمت على الأرضية وكأن جسدها بلا وزن..

اتجهت مباشرةً نحو غرفتها الملكية الخاصة، انطلقت فتاة متوسطة الطول بقوام يميل للنحافة وإن لم يخلو من مفاتن أنثوية بارزة، ترتدي رداءً أبيضاً طويلاً بالكامل، ملامح وجهها الجميلة توشي بأنها فتاة دون العشرين بعينين واسعتين مبتسمتين وأنف دقيق وشفقتين رفيعتين ووجه رفيع مستدق الذقن، يعلوه شعر قصير أكرت شديد السواد مجدول كعادة أهل بلاد الرافدين، بدت أشبه بكاهنة وهي تسير خلف **(إينانا)** كظلها بدون أن تنطق بحرف، فقالت لها **(إينانا)** وهي تفتح باب غرفتها:

- اسبقيني الآن للشرفة الملكية عزيزتي **(نينشوبور)**.. سنتناقش في بعض الأمور المهمة.. وأريد من الحكيم (ماندانو) الحضور أيضاً..

ابتسمت لها **(نينشوبور)** وهي تحني رأسها قائلة:

- تحت أمرك يا سيدتي..

دارت **(نينشوبور)** على عقبيها وهي تنطلق نحو الغرفة الخاصة بالحكيم **(ماندانو)**، وجدته كالعادة منهمكا في دق الألواح الطينية بالوتد حاد الطرف، يكتب مذكراته وخلاصة رؤيته الفلسفية للحياة وقراءاته التاريخية الغزيرة، فقالت له بهدوء:

- عذرا على إزعاجك سيدي الحكيم..

توقف الحكيم عن النقش، ونظر لها بعينين منهكتين ووجه نقشت فيه السنين علاماتها، تشقق وجهه مسفرا عن ابتسامة كبيرة وهو يرحب بها قائلاً:

- أهلا بك أيتها الجميلة **(نينشوبور)**.. أنرت محرابي..

هزت رأسها ترد له التحية قبل أن تقول له:

- السيدة **(إينانا)** تريد أن نجتمع بها الآن في الشرفة الملكية..

وضع الحكيم **(ماندانو)** اللوح والوتد جانبا وهو يقوم من جلسته قائلاً بتسليم:

- هذا يعني أنه ليس أنت من أزعجني!

أدارت **(نينشوبور)** ظهرها له مبتسمةً واتجهت نحو الشرفة فتبعها **(ماندانو)** على الفور بخطوات سريعة لا تعبر عن عمره المتقدم، تطاير في مشيته السريعة رداؤه الأسود القاتم الطويل، وتأرجحت عمامته السوداء ذات الريشة الذهبية فوق رأسه.. وجدا **(إينانا)** قد سبقتهما وجلست على مقعدها الخاص بمنتصف الشرفة تنظر لماء النهر وهي تداعب بأصابع يمينها الشعر الكثيف للأسد المرافق لها..

جلس الحكيم **(ماندانو)** على مقعد صخري مربع قبالة **(إينانا)**، بينما اكتفت **(نينشوبور)** بالوقوف بجانب **(إينانا)**، فألقت **(إينانا)** نظرة سريعة على **(ماندانو)** وهي تسأله:

- كيف حالك أيها الحكيم؟ كيف يجري العمل في كتاباتك؟
أجابها مبتسما:

- بخير حال يا نجمة الصبح.. ما زال الكتاب في بداياته..
قالت له على الفور:

- أريدك أن ترجئ كتابته وتبدأ على الفور في كتابة ملحمة جديدة لأحد البشر..
رفعت **(نينشوبور)** أحد حاجبيها بدون أن تعلق، بينما ردد **(ماندانو)** بدهشة:
- أحد البشر؟

سألها **(نينشوبور)**:

- هل تعني ذلك المحارب **(سرجون الأكادي)**؟

هزت **(إينانا)** رأسها موافقةً وهي تقول مجيبة:

- نعم هو.. لقد انتهت حياته بعد أن سيطر على كل ما بين البحرين فعليا..

سألها **(ماندانو)** بحذر:

- وهل تمكنتي من التقاط هالته الإلهية؟

قالت **(إينانا)**:

- لقد صدقت أيها الحكيم.. للمرة الثانية في تاريخ البشر يمتلك أحدهم هالة إلهية.. للأسف لا يمكننا إدراك وجودها لدى البشري إلا وقت وفاته فقط.. تلك الثواني القليلة التي يغادر طيفه جسده تظهر فيها تلك الخيوط الفضية المنفصلة عن روحه والتي لا تخرج من جسد أي بشري

سوى من يملك هذه الهالة الإلهية.. والتي لو لم يتم إدراكها في حينها تهرب لتلتحم بطيف روحه وتغادر للبرزخ للأبد ولا يمكن القبض عليها مطلقا..

قال (ماندانو) مادحا:

- في الواقع لقد كنت أنت من توقع امتلاكه لهذه الهالة..

قالت (إينانا):

- والدي (إنليل) أيضا رآها بعد فترة وأمن بي وبه..

سألها (ماندانو) ملحا:

- والهالة؟

رفعت يدها أمامه فرأى هو و(نيشوبور) خيوط فضية تسير تحت جلد يدها وتبعث ما يشبه بالشرارات للنظر، فتألفت عيناه بقوة وهو يردد منتشيا:

- إنها هي.. لم أراها من قبل.. لم تتسنى لي الفرصة مع اقتناصك لأول هالة إلهية.. لقد حالفتي الحظ هذه المرة فالوهج يختفي من اليد بعد قليل من امتصاصها بالكامل واندماجها مع النفس.. إنها تبدو تماما كما قرأت عنها في سير الأولين..

غمغمت (نيشوبور) بانبهار:

- من يرَ ليس كمن يقرأ..

سألت (إينانا) الحكيم (ماندانو):

- هل هكذا سأستطيع استدعاء المحارب (سرجون) في حروبي؟

أجاب (ماندانو) مسترسلا:

- قدرة هذه الهالة عجيبة ولا محدودة.. بها تستطيعين استدعاء المحارب بنفسه كعقل فقط بلا جسد، وستقوم الهالة بتدبر تكوين خارجي مناسب لهذا العقل.. لن يكون الشكل الخارجي مختلفا كثيرا عن شكل البشري نفسه وستكون قدراته العقلية وصفات شخصيته الفريدة متواجدة بقوة.. سيكون خير معين لك في أية حرب.. لو حافظت على حياته الثانية هذه بإمكانك استخدامه للأبد.. ولكن لو خسر ولقي مصرعه في الحرب ستخسرين الهالة للأبد.. استخدميه بحرص..

أعدت (إينانا) ذراعها بجانبها وهي تتمتم:

- ستكون خسارته سيئة لذا سأحاول استخدامه بحكمة..

استرسل الحكيم (ماندانو) قائلا:

- اعتدنا على حياتنا في عالمنا السماوي منذ زمن.. وُهينا القدرة على رؤية البشر رغم عدم رؤيتهم لنا.. نتواجد بنفس المكان الفيزيائي ولكن لكل نوع من المخلوقات بُعد مختلف عن بُعد العالم الآخر.. يتشابه العالمان في الطبيعة والجغرافية ولكن يختلفان في اتساع الحيز الذي يتسع لمخلوقاته.. عالمنا أكبر اتساعا.. يتأثر كلا العالمان ببعضهما الآخر بسبب وجود ما يسمى بحواجز الدهر والتي تربطهما ببعضهما لبعض، فلو انهار نهر (الفرات) بعالم البشر يتبعه انهياره بعالمنا السماوي أيضا.. لذا نساعد البشر في الحفاظ على عالمهم لأنه يعني استقرار عالمنا أيضا.. ولهذا السبب جعلنا أنفسنا آلهة لهم وصنعنا تماثيل لنا نسيطر بها على حكامهم وكهنتهم وأصحاب الرأي منهم.. نوسوس لهم بما نريد فتصبح إرادة الآلهة.. قدراتنا كفصيل سماوي أقوى بكثير من قدراتهم البشرية، سواء الجسدية أو الروحية.. ولكن يُستثنى من هذا قلة نادرة من البشر يتمتعون بهذه الهالة الإلهية والتي تجعل البشري قد يتفوق على السماوي بعقله وإرادته وشخصيته فقط.. أو هكذا تقول الشائعات التي ذكرتها رُقم الأولين بغموض وبدون إسهاب مما جعلها تبدو كخرافة.. ولهذا كان حلمنا منذ الأزل هو التأكد من صدق هذه الشائعة بالبحث عن من يملك هذه الهالة، والتي يقال أنها لا تظهر إلا عند موته، ثم يتم استخلاصها بسحبها من طيفه بمجرد موته والتمتع بقوتها السحرية كوسيلة هجوم ودفاع في الحروب التي لا تنتهي.. وقد تمكنت سيدتي (إينانا) من تأكيد هذه الشائعات عندما نجحت في استخلاص هالة (جلجامش) من قبل بنجاح..

قالت (نينشوبور) بقلق:

- لقد سمعت شائعات بوجود سماويين من (سومر) يمتلكون عددا من هذه الهالات اختلسوها من بشر عبر العصور..

أضاف (ماندانو):

- وأنا سمعت بهذا.. لقد قرأت كذلك عن وجود كائنات سماوية بمناطق أخرى كمناطق شرق الرافدين ومنطقة نهر النيل وسكان ما وراء المحيط وسكان ما بعد نوبان الغابات الجليدية، تعاملوا مع البشر المتواجدين معهم بطرق مختلفة لم تكن كلها ودية من أجل الحفاظ على سلامة واستقرار عوالمهم.. لا يمكننا التواصل مع هؤلاء السماويين الآخرين بسبب الحواجز الفيزيائية الخفية الملقبة بحواجز الدهر والتي كما تقوم بربطنا بعالم البشر تفصلنا عن ما عدانا من عوالم سماوية.. نحن لا نعيش وحدنا بهذا العالم مع البشر.. وكذلك نحن لسنا الفصيل الأقوى بكل تأكيد..

سألت (إينانا) بفضول:

- ومن هذا المهندس الغامض الذي خلق كل هذه العوالم وفصلها عن بعضها البعض وأنشأ حواجز الدهر هذه؟ وكيف استطاع مخلوق ما من معرفة معلومات عجيبة كهذه تبدو لي أشبه بقصة جاءت من مخيلة بارعة؟

صمت (ماندانو) قليلا يفكر قبل أن يجيب بترؤ:

- هنا لا توجد حدود بين الحقيقة والتاريخ والخيال.. هذا ما كتبه أجدادنا من الحكماء ولا أعلم يقينا هل هو بحقيقة أم محض خيال.. كل ما قصصته عليك آتٍ من تجميع شذرات من كلمات من مئات الرُفم المنقوشة منذ القدم، ولكن يقال أن المصدر الرئيسي لأصل عالمنا السماوي ونشأته موجود على سطح الرقيم الأول، رقيم نيزكي منقوش بنقوش لم تنتقشها يد، نقوش أوجدتها رغبة مهندس الكون الغامض قبل أن تقوم بإخفاء الرقيم ذاته جيدا بحيث لن يظهر إلا في الوقت المناسب وللشخص المناسب.. أما عن احتمال وجود غيرنا من السماويين فلن نعرف صدقه إلا في حالة واحدة وهي لو أعلن أحد قاطني العوالم السماوية الأخرى عن وجوده.. وأعتقد أنه لكي يعلنوا عن وجودهم لأبد أن يكونوا قد وجدونا من الأساس.. وبشكل عام وحتى لو كانوا يعلمون بوجودنا واستطاعوا تجاوز حواجز الدهر فهم لن يتدخلون إلا في حالة من اثنين لا ثالث لهما، إما حالة قدوم أحدهم غازيا مستعمرا راغبا في الإبادة، أو إن شكّل وجودنا خطرا عليهم فأرادوا التخلص من هذا الخطر قبل تفاقمه وتهديده لوجودهم..

سارعت (نينشوبور) بالقول معلقة على الاحتمال الثاني:

- كتجميع عدد كبير من الهالات الإلهية على سبيل المثال..

ردد (ماندانو) موافقا:

- على سبيل المثال..

قالت (إينانا) محتجة:

- لا أملك من الهالات سوى عدد يقل عن أصابع يدي الخمسة! اثنتين فقط!

حوّل (ماندانو) نظره للنهر وهو يقول بهدوء:

- وماذا لو كان أحد السماويين يملك عددا أكبر.. عددا مهولا..

قالت (نينشوبور) على الفور باندفاع:

- سيسعى لشن حرب سيطرة على باقي السماويين.. سماويي (سومر) على الأقل..

نظرت (إينانا) نحو (ماندانو) قائلة:

- أيها الحكيم.. أعتقد أننا سنحتاج لتكثيف جهودنا للبحث عن مزيد من هذه الهالات.. لابد لنا من تأمين وجودنا..

أوما برأسه موافقا وهو يقول:

- أوافقك الرأي.. سأحاول تجنيد عددا أكبر من الجواسيس على البشر للبحث عن المتفردين منهم..

سألته (نيشوبور) باهتمام:

- هل تعتقد أنه قد يجرؤ أحد السومريين السماويين ويهاجم مدينتنا مدينة (الوركاء)؟ مدينة السيد (أنو) أبو السماويين؟

تنهد (ماندانو) قائلا:

- أشك في هذا ولكنه للأسف يظل وارد الحدوث.. السيد (أنو) دائم الغياب والاختفاء بداخل قصره الأبيض.. أغلب صراعاتنا واختلافاتنا يقوم بحلها ابنه (إنليل) بحكمته وقوته.. الكثير يرى (إنليل) هو سيد السماويين حقا بينما (أنو) مجرد أب منعزل عن أولاده.. السيد هو من يهتم برعيته ويتابع أحوالهم ويحل مشاكلهم وليس من ينأى عنهم..

قامت (إينانا) برفع وشاحها الأزرق الطويل ورمته للخلف ليسقط ويستقر على ظهرها، وقامت من جلستها بحركة سريعة وهي تقول بحسم:

- إذا قُضي الأمر.. سنتتبع ظهور هالات جديدة بتركيز أقوى..

ثم قالت منهيبة الحوار:

- ولنبدأ بنسل (سرجون الأكادي)..

3-(نيبور) السماوية

(نيبور) السماوية..

انعكس ضوء الشمس على صفحة نهر (الفرات) الشرقية والمقابلة لغرب مدينة (نيبور)، بالإضافة للنهر الآخر الأصغر والذي كان يقسم المدينة لنصفين متماثلين حجما، نصف شمالي ونصف جنوبي، النهر الذي هو فرع نابع من نهر (دجلة) السماوي القديم -والذي كان يطلق عليه حينها بالأرض (دِگلت) بالأكاوية- وينفرع من ضفته الغربية ليندفع غربا نحو قلب المدينة، تميز تصميم المدينة بشكل لافت للنظر بكمية هائلة من الأراضي الزراعية نتيجة لوفرة الأنهار حولها وبداخلها، الأراضي التي بدأت من ضفة النهر الأوسط لتمتد شمالا وجنوبا لمساحة كبيرة تكاد تبلغ نصف مساحة المدينة بأكملها، ثم اختلف النصف الشمالي عن الجنوبي فما بعد الجزء الزراعي.. ففي النصف الشمالي الصحراوي تلا المنطقة الزراعية عدد هائل من المعابد الحجرية والتي تراصت في شكل دائرة كبيرة من عشرات المعابد الضخمة والتي تخللتها بعض المنازل الفخمة -منازل الكهنة- ويتوسط كل هذه المباني من معابد ومنازل زقورة حجرية ضخمة يعلوها معبد (إي كور) الخاص بالسيد (إنليل) سيد كائنات (سومر) السماوية وسيد مدينة (نيبور) المقدسة الرئيسي.. ثم تتناثر منازل أقل فخامة في أطراف الدائرة الأخيرة الخارجية التي مركزها الزقورة الحجرية..

بينما اختلف الجزء الجنوبي بوجود امتدادات لأفرع من النهر بين المنازل التي تراصت في شكل خمسة صفوف مستقيمة أفقية بعد انتهاء الجزء الزراعي مباشرة، وتبرز بعد الصف المستقيم الثاني مكتبة ضخمة -تناظر مكتبة (نيبور) البشرية وهي أول مكتبة بتاريخ الأرض- ومعبد ضخم -معبد (إينانا)- ، ثم تتجمع أفرع النهر بعد صفوف المنازل الخمسة لتصب في مسطح مائي ضخم يقع على ضفته أقصى الجنوب معبد أسود اللون ضخم حيث يُقدّس سيد الحرب (نينورتا)..

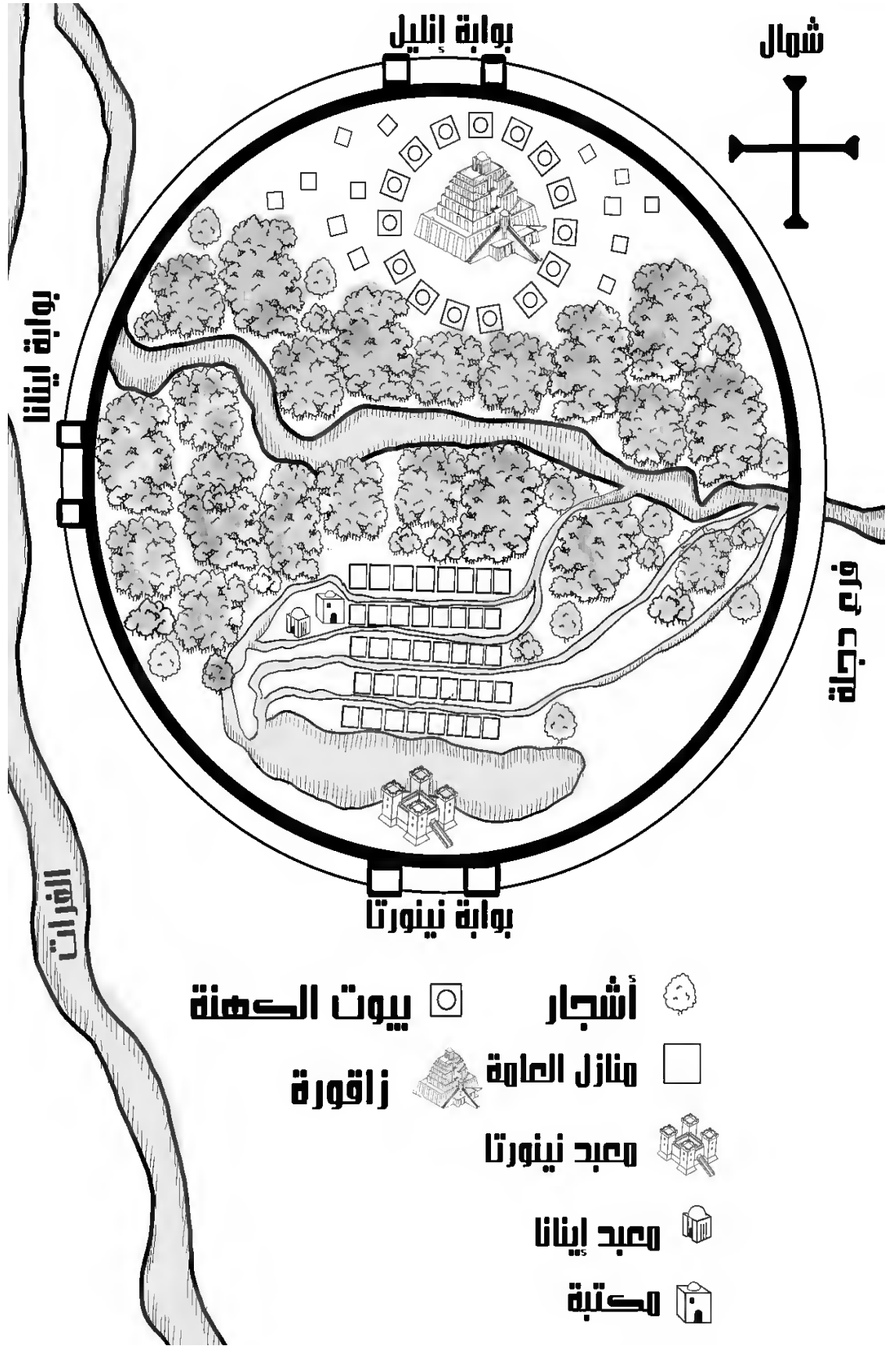
ثم يطوّق المدينة بالكامل من الشمال للجنوب سور مرتفع على شكل دائرة ضخمة تنتهي بثلاث بوابات.. بوابة (إنليل) بالشمال وبوابة (نينورتا) بالجنوب أمام معبد (نينورتا)، ثم بوابة (إينانا) الزرقاء المميزة بالغرب..

كانت المكتبة هي ثاني مباني المدينة ارتفاعا -بعد معبد (إي كور) على قمة الزقورة الشمالية-، وكان تصميمها فريدا على شكل مبنى نصف دائري تحيطه الخطوط المدرجة من كل الاتجاهات، وتتواجد فتحات تهوية كالنوافذ في عدة مستويات من الارتفاع وسط الخطوط المدرجة، ومن الداخل ضمت صالة هائلة الحجم امتازت جدرانها وسقفها بالنقوش الملونة للحروف السومرية

بدون ترتيب، وفي أحد جوانبها تراصت مئات أو آلاف من الألواح الحجرية التي امتلأت بالنقوش المسمارية والتي تضم معلومات هائلة عن كل مجالات العلم من فلك وزراعة ورياضيات وقواميس لغة وتراتيل دينية وحوارات أدبية.. وانتصب بمنتصف الصالة رقيم طيني جاف هائل الحجم منقوش عليه خريطة لمدينة **(نيبور)** بالتفصيل.. وكان عدد من الكتاب جالسين عاري الجذع ينقشون ما يُتلى على كل نفر منهم من شخص أو عالم أو كاهن جالسا قبالة..

كان معبد **(إينانا)** بجانب المكتبة أصغر حجما وفخامة، ضم ساحة ضخمة للتعبد محاطة بأعمدة حجرية من الجانبين وتنتهي بمذبح رخامي يعلوه تمثال ل**(إينانا)**، وخلف التمثال تواجد قدس أقداس المعبد حيث تستقر **(إينانا)** في حالة زيارة من زياراتها القليلة، وبجانب الساحة كانت هناك مدرسة صغيرة ملحقة بالمعبد تتألف من ثلاث حجرات للدراسة، بكل حجرة تواجد معلم أو كاهن وبضعة تلاميذ يتلقون العلم منه وينسخون ما يسمعون في ألواحهم الطينية الجافة..

وبعد ثلاثة صفوف من المنازل المستقيمة وسط أفرع النهر، ثم اجتياز المصب نهري الضخم، ينتصب معبد **(نينورتا)** بلونه الأسود المميز وقد ارتسمت عليه خطوط من أشعة الشمس المنعكسة عن ماء المصب..



وبداخل المعبد كان **(نينورتا)** جالسا على كرسيه بالمنتصف أسفل تمثال حجري كبير له هو شخصيا، وكان يصغي السمع لعدد من قواده وجنوده المائلين أمامه..

قال له أحد الجنود:

- سيدي.. لقد تم تسجيل عدة مشاهدات للمارد **(عسق)** على حدود مدينة **(ماراد)**..

كانت مدينة **(ماراد)** هي المدينة الرئيسية للسيد **(نينورتا)**، تقع شمال غرب مدينة **(نيبور)** في مواجهة بوابة **(إينانا)** مباشرة، ولم تكن تحوي سوى زقورة ضخمة حيث يتواجد معبد **(نينورتا)** الرئيسي، وتتناثر حول الزقورة منازل للجنود التابعين للجيش السومري النظامي وقواده والذي يرأسه السيد **(نينورتا)**.. جيش **(سومر)** السماوية الرئيسي.. ثم تحاط المدينة بسور دائري شديد الارتفاع، له بوابة شرقية تواجه بوابة **(إينانا)** الخاصة ب**(نيبور)**، وبوابة شمالية تواجه الطريق المؤدي لمدينة **(أراك)** و**(كيش)** و**(بابل)** شمالا.. ويعلو السور عدد من الأبراج الشامخة والتي تتسع لعدد كبير من الرماة للتحصن بداخلها ورمي الأسهم بأمان على من يقترب من الأسوار، خلف حائط صخري قصير تتخلله فتحات صغيرة لا تكفي إلا للذراع التي سترمي بالأسهم..

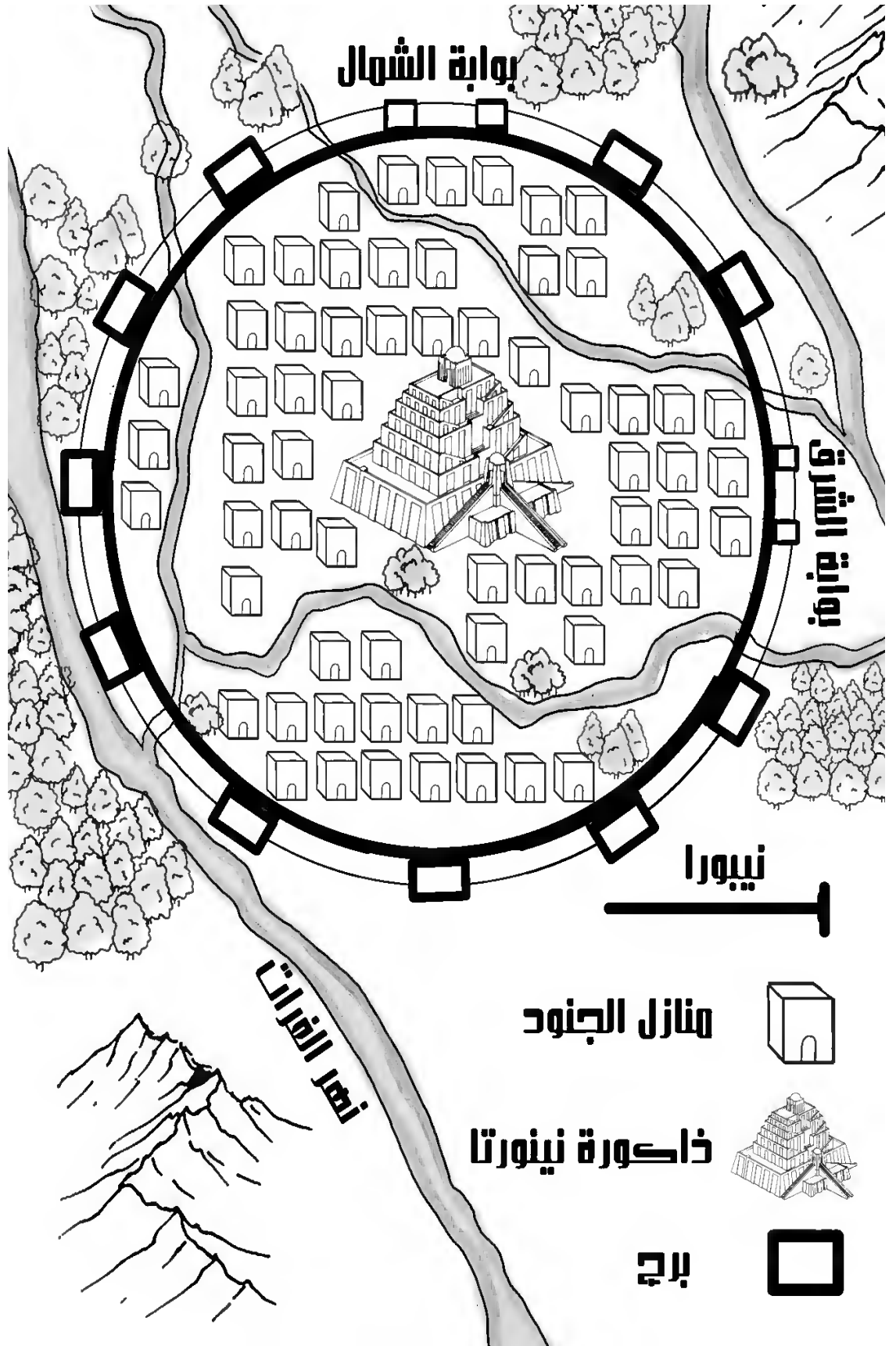
تساءل **(نينورتا)** حانقا:

- ألم ننته من وجود هذا المارد الثائر عندما هزمته بيدي منذ فترة ليست بالقصيرة؟

قال له جندي آخر:

- لقد حاول حينها استقطاب عدد من العامة والمنشقين لتكوين جيش وحاصر مدينة **(ماراد)** ولكن انتهى به الأمر بالفشل بعد أن خرجت له أنت شخصيا يا سيدي في جيش مهول ونازله القائد **(إيرا)** فرديا وهزمه شر هزيمة..

قال **(نينورتا)**:



- ليتني قتلته يومها وانتهينا منه للأبد.. طمعه وتطلعه لامتلاك جيشي لن يتوقف..
ثم سأل باهتمام:

- هل استعداد قائد الجيوش ب(ماراد) لملاقاته في حال قرر الهجوم؟
قال له الجندي:

- القائد (إيرا) قام بتحصين المدينة بالكامل.. الجيش كله مستعد ومسلح بالكامل خلف الأسوار..
الأبراج تمتلئ بالرماة المسلحين.. المؤن تكفينا لحصار طويل جدا..
غمغم (نينورتا):

- لن يتمكن (عسق) من محاصرة (ماراد) مهما استقطب من جيوش.. جيشي هو الأضخم
ب(سومر) والأكثر نظامية.. لا بد وأن له هدفا آخر..
ثم أكمل قائلاً لنفسه:

- ما زال يظن نفسه الأجدر لقيادة جيوش (سومر) ويصر على هزيمة (إيرا) -القائد الذي اخترته
بدلاً منه- فثبت خطأ اختياري وثبت جدارته..

كان كل من (عسق) و(إيرا) ينتمون لفئة ليست من الأسياد، فئة يلقبون بالأنوار وهم أقل شأنًا
وقدرات خارقة من الأسياد ولكن لديهم من المميزات ما يميزهم عن العامة.. وكأنهم حلقة الوصل
بين الأسياد والعوام.. وكانت الميزة في حالة المارد (عسق) هي قوته الجسدية الخارقة..

التفت للجنود قائلاً حاسماً النقاش:

- لن نقوم بأية خطوة.. دعوا (عسق) يفعل ما يريد فهو مجرد بائس مهزوم لا يريد سوى لفت
الانتباه له وهو شرف لن يناله.. اكتفوا حالياً باتخاذ الأهبة وليظل السيد (إيرا) معسكراً بمدينة
(ماراد) حتى إشعار آخر..

ثم صرفهم بإشارة من يده والظنون تتلاعب بعقله، فرغم إيمانه بكفاءة السيد (إيرا) وجدارته
بتولي منصب قائد لجيوش (سومر) السماوية ولكن ما زال يساوره شك عن طريق سؤال مشروع
يسأل فيه نفسه قائلاً ماذا لو كنت مخطئاً في قراري؟ ماذا لو كان المارد (عسق) هو الأجدر
بالفعل لقيادة الجيوش عن السيد (إيرا)؟ ولكن يعود عقله ليقوي موقفه مفسراً له أنه قد حارب
شخصياً كلا من السيد (إيرا) والمارد (عسق) وتبين له بما لا يترك مجالاً للارتياب بأن السيد
(إيرا) أشد قوة وخطراً وذكاءً وسعةً في الحيلة.. قد يكون المارد (عسق) قويا عنيفا لحد يصل

للدومية ولكن لحكمة السيد (إيرا) قوة تتغلب على قوة المارد (عسق) وتنجح في جعل كفته تميل بقوة في حالة الاختيار بين الاثنين..

وفي كل الأحوال فتمرد أي كائن مهما كان موقفه منه لا يمكن تبريره بل ويجب مواجهته بكل عنف وشدة حتى لا يكون تمرد غيره سهل المنال..

قام (نينورتا) بمناداة أحد الحارسين الجاثمين عند الباب، فأتاه على عجل، فقال له (نينورتا) سائلا:

- أين العرافة (غولا)؟ هل هي هنا أم بمدينةها مدينة (إيسن)؟

أجابه الحارس باحترام:

- بمدينةتنا بمعبدها تتأمل السماء..

قال له (نينورتا) بلهجة امرأة:

- استدعها الآن..

أحنى الحارس رأسه قبل أن يغادر غرفة قلب المعبد، فاعتدل (نينورتا) على كرسيه برهة من الزمن حتى دخلت عليه العرافة (غولا)، برأسها الحليقة ووجهها العجوز جامد الملامح بعين واحدة اليمنى واليسرى ضامرة.. كانت ترندي قطعة قماش بيضاء فضفاضة وتسير بمنتهى الخفة وكأنها تطير على الأرض.. كانت شهرتها كعرافة نابهة قد زاع في آفاق مدينة (نيبور) لدرجة فاقت ما سبق وصدّرته للعالم السماوي كله كطبيبة متمرسة تعالج الأبدان من أغلب جميع الأسقام وتقوم بتعليم التلاميذ ممن ينتوون ممارسة الطب بمعبدها الرئيسي بمدينةها ومسقط رأسها (إيسن).. ولكن كثرة تطلعها للسماء وقدرتها على ترجمة مواقع النجوم لأحداث مستقبلية أعلى من شأنها حتى تنامى خبرها لأسماع السيد (نينورتا)، فاقت شهرتها كعرافة شهرتها كطبيبة ومعلمة، فاتفق معها (نينورتا) على قيامها بقراءة السماء له مقابل رعايته الحصرية الكاملة لمعبدها وكل ما تحتاجه من إمكانيات بمعبدها الرئيسي ب(إيسن)، وكذلك بمعبدها الثانوي هنا ب(نيبور)..

سألها بهدوء مرحبا:

- كيف حالك وحال (إيسن)؟

أجابته بلهجة خاوية كمن يقدم تقريرا:

- بخير حال حتى الآن.. ولكن مستقبلها سيكون أفضل وأعلى شأننا باستمرار رعايتك لها..

سألها (نينورتا) مباشرةً:

- وماذا عن (نيبور)؟ هل من حرب قادمة علينا؟

أجابت العرافة (غولا) بهدوء وبلا انفعال:

- رأيتها في وسط النجوم ليلاً.. حرب سيكون لها نيران مستعرة.. وستضرب الصواعق والعواصف بعضها البعض.. حرب ستكون مقدمة لإعادة تمثيل حرب الأسياد الدموية الأولى..

قال لها على الفور:

- المتمرّد المارد (عسق) يظهر منسلاً حول أسوار مدينة (ماراد).. هل من الحكمة أن أخرج إليه وأحاربه؟ ماذا قالت لك أجرام السماء؟

نظرت لسقف غرفة قلب المعبد وهي تقول:

- لقد رأيتها بين النجوم.. رأيتك تخرج من مدينتك فتفقد جيشك ومُلكك..

غمغم (نينورتا) برضى:

- كنت أعلم هذا.. (عسق) يجذبني لفتح..

ثم سألها باهتمام متزايد:

- ولكن كيف يمكن لهذا المارد المتمرّد أن يقضي عليّ؟ لا يملك من القوة ولا الجيوش ما يؤهله لنصر عظيم مثل هذا..

دمدمت العرافة (غولا) وقد صار صوتها غليظاً:

- (عسق) لديه حلفاء.. حلفاء أدكى بكثير من حلفائك..

- هذا عجيب.. من أين جاء بهم؟

- هنا تتوقف رؤى النجوم..

تنهد (نينورتا) وهو يقول لنفسه:

- هذا يكفي أيتها العرافة.. لقد أفدتني كثيراً..

ثم أشار لها قائلاً:

- ولو حالفك الحظ بأي رؤى من النجوم بخصوص حلفاء (عسق) لا تترددي.. هذه المعلومة أحتاجها بشدة..

رددت وهي تنسل كالهواء خارجة من الغرفة:

- أمر سيدي (نينورتا)..

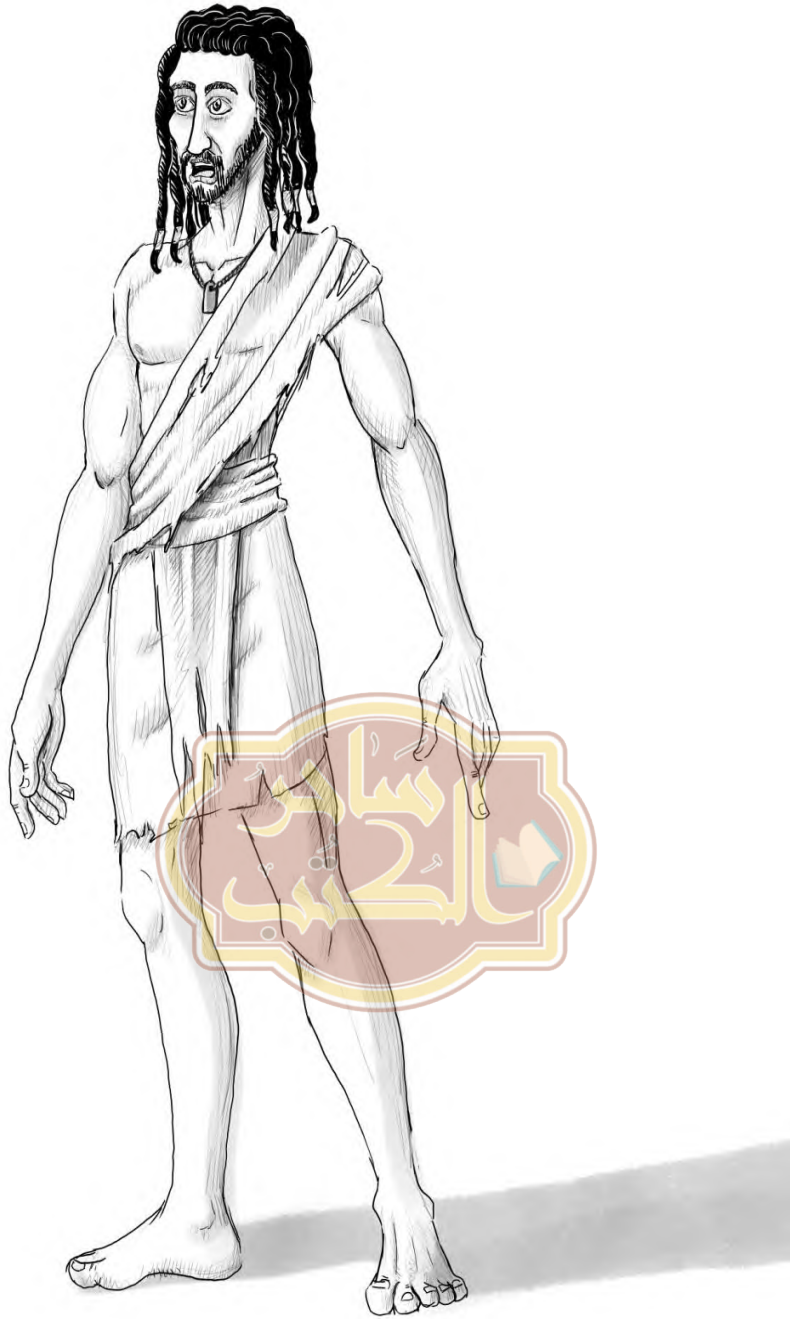
ظل (نينورتا) محققاً نحو الباب -حيث اختفت العرافة (غولا)- ودماغه لا تكف عن التفكير.. يبدو أن الوضع قد ساء وصار خطيراً.. حلفاء للمارد (عسق) لا يعلم عنهم شيئاً.. حلفاء تصل قوتهم لدرجة أن خروجه للحرب ضدهم سينتهي بهزيمته.. لا بد من معرفة أي معلومة تتعلق بهؤلاء الخصوم الغامضين.. فشلت العرافة في معرفتهم لذا لا يوجد حل سوى اللجوء للحل الحربي السري.. وهكذا فكر (نينورتا) في إرسال كائن كجاسوس حول مدينة (ماراد) يجلب له أسرار (عسق) وجيوشه وحلفائه وخططهم.. إنها مهمة يقوم بها كائن واحد قد تُجنّب جيوشه الهزيمة.. ولكن إتقانها يحتاج لمهارات لا تتوافر إلا بفئة نادرة من الكائنات.. قد يكون السيد (إيرا) هو أنسب من يقوم بهذه المهم ولكن يبقى احتمال فشله قائماً حتى ولو كان ضئيلاً والذي سيتسبب باضطراب عنيف بين جيوشه في حال فقدت قائدها..

وهنا فُكر في قرين السيد (إيرا).. المشعوذ (إيرا كال) والذي لا يفارقه إلا نادراً.. يملك كل مهاراته الحربية والعقلية بالإضافة لقدرته السحرية والتي اكتسبها على نحو غامض لم يبيح به لأحد من قبل ولكنها قوى سحرية عظيمة تحرك الجماد وتؤدي الكائنات الحية.. إنه الكائن المناسب لهذه المهمة الوعرة وشديدة الأهمية والخطورة.. ودوره كان فعالاً من قبل في الحرب الأولى ضد تمرد (عسق) وكان له دور رئيسي في دحر جيوشه بقوة السحر.. ينتمي لفئة تشابه فئة الأنوار وإن فاقتها بمهارتها السحرية.. فئة تُلَقَّب بالسحرة..

حسم (نينورتا) أمره فقام من مجلسه ناوياً على الاتجاه نحو مدينة (ماراد) حيث يتواجد كلا من السيد (إيرا) وقرينه الساحر (إيرا كال) ناوياً تحرير المشعوذ من عقاله..

4-(داكان)

أين الناصح الذي أقص عليه عذاباتي؟
أراني قد انتهى أمري وسُلِّط عليّ الشقاء..
فمنذ صغري اختطف القدر أبي..
وأخذ أمي التي ولدتني لأرض اللارجوع..
لقد تركتني أمي وتركني أبي..
ولم يتكفل أحد برعايتي..
فانقلب فكري الدقيق للأمور ليصبح كفهم المعتوه..
استحالت بشاشة وجهي عبوساً..
فقد سلّم أبائنا للقدر المحتوم وساروا لطريق الموت..
ليسير القدر.. ولأعيش حياتي بسلام وبهجة..
(من قصيدة سومرية للكاهن (ساكيل-كيتم-أويبيب)



العبد داکان

(نيبور) البشرية..

زاغت عينا ذلك الشاب العشريني وهو ينظر حوله بمنتهى الانبهار، حال من يرى هذا المجتمع المختلط للمرة الأولى في حياته من نظرة مختلفة مستقلة، كان قصير القامة ضئيل الجسد، شعره الأسود المجدول يكاد يصل لمنكبيه وليس طويلا كأغلب أهل (سومر)، وجهه نفسه كان غائر العينين والوجنتين كمن خرج لتوه من مجاعة طاحنة، يرتدي قماشاً ممزقا على كتفيه وتنورة قصيرة تبدو كالأسمال لتبرز أطرافها البالية بين ساقيه، كان عاري القدمين لا يرتدي ذلك الحذاء الجلدي ذائع الصيت ببلاد بين الرافدين، وبالرغم من نحول قوامه ولكن برزت عضلات جسده نائنة بشكل واضح يدلّ على أنه جاء من طبقة غير مترفة تستخدم عضلات جسدها لكسب قوتها..

توقف للحظة أمام أحد بيوت العامة المستطيلة المتشابهة عندما رأى باب البيت مفتوحا، لفت انتباهه تلك السيدة البدينة والتي تقوم برصّ عدد من الأنية الفخارية الملونة بألوان زاهية برتقالية وخضراء- بشكل هندسي بديع خارج باب البيت، توقف لحظة أمام الجرار التي سحرته ألوانها البراقة، تطلع إليها وقد سرت ابتسامه لا إرادية إلى شفثيه وهو يتخيل طعاما ساخنا شهيا يتم ملء الأنية به تمهيدا لالتهامه كله في دقائق، ازدرد لعابه الجاف عندما تذكر أنه لم يتذوق طعاما منذ ما يقارب اليوم الكامل، فتنهد بحسرة، ولما لاحظت السيدة توقفه اللافت للنظر أمام بيتها أجملت وتراجعت للخلف، فاشتد بالشاب ذعر فاق ذعرها وسارع بإكمال السير بهرولة للأمام وهو يصدر صوتا منغوما من حلقه المبحوح يجعل قطيع الماشية الضئيل الذي يتبعه لا يحيد عن تتبعه..

انجذب لصوت ضحكات نسائية عالية استطاع تحديد منبعه رغم جلبه السوق الشديدة، سار نحو الصوت وقد صار قلبه يدق بسرعة آلمت صدره، لمح بوضوح ثلاث سيدات متربعات على الأرض رافعي أبصارهم لفتاة شابة شديدة الجمال تميزت بشعر كثيف أسود مجدول بشكل جذاب تضمن عدة صفائر تكدست على ظهرها من طولها الشديد الذي جعل أطرافها تلامس الأرض، وكانت تمسك بيمينها ضفيرة من شعرها وتشير بها نحو السيدات قائلة باهتمام من يشرح شيئا معقدا:

- ليصل شعركم لجودة مثل هذه يتطلب الأمر اهتماما يوميا.. لا بد من جلسات يومية طويلة لتجعيده وتمويجه لتستمر التسريحة ثابتة طول اليوم.. بالتأكيد خلط الشعر بالجير ورماد الخشب يجعله أكثر تماسكا وثباتا.. ولكن الأفضل على الإطلاق هو مزج قطرات من الخل مع النبيذ واستخدامه للتثبيت، ثم إضافة العطور الفواحة والزهور ودهن الشعر.. ثم إذابة كل هذا بين الجدائل..

ثم تركت ضفيرتها لتلتقط مجموعة من الأمشاط الخشبية والصدفية والنحاسية وتريها إياهن بطريقة عرض بطيئة، ثم تتركها لتمسك بمجموعة من شرائط الشعر وعطوره وترفعها أمام العيون المتابعة بشغف، ثم تركت يديها حرة الحركة وهي تهز رأسها لتطير ضفائر شعرها بطريقة أجبرت عدد من المارة على التوقف للاستمتاع بمشاهدته، قبل أن تتوقف قائلة للسيدات:

- يمكنكم الحصول على أي من هذه المعدات فقط بقطعة فضية.. ومن تريد جلسة تصفيف وتنشيط عليها أن تدفع قطعتين فضيتين كاملتين..

تقابلت عينا الفتاة مع عيني الشاب القصير فغمزت له عابثة، سارع الشاب بإبعاد عينيه عنها وشعر بالرعب مجددا وهو يحث الخطأ للأمام ساحبا خلفه قطيعه القليل من الماشية، وهو يمد يديه ليتحسس ذلك القرص الطيني الجاف الذي كان معلقا من عنقه متدلليا على صدره وقد نُقش عليه اسم (أشكون)..

أكمل رحلته الممتعة وسط مجتمع سوق (نيبور)، لم تكن مرته الأولى للمرور وسط الجمع المختلف، ولكنها كانت مرته الأولى التي يتمكن فيها من التجول بمنتهى الحرية كسيد وليس كعبد، جازًا خلفه قطيعا من الماشية وكأن القطيع ملكا له، إحساس جميل ممتع مُسكِر رغم علمه بعدم صحته، ولكن ما ضرر تخيل أنه حر طليق وأن هذا للقطيع ملكا له.. لقد تم قتل سيده (أشكون).. عقره جمع من (الكوتيين) الهمجيين أثناء رعيه لماشيته—كان يطلق عليهم حينها ببلاد الرافدين لقب (الجوتيم)- وسرقوا ما استطاعوا حمله من الماشية بعد أن حرقوا الأرض الزراعية وأتلفوا كل محصولها، تمكن هو من الهرب ليتبعه تسعة من ماشية سيده برعب بعد أن فقدوا أمانهم بموت سيدهم وفضلوا متابعة حياتهم مع عبده (داكان).. وها هو الآن العبد (داكان) وقد أصبح بلا سيد يسير متبخترا بالسوق مستمتعا باستراق السمع والنظر لعالم لم يكن يلحظ وجوده من الأساس..

كان هناك العديد من العبيد غيره بالسوق.. فقد كان العبيد يتم استخدامهم على نطاق واسع بكل بلاد الرافدين.. وكان معظمهم من السكان المحليين—وإن تواجد أيضا عبيد من الأجانب.. فقد كان المدينون الغارمون وحتى المفلسون من الأغنياء يبيعون أنفسهم—رجالا أو نساء— أو قد يبيعون أطفالا لهم ليصبحوا عبيدا كوسيلة لسداد الدين.. هذا بخلاف العبيد من أسرى الحروب والذين كانوا ملكا للدولة يشيدون الطرق ويحفرون القنوات والمعابد ومصانع قصر الملك..

استرق العبد (داكان) السمع لرجلين كانا يسيران أمامه، كان أولهما يقول:

- لقد فقد الملك (نارام سين) مباركة الإله (إنليل) له ولمدينة (أكاد).. صارت مدينة (أكاد) مدينة منبوذة لا يدخلها الآلهة ولا يباركونها.. وما زال من حينها ولسنين مكتنبا يصلي للإله (إنليل) ويطلب من كهنة معبده الرئيسي هنا ب(نيبور) الإشارات والفأل الحسن..

رد الثاني عليه:

- (أكاد) مدينة غير محبوبة من الإله (إنليل)..

- ولكن لماذا؟ ما سبب انقلاب سيد الآلهة على الملك (نارام سين)؟

- لا أحد يعلم.. حتى الكهنة حاروا جوابا لهذه السؤال..

هز الأول كتفيه قائلا:

- دعنا من (أكاد) ولعنتها الحالية.. لقد أصبحت مركز طرد لقاطنيها منذ تلك اللحظة وصار سكانها يتحركون في موجات هجرة شبه جماعية بدون اتفاق لباقي المدن وخاصةً مدينتنا – مدينة (نيبور) - معقل عبادة الإله (إنليل) ومحل كل بركاته..

- يمكنني تفهم هذا.. من يقبل أن يعيش بمدينة لا تباركها الآلهة!؟

عقد (داكان) حاجبيه محاولا استيعاب هذا الحديث السياسي الديني الذي سمعه منذ قليل، كان يسمع عن (أكاد) كمدينة استثنائية بناها (سرجون الأكادي) الأسطوري بنفسه، لم يزرها مطلقاً، وُلد عبداً ب(نيبور) ولم يغادرها من لحظة ميلاده التعيسة، ولم تختلف حياته منذ طفولته عن رعي الماشية لعدة أسياد بالتبادل.. الآن يسمع عن ملك من أحفاد (سرجون) يدعى (نارام سين).. ويسمع أنه لم يعد مرغوباً به من قبل الإله (إنليل) الذي حرض عليه الآلهة.. استمتع أيما استمتاع بمجرد سماعه لمثل هذه المحادثة وتمنى لو أمكنه الاشتراك بها، ولكنه عاد ليوبخ نفسه، فماذا سيقول وماذ يعرف هو عن (أكاد) وحتى عن (نيبور) نفسها التي لم يفارقها قط طيلة سنين حياته العشرين..

(انتبه يا هذا!)

وثب جانبا مذعورا عندما انتبه لأنه سرح أثناء سيره وكاد يرتطم بحمار وحشي يجر عربة صغيرة ذات عجلات كانت تحمل عدة حزم خضراء، مزارع جاء السوق ليعرض بضاعته وكاد حماره الوحشي يدهس عبدا يسير شاردا.. هكذا ما كاد أن يحدث!

أعاد التصفير لماشيته لتعود وتنتظم خلفه في طابور.. تعلق بصره برجل جالس أمامه يعرض صفا من من السهام كان يعلقها على غصن ضخم لشجرة مورقة بجانبه.. ثم مر بأخر بعده يمسك أقمشة بيده يعرضها للمارة، وخلفه امرأة كانت تقوم بحياكة المزيد من القطع القماشية.. تلاه شخص يجلس على جذع نخلة ملقى أرضا يطرق بأنية من برونز.. ذلك المعدن السحري الذي اكتشفه الإنسان بمزج النحاس بالقصدير..

توقف (داكان) للحظة عندما راودته فكرة مجنونة.. رفع رأسه ليركز نظره بعيدا صوب الزقورة المركزية العملاقة والتي ظلّ معبد (إنليل) على قمته شامخا.. ثم ظهرت درجات الزقورة الحجرية الضخمة هابطة باتساق حتى أخفت منازل الكهنة الفخمة الشاهقة الجزء السفلي منها.. ماذا لو اتجه نحو منازل الكهنة وعلية القوم؟ هل سيختلف حال السوق والبضائع المعروضة؟ وهل سيختلف حال الناس نفسها؟ لم يكن قد عبر من قبل قطّ ذلك الفاصل التخيلي بين منازل العامة بأطراف المدينة وبين منازل الكهنة وصفوة أهل (نيبور) من الجنود والقضاة والمعلمين المتركة حول الزقورة المركزية.. لم يلجأ للتفكير كثيرا وغلب على أمره لتقوده قدماه ليلج بداخل ذلك العالم الجديد الغامض..

تغيرت المسافات بين البيوت.. صارت أبعد.. البيوت نفسها صارت أكثر ارتفاعا وضخامة.. لم تعد جدرانها من القصب وإنما من الطوب المجفف.. برزت بالجدران النوافذ ذات القضبان الخشبية -وقد كان الخشب وقتها سلعة نادرة ببلاد الرافدين- فلم يستطيع تحمل كلفته سوى الأثرياء.. وكذلك بدأت تزين الجدران نقوش ملونة بديعة وبعض الرموز المسمارية والتي لا بد وأنها تعني شيئا ما -كأسماء أصحاب البيوت- إذ كان (داكان) لا يجيد الكتابة ولا القراءة المسمارية والتي اقتص بها النخبة والكهنة.. كانت الجدران بيضاء اللون لتخفيف درجة الحرارة العالية في حين كان لون باب المنزل فقط بلون أحمر فاقع لطرد الأرواح الشريرة.. ظهرت حدائق صغيرة غناء تحيط بكل بيت.. بدأت الزقورة تقترب ويظهر مدى هول ارتفاعها وضخامة أحجارها المدرجة.. ظهر مجموعة من الأشخاص والذين بدا من قطع الكتان المترفة التي يرتدونها مدى ثرائهم، وكانوا يعرضون مجموعة من الرقم الطينية ذات الكلمات والحروف التي تم دقها دقا بعمق كل رقيم.. تساءل (داكان) بدهشة هل يمكن لشخص عاقل أن يشتري مجموعة من الكلمات والرموز؟

رأى شخصا يعرض مجموعة من السلال والتي تحتوي مجموعة منتقاة من الفواكه والتي لا تنبت في (نيبور) و(سومر) بأسرها، إنها فواكه قد تم جلبها من بلاد متاخمة ل(سومر).. ربما حتى من (مصر) القديمة أو من بلاد (الفينيقيين) على الساحل الشرقي للبحر المتوسط أو بلاد ما خلف جبال (زاجاروس).. ثم وجد امرأة أقسم أنه شَمَّ شذا عطرها من مسافة بعيدة، كانت تعرض مجموعة من الأصواف يبدو وأنها قد غزلتها بنفسها.. وتميزت بغطاء رأس أخفى شعرها تماما.. لا بد وأنها متزوجة فقد كانت المرأة المتزوجة عادةً تمتاز بغطاء الرأس ليتم تفريقها عن العامة والعبيد والذين كانوا يسيرون بجداولهم المضفرة المجدولة.. وقد كان الحجاب لا ترتديه إلا المرأة الحرة العفيفة، ولا يجوز أن ترتديه أمة أو عاهرة وإلا يتم فضحها ومحاكمتها..

ثم توقف قليلا يحاول فهم نقش كان منحوتا على رقيم طيني عملاق تم وضعه بين بيتين في الوضع رأسيا وسط حوض مائي مستطيل مسوّر بالنباتات ذات الزهور الملونة.. ركّز في تلك

الأشكال الهندسية الكروية متفاوتة الأحجام والتي تراصت في مدارات موازية لبعضها.. سبع كرات في سبع مدارات.. حك شعر رأسه وقد تقلصت ملامح وجهه بعدم فهم.. ثم تجاهل النقش وأكمل مسيرته نحو الزقورة الرئيسية بتصميم..

وهنا استوقفه ذلك المعبد الأنيق أزرق اللون، والذي غزته نقوش عديدة لحيوانات مزيج من ثيران وأسود.. وقف يتطلع بانبهار لروعة اللون الزاهي وجمال النقوش التي تكاد تنطق بالحياة.. لم يكن قريبا من الألوان لهذه الدرجة من قبل.. وكأنه عاش دهرا بعالم ثنائي الألوان بالأبيض والأسود ثم انتقل لعالم فيه من الألوان ما لا نهاية لعدده.. مد أصابع يديه وهي ترتعش من الانفعال الذي غمره وهو يحاول مس أي نقش من هذه النقوش.. ولكن يبدو أنه كان قد اقترب كثيرا مما لم يكن يجب عليه الاقتراب منه.. اقترب لحد سيجعله يحترق!

صاح به أحد الكهنة وهو يشير إليه.. نظر (داكان) وقد شلّه الرعب إلى الكاهن الذي خرج من المعبد متجها نحوه وقد ارتسمت نظرة وعيد متجسدة على وجهه قاسي الملامح الذي اعتلته مجموعة من القطع القماشية التي غطت شعر رأسه تماما.. بينما تدلت لحية مجدولة كثيفة بدت كالطوق- على صدره.. وكان عاري الصدر بينما غطت تنورة قصيرة مزخرفة أغلب ساقيه..

نظر الكاهن باستياء لقطيع الماشية قبل أن يمد يده نحو القرص الطيني المتدلي على صدر (داكان) وقرأ بصوت عالي:

- (أشكون)..

ثم نظر ل(داكان) في عينيه مباشرةً وسأله بلهجة مخيفة:

- أين سيدك (أشكون)؟

تلعثم (داكان) لوهلة ولم يستطع الرد.. تعرق جسده كله في لحظة وشعر ببرودة تغمره.. غامت الدنيا أمامه لثوان ليعيده صوت الكاهن للواقع ثانيةً وهو يستحثه على الإجابة مكررا:

- أجبني أيها البائس أين سيدك؟

تراجع (داكان) خطوتين للخلف وهو يقول:

- لقد قتله (الكوتيون)!

ردد الكاهن وهو يبصق أرضا:

- لقد أصبحنا مصيدة للبهائم!

أضاف (داكان) بسرعة:

- وسرقوا القطيع وحرقوا المحصول..

نظر له الكاهن وقد مط شفتيه قائلاً:

- لعلك تريد تعويضاً لخسارتك..

أجابه (داكان) بلهفة:

- سأكون ممتناً لمقايضة نصف القطيع بقطع من الفضة!

- يا لك من متفائل!

ثم أكمل:

- أقصى طموحك الآن هو أن أجد لك سيداً جديداً.. لست مالكا لهذه الماشية التي سيتم الآن منحها هدية لمعبد الإله (إنليل)..

قال (داكان) بتخاذل:

- ولكنني أحتاج لقطعتين من الفضة على الأقل.. لم أتناول أي طعام منذ يوم كامل..

قال له الكاهن بصرامة:

- سيتم وهب الماشية كلها للإله (إنليل).. وأنت لن تحصل على قطعة واحدة فضية..

ثم أضاف صائحا هو يلوح له ليبتعد بيديه:

- والآن انصرف من هنا وابتحث لك عن سيد جديد..

خرج من داخل المعبد كاهن ثانٍ يرتدي نفس ملابس الكاهن الأول ولكن امتاز عنه بإكليل من غصن نبات أخضر ككل هامته.. وبدا أنه أعلى مكانةً من الكاهن الأول الذي انحنى برأسه انحناءة خفيفة لما رآه وهو يتمتم:

- لقد بعث لنا الرب (إنليل) مزيداً من الماشية سيدي الكاهن الأعظم ل(نيبور) المقدسة..

نظر له الكاهن الأعظم بعينين نافذتين قبل أن يومئ برأسه موافقا، ثم قال للكاهن:

- الملك (نارام سين) متجه الآن لمعبد الإله (إنليل) الرئيسي.. غادر مدينته (أكاد) ويكاد يصل

(نيبور) خلال لحظات.. لقد جاءت الأخبار تسبقه أنه سيتسلق الزقورة بجيوشه.. أعدّ كهنة

المعبد ليكونوا في انتظاره أيها الكاهن (تاراح)..

هز الكاهن (تاراح) رأسه مؤمناً، قبل أن يسأل:

- ولكن ما سبب هذه الزيارة المفاجئة؟ ولماذا الجيوش؟

رسم الكاهن الأعظم ابتسامة باردة على شفثيه وهو يجيب:

- لا بد أنه ما زال يأمل في رضا الإله (إنليل).. والجيوش ما هي إلا شكل معتاد لكل تحركات ملوك (سومر) العسكريين..

سأل الكاهن (تاراح) بلهفة:

- وهل سيرضى عنه الإله (إنليل) هذه المرة؟ ما زال يستجديه منذ سبع سنوات..

رماه الكاهن الأعظم بنظرة نارية، وكأنه يهدده، قائلاً بلهجة مخيفة:

- وماذا أعلم أنا عن إرادة عظيمنا (إنليل) أيها الكاهن (تاراح)؟

انسحب (تاراح) وقد شعر بمدى تهوره وتلفظه بما لا يجب أن يقال، فأدار رأسه ليتفادى سهاماً من نار رشقتها عيون الكاهن الأعظم، فقط ليفاجأ بالعبد (داكان) ما زال واقفاً لم ينصرف، وينصت لحديثهما باهتمام.. فتأثر وهو يصيح به مخرجاً انفعالاته من تهديد الكاهن الأعظم الخفي:

- ويحك أيها العبد.. ألم تنصرف بعد؟ ماذا دهاك لتتجراً وتقف في حضرة كاهن (نيبور) الأعظم؟

امتقع وجه (داكان) حتى لم يعد فيه نقطة حمراء، ظل ثابتاً كتمثال لا يتكلم ولا يطفرف، كان هذا أكثر بكثير مما كان يتخيل أن يحدث له من قبل، التسلل لقلب منطقة منازل الكهنة ولمس جدار لأحد المعابد، ثم رؤية الكاهن الأعظم وجهاً لوجه وسماع صوته، لم يستطع أن يرد أو يفكر حتى فيما يجب أن يقال في هذه المناسبة.. وليزيد الطين بلة اقترب منه الكاهن الأعظم بتؤدة وهو يلقي عليه نظرة خاطفة قائلاً للكاهن (تاراح):

- من هذا العبد البائس؟

رد عليه (تاراح) بغیظ:

- ليس سوى عبد ضالّ فقد سيده وأرضه عقب غزوة خاطفة من (الكوتيين).. فأرسله لنا الإله (إنليل) بباقي القطيع..

غمغم الكاهن الأعظم باهتمام وهو يتفرس في ملامح وجه (داكان):

- (الكوتيون).. الهمج القادمون من خلف جبال (زاجاروس).. صفهم لنا أيها العبد..

اتسعت عينا (داكان) أكثر لما اقترب منه الكاهن الأعظم وخاطبه مباشرةً، وظل صامتاً يتحاشى النظر لوجه الكاهن الأعظم، حتى انتفض مع صيحة الكاهن (تاراح):

- أجب سيدك أيها العبد!

انفكت عقدة لسان (داكان) من شدة رعبه - رغم أن من عقدها كان الرعب أيضا- وسارع بالقول بتلعثم بنبرة منخفضة:

- وحوش متجسدة.. حيوانات ناطقة.. يتحركون بسرعة كالبرق ويضربون بقوة كالإعصار.. جاءوا معهم بحيوانات من الجحيم أشبه بحميرنا الوحشية ولكن أكثر سرعة وأشد قوة وأعظم حجما.. يحرقون كل ما يجدونه ويقتلون كل من يواجههم..

ابتسم (تاراح) وهو يقول بارتباك للكاهن الأعظم:

- العبد يكذب ليُبهر سيدي..

أشار له الكاهن الأعظم بسبابته دون أن ينظر إليه قائلاً بهدوء:

- العبد وصف بالتحديد محاربي ما وراء جبال (زاجاروس) وبأسهم وشدتهم.. وكذلك وصف بدقة -من خلال محدودية خبرته الحياتية- حيوانات (الكوتيين) والتي لا نعرفها هنا.. الخيول..

ثم تتم محدثا نفسه:

- من المناسب قدوم الملك (نارام سين) لمدينتنا لمناقشته بعض الأمور لتطوير دفاع مشترك لبلاد (سومر) ضد هذا التهديد الخطير..

ثم أشار نحو (داكان) قائلاً بلهجة أمره للكاهن (تاراح):

- سنحتاج ما رآه هذا العبد.. يبدو أنه الوحيد الذي رأى (الكوتيين) ولم يمت..

قال (تاراح) على الفور:

- أمر سيدي الكاهن الأعظم.. سأضمه مع القائمين على خدمة هذا المعبد..

نقل (داكان) النظر بينهما تساؤل سائلا:

- ما الذي يعنيه هذا؟

أجابه الكاهن (تاراح):

- هذا يعني أنك لن تجوع بعد اليوم أيها العبد حسن الحظ!

ثم أشار له ليدخل المعبد، مع قول الكاهن الأعظم:

- سأتجه الآن للمعبد الكبير.. سأتسلق الزقورة.. في انتظار الملك (نارام سين)..

قال له (تاراح) بلهجة رسمية:

- ستجد خدام الإله (إنليل) من كهنة المعبد الكبير في انتظارك يا سيدي.. وسأتبعك أنا مع كهنة هذا المعبد..

سمع الثلاثة قرع ناقوس مهيب آتٍ من على مسافة بعيدة، فهمم الكاهن الأعظم بتصميم:

- ها قد جاءت جيوش الملك (نارام سين)..

ثم أضاف شاردا:

- ولأول مرة تضع قدم جندي مكانا بمدينة (نيبور) المقدسة..

5- حياة جديدة

(نيبور) البشرية..

سار (داكان) بخطوات مرتبكة خلف الكاهن (تاراح) بداخل أروقة المعبد الفسيحة، ظلت نظراته تنتقل بانبهار بين النقوش الملونة الزاهية على الجدران والأعمدة الضخمة المدرجة.. تماثيل للثيران شديدة البياض.. بين كل بضعة خطوات وطوال سيره انتصب باستمرار رقيم طيني قائم ممتلئ بالسطور المسمارية.. انسل اللحن العذب لأذنيه آتيا من بعيد، ثم ظل الصوت يعلو تدريجيا حتى ظهر شخص يجلس يعزف على قيثارة نحاسية وبمواجهته شخصان آخران ينظران بدقة لحركات أطراف أصابع يديه.. ثم ابتعد الكاهن (تاراح) بخطوات أسرع عابرا بوابة زقاء ملونة ليتبعه (داكان) وروحه ما زالت تنهل من صوت موسيقى القيثارة الذي ينخفض بابتعاده حتى أصبح خافتا.. وحلّ محله صوت مرتفع لرجل يبدو وكأنه يجاهد ليخرج صوته مرتفعا.. دخل (تاراح) وتبعه (داكان) حجرة كبيرة إلى حدّ ما ليجد شخصا ذا هيئة واضحة يتحدث بصوت مرتفع ليُسمع نفرا من الشباب -طلاب علم على ما يبدو- كلامًا ظنّ (داكان) أنه درس هام، اضطر المعلم لبتتر الدرس مع ظهور (تاراح) وهو ينظر له مبتسما بوذّ قائلا:

- أهلا عزيزي الكاهن (تاراح).. أنرت بيت الحكمة الخاص بمعبد السيد (إنليل)..

هز (تاراح) رأسه باحترام رادا:

- أشكرك السيد المعلم.. أعتذر لمقاطعتي شرحك المهم..

أوما له المعلم قائلا:

- لا عليك..

ثم أشار نحو (داكان) سائلا:

- لديك تلميذ جديد من (بيت طب)؟

أطلق الكاهن (تاراح) ضحكة قصيرة وهو يجيب:

- لا بالطبع.. إنه لا يجيد حتى القراءة والكتابة ليتخرج من (بيت طب).. إنه مجرد عبد فقد سيده فأرسله لنا الإله (إنليل) ليعمل بحرم معبده هذا..

كانت المؤسسات التعليمية ب(سومر) وبلاد الرافدين عامةً تنقسم لنوعين من المدارس، مدارس ابتدائية ويطلق عليها (بيت طب) أو بيت الألواح وكانت تهتم بتعليم اللغة -قراءةً وكتابةً- والحساب والموسيقى فقط لا غير.. ومدارس متقدمة أو (بيت الحكمة) تشمل العلوم كالرياضيات

والفلك والطب والسحر والأدب والدين والفلسفة وغيرها.. وهكذا وجد العبد الأمي (داكان) نفسه في قلب مدرسة متقدمة (بيت الحكمة) ينظر بعيون زائغة للرقم الطينية المكتظة بالحروف المسمارية والتي لا يفقه منها حرفا.. ولكن طمأنه المعلم بأن مد يده وربّت على كتفه مشجعا، فشعر (داكان) للحظة بأنه شخص له احترامه فحاول الاحتفاظ بشعوره غير المسبوق ونظرات امتنان للمعلم تكاد تثب من عينيه..

قال المعلم للكاهن:

- وماذا تريد مني فعله سيدي الكاهن بخصوصه؟

أجابه الكاهن (تاراج) وقد اكتسب صوته نبرة خطيرة بعض الشيء:

- لقد أرسلني الكاهن الأعلى بهذا العبد لك.. يريد منك استخراج منه وصف لأقوام ما خلف جبال (زاجاروس) الهمجيون من (الكوتيين) لأنه رآهم رأي العين، ومحاولة التوصل عبر التفاصيل لكل ما قد يلزم لردعهم.. وبالطبع تدوين كل هذا..

هز المعلم رأسه موافقا وهو يقول:

- لا مانع.. سأتهي درسي على عجل ثم أتلقى منه ما يستطيع إخراجه من معلومات ووصف..

ابتسم له الكاهن باحترام وهو يأخذ خطوة للخلف قائلا:

- أشكرك نيابةً عن الكاهن الأعلى.. واعدزني سأضطر للانصراف الآن لتجميع كهنة المعبد والاتجاه لمعبد الإله (إنليل) الرئيسي.. الملك (نارام سين) دخل (نيبور) المقدسة وسيتسلق الزقورة.. لا بد من استقباله رسميا..

اتسعت عينا المعلم بدهشة وهو يقول:

- هذا عجيب.. من الأفضل أن تتحرك الآن سيدي الكاهن..

انصرف الكاهن.. فأشار المعلم ل(داكان) بالجلوس أرضا مضيقا عينيه بلباقة، ثم أكمل حديثه للطلاب الجالسين أمامه متربعين أرضا قائلا:

- لدينا مدرسة دينية هنا ب(نيبور) تختلف تماما عن مدرسة مدينة (إريدو) اختلاف النقيض.. هم يقولون أن الإله الخالق للإنسان هو الإله (إنكي) إله الماء والحكمة، يقولون أن الإنسان خلق من طين ولم يكن بدائيا بل كان فيه شيء من الحكمة الإلهية مع ظهوره..

ابتسم لسماعه بضع ضحكات متحفظة ساخرة وهو يكمل:

- بالطبع نحن هنا في (نيبور) نؤمن تماما بأن إلهنا (إنليل) هو الإله الخالق للكون والإنسان، الإنسان الذي نبت من الأرض نباتا كحشيش الأرض ليبدأ بدائيا يسير على أربع، لا يعرف ملابس ولا أكل الخبز بل كان يقتات على العلف العشبي ويشرب الماء من السواقي..

ثم أضاف وهو يشير بسبابته للسماء:

- ولا ينسى التاريخ انتصار مدرستنا عندما سحق ملك الحرب (سرجون الأكادي) خصمه (لوكال زاكيزي) والذي كان من أنصار مدرسة (إريدو) الكافرة.. فاقتاده لمدينتنا وقام بإعدامه -بعد أن تسلق الزقورة- تحت قدمي الإله (إنليل)..

ثم رفع يديه بفخر قائلاً:

- وتحت رعاية الإله (إنليل) أصبحت امبراطورية (سومر) هي الأعظم في التاريخ.. تفوقنا في علم الفلك ونستطيع بسهولة قراءة السماء وفهم رسالاتها.. نعلم متى يحدث الانقلاب الشمسي بدقة.. لدينا اثنا عشر شهرا مقسمين على أساس دورات القمر.. تقدمنا في علم الفلسفة وقمنا بدمجها بعلم التنجيم والفلك لنخلق منطقاً داخلياً ضمن الأنظمة الكوكبية التنبؤية.. قسمنا الدائرة لـ 360 درجة.. قسمنا الأيام لأسبوع من سبعة أيام تتطابق مع الكواكب السبع.. يستطيع مهندسوننا قياس المساحات.. أدخلنا مفاهيم التشخيص والفحص الطبي والوصفات الطبية لعلم الطب وقدمنا للإنسان لضمادات والحبوب والدهانات.. نستطيع بمهارة طرد الأرواح الشريرة لتطهير المرضى من لعناتهم.. صنعنا المصابيح والنسيج وخزانات المياه والسدود.. نحن أمة لا تقهر حقاً وعليكم الفخر بهذا..

ومع نبرته علم الطلاب أنها نهاية درس اليوم، فبدأوا يقومون من مجلسهم والمعلم ينهي شرحه قائلاً:

- سأنتظركم في الغد صباحاً ولا تنسوا جميعاً..

ثم فرد ذراعيه على اتساعهما يمينا ويسارا حتى بدا ل(داكان) وكأنه يتأهب للطيران في السماء، وقال بلهجة حازمة:

- من يريد التفوق بمدرسة الكتّبة يجب أن يستيقظ مع الفجر..

غادر الطلاب الغرفة الواسعة.. لم يكن (داكان) قد استوعب أغلب ما قيل.. ولكنه شعر بالضالة مع استغراق المعلم بالحديث وفهم الطلاب لكلامه.. فلما انصرفوا جميعاً تجاهل النظر لعيني المعلم، الذي أمسكه من يده وقال له سائلاً بابتسامة عريضة:

- ما اسمك أيها العبد؟

أمسك (داكان) القرص الطيني المنقوش عليه اسم سيده لا شعوريا وهو يجيب:

- (داكان) عبد السيد الراحل (اشكون)..

مط المعلم شفتيه وهو يسأله:

- كان سيذا جيدا؟

اندفع (داكان) يجيب:

- كان الأفضل..

تنهد المعلم، ثم جلس أمام (داكان) ببساطة وهو يقول له:

- حسنا أيها العبد (داكان) يا من لا سيد لك الآن.. يبدو أن سيدك سيصبح للأبد هو (إنليل) فقط..

أشرق وجه (داكان).. هذا يعني أنه قد تم الإقرار بأنه سيصبح عبدا بمعبد الإله (إنليل)، وهو شرف ووجاهة لا يمتلكهما بعض العامة الأحرار، بالإضافة لأهم ما يتضمنه هذا التكليف الجيد وهو - كما قال الكاهن (تاراح) له من قبل- أنه لن يجوع بعد اليوم..

سأله المعلم باهتمام:

- هل تستطيع بناء منزل بيدك؟

لم يتوقع (داكان) السؤال ولكنه كان يعلم جيدا كيف يقوم ببناء المنازل، في الواقع لقد قام ببناء العديد من قبل منذ أن كان طفلا وسط مجموعة العبيد التي نشأ ليجد نفسه أحد أفرادها.. لذا فقد قال بطلاقة نابغة من خبرته بالشيء أكثر من ثقته بنفسه:

- أقوم باقتلاع بعض نباتات المستنقع الطويلة.. أجمعها معا وأربطها في حزمة محكمة.. أحفر الثقوب بالأرض ثم أضع حزمة بكل حفرة.. عندما تمتلئ الحفر وتصبح معبأة بالكامل يتم ثني الحزم التي تواجه بعضها البعض لتتحني أطرافها العليا وتتقابل صانعة قوسا قمته نحو السماء.. ثم يُلف حصير من القصب بالأعلى لتغطية السقف.. وكذلك يتم تعليق مجموعة أخرى من الحصير لإنشاء باب..

كان يتحدث بانفعال وعينه تلمعان.. تحدث بلسانه وأزره جسده فكانت ذراعه تتحركان وهو يتحدث.. تنخفضان وكأنه يحفر.. تنقبض قبضتاه وكأنه يضم الحزم بشدة.. تتراقص أصابعه وكأنه يثني الحزم.. يتحرك جذعه وتتواثق قدماه.. لم يكن يتحدث فقط بل كان يقوم بالفعل بكل حواسه وأطرافه.. حتى أنه لما أنهى كلامه كان بالفعل ينظر للأعلى رافعا يديه يتحسس سقفا وهميا قد أنشاه الآن بكلماته وهو يلهث من التعب..

استحسن المعلم ما لديه من خبرة، وقال له بإشفاق:

- هذه البيوت لا توجد لدينا هنا في منطقة بيوت ما حول الزقورة.. أنت تتحدث عن بيوت البسطاء المصنوعة من القصب.. هنا كل البيوت مصنوعة من طين ضفاف (الفرات) المخلوط بالقش والذي يعبأ في قوالب خشبية كالقرميد ثم يجفف تحت أشعة الشمس الحارقة..

أطل الجهل جليا من عيني (داكان)، فتنهد المعلم ثانيةً وهو يقول مزيلا عن (داكان) القلق:

- لا عليك.. لن يكون عليك أن تبني شيئا بعد الآن.. يكفيك عمك القديم كراعٍ لقطيع الماشية التابع لمعبد الإله (إنليل)..

صاح (داكان) ببهجة:

- هذا رائع!

أخذ المعلم نفسا عميقا ثم قال بهدوء:

- أريدك الآن أن تسترجع ما حدث معك عند هجوم الهمج (الكوتيين).. أعلم أنه طلب كرية وسيؤذيك نفسيا ولكن لا بد أن تجاهد نفسك وتعطيني تفصيلا دقيقا لكل ما حدث وكل ما رأيت وسمعت.. نحتاج لكل تفصيلا بخصوص هؤلاء الأقوام الذين أصبحوا يشكلون خطرا حقيقيا على امبراطوريتنا كلها بسبب غموضهم.. في الواقع لم أرَ ناجيا رآهم حتى الآن سوى أنت أيها العبد الذي يحبه الإله (إنليل)..

صمت (داكان) قليلا شاعرا بمدى أهمية ما سيتفوه به الآن من كلمات، أغمض عينيه وهو يسترجع بذاكرته لذلك اليوم المشؤوم، وبدأ يسترسل قائلا:

- كان يوما حارا جديرا بصيف (سومر وأكاد).. خرجت مع قطيع الماشية أرى بهم خارج حدود الأراضي الزراعية الخاصة بسيدي (أشكون).. ظل سيدي ملازما للأرض يتفقد المحصول السنوي والذي اقترب أوان حصاده.. رأيتهم قادمين من قمم جبال (زاجاروس).. كنا قد اعتدنا على هجمات خاطفة من هؤلاء الهمجيين.. يخطفون حيوانا أو يسرقون محصولا.. كنا نتقي شر بأسهم الشديد بتجنبهم.. وكلما رأى سومري منا أحدا منهم أتيا من عند الجبال كان يفرّ تاركا لهم ما يسد رمق طمعهم.. تزايدت مؤخرا عدد الهجمات ومعها تضاعفت وحشيتهم وطمعهم.. شعرنا وكأن هيبة الدولة السومرية الأكادية قد أصبحت على المحك.. كنا نرى جيوش الملك (نارام سين) تذهب بين الجبال ولا تعود.. مئات الجنود يغزون معاقل (الكوتيين) لينتهي أمرهم هناك.. غلبنا على أمرنا وصرنا نتهاون عن حقنا عندما يُغيرون علينا ولا نطالب من الدولة بقطع فضية تعويض كالمعارف عليه لأنه مؤخرا لم يعد يرد علينا أي مسؤول.. وكان حماية أملاكنا صارت

مهمة شخصية متعلقة بنا لا شأن لها بالدولة.. ويبدو أن (الكويتيين) قد أدركوا هذا مما جعلهم يتجرأون أكثر ويهجمون بأعداد كبيرة ويتوغلوا بداخل عمق أراضينا.. حتى كانت أشد هجماتهم عنفاً ذلك اليوم..

ثم أغلق عينيه وتقلصت ملامح وجهه بألم شديد.. استدعت ذاكرته تفاصيل ملامح وجوه الغزاة الوحشيين وهو يقول:

- مئات من الجنود أشبه بوجوه القروء.. يمتلكون سرعة الكلاب وخبث الأفاعي وفعالية لدغة العقرب السام.. مسلحين بشتى أنواع الأسلحة من سيوف وخنجر وفؤوس وهرافات.. يرمون بالأسهم والرماح.. مدججون بالتروس والدروع.. تركت لهم القطيع كله وفررت هاربا لأنجو بحياتي.. أصر سيدي على أن نلتزم بالأرض لأنهم -على حد قوله- لن يتجرأوا ويصلوا للمحاصيل الزراعية وسيكتفوا بما تطاله أيديهم من ماشية.. ولكنه كان مخطئاً.. نزلوا كالجراد على الأرض الزراعية وحرقوا المحصول كله.. خرجت لهم حامية قريبة تابعة لجيش (أكاد) فتفاجؤوا بمخلوقات من الجحيم جاء بها (الكويتيون) أضخم من الحمير وأقوى منها أضعافاً مضاعفة تقود عربات حربية بسرعة شيطانية.. هجموا بأعدادهم وهمجيتهم وأسلحتهم ومخلوقاتهم.. سحقوا الحامية ومزقوا أجساد الجنود ونكلوا بها.. كنت أتوقع هذا فلذت بالفرار بسرعة.. قتلوا سيدي وسط معركتهم مع جنودنا.. طاردوني ولكن نجحت الماشية التي تعقبني في تضليلهم، فاستولوا منها على ما استطاعوا وعادوا بغنائمهم ليتواروا خلف الجبال ثانيةً تاركين أنهاراً من دماء جارية ونيران لم تخبو بعد..

كان المعلم ينظر له باهتمام، يسمع كل كلمة لا يفوت حرفاً، فقال بترؤٍ وكأنه يحدث نفسه:

- عربات حربية متقدمة تجرها الخيول.. أسلوب حربي يعتمد على مفاجئة العدو.. قوة جسدية ملحوظة وأسلحة فعالة.. جرأة جعلتهم يتوغلون داخل أراضينا بدلاً من أسلوب الهجمات الخاطفة..

ثم طقطق بلسانه سقف حلقه مغمغماً:

- هذا لا ينبئ بخير قط!

ثم قام المعلم من مجلسه فحذا (داكان) حذوه على الفور.. قال له المعلم:

- أحسنت صنعا أيها العبد.. الآن ستخرج من هذا الممر وتتجه يمينا حتى النهاية.. ستجد ساحة واسعة تعج بالأعشاب الخضراء وستجد هناك كذلك مجموعة قليلة من الماشية.. ستكون وظيفتك ببساطة هي استغلال خبرتك في تسمينهم واختيار الأفضل منهم في المناسبات التي تقتضي الذبح..

ابتسم (داكان) فرحا وهو يقول:

- لن يكون هذا صعبا..

اتجه المعلم نحو رقيم طيني جاف ليدون ما قاله (داكان) في وصف (الكوتينين) وهجمتهم، وهو يشير له:

- يمكنك الانصراف الآن..

سار (داكان) للخلف وهو يقول كلاما غير مفهوم كالمهمة تعبيراً عن شكره للمعلم، ثم استدار ليخرج من غرفة الشرح نحو ذلك الممر الذي أشار له المعلم منذ لحظات ليمر خلاله، وجد مفترق اتجاهين بين اليمين واليسار، فاتجه لليسار بلا تردد ناسيا وصف المعلم من فرط انفعاله..

سار قليلا ولاحظ أن إضاءة المكان تخفت تدريجيا مع توغله أكثر.. وكأن شيئا ما يحجب ضوء الشمس المتسلل من نوافذ المعبد العليا.. أبطأ من خطواته وهو يتذكر جيدا كلام المعلم.. هل قال اليمين أم اليسار؟ لقد نسي تماما وصف المعلم ولكن ما يسير فيه الآن بالتأكيد ليس هو الطريق المؤدي للمرعى.. خاصة مع ذلك الشعور المقبض الذي تسلل لروحه مع تغلب الظلام على الضوء.. توقف ليعود أدراجه ثانية وقد غلبه يقين بأنه قد أخطأ الاختيار عند مفترق الاتجاهين.. وهنا تسلت لأنفه رائحة كريهة.. رفع يده ليغطي أنفه مقللا من معدل تدفق تلك الرائحة الكريهة لحواسه وقد بدأ يلاحظ وسط الظلام باب غرفة قد تلون بالكامل بلون أسود حالك يكاد لا يرى وسط الظلام رغم أنه كان على بعد بضعة خطوات منه.. تغلب فضوله على سلامة اختياره وتحسس جدار الممر بأصابع مرتعشة وهو يتقدم نحو الباب الأسود.. تعاطمت الرائحة الكريهة والتي بدت الآن وكأنها رائحة جسد ميت وقد بدأ في التحلل.. سمع همسات آتية من خلف الباب.. أخذ نفسا مبتورا حتى يقلل من معدل تنفسه لتلك الرائحة والتي بدأت تشعره بشيء من الدوار مع وثبة مباغته لحمض المعدة للأعلى حتى شعر بالسائل الحارق يسيل على لسانه، فازدد لعبابه بصعوبة شاعرا بألم قوي يسير عبر حلقة وحمض المعدة يعود أدراجه للأسفل.. توقف وقد شعر بالغثيان يغمره.. استند على جانب الباب الأسود ومدّ عنقه ليلقي نظرة بالداخل..

كانت نظرة خاطفة.. رأى دخان.. دماء تلوث الجدران والسقف والأرض.. قطعة لحم ضخمة تم وضعها على ما يشبه مذبح أفقي، ثم استلقت بالأرض تحت المذبح جثة شخص ميت وقد تم بقر بطنه وتدلّت أحشاؤه لتستقر على الأرض بجانبه تغطيها لفات دائرية من أمعاء دقيقة.. وبينما تنتسح عينا (داكان) بذعر فوجئ بشخص مسربل بالسواد يبرز من خلف المذبح وقد تلونت يديه بلون دم أحمر قان.. لم ير له وجهها بسبب تلك القلنسوة والتي غطت نصف وجهه العلوي.. كانت شفثاه مزمومتين بقوة وعنف.. وقبضتيه تتجهان نحو (داكان) مباشرة.. تراجع (داكان) برعب وشعور غامر يملؤه بأنه قد انتقل بدون سابق إنذار لكابوس أسود يجثم على أنفاسه.. اقترب منه

الشخص أسود الملابس أكثر فرفع (داكان) يديه أمام وجهه اتقاءً لخطر مجهول وهو يصيح بانفعال هز جسده وجعله يميل للخلف رغما عنه ساقطا على ظهره وعيناه تنقل مشهدا للسقف المشبع بالدماء..

(هذا ليس اليمين أيها العبد!)

قالها المعلم وهو يلتقط (داكان) قبل أن يلمس ظهره الأرض، وجره جرا ليبعده عن الباب الأسود قائلا للشخص الذي همّ بمهاجمة (داكان):

- أعتذر لك بشدة سيدي الساحر.. عبد جديد وقد ضل طريقه..

شعر (داكان) بروحه ترتد إليه ثانيةً مع عودة النور من جديد و اختفاء رائحة الأحشاء المبتورة.. ومع سقوط أشعة الشمس على وجهه عندما وصل الساحة الخضراء وسماعه لصوت خوار قطيع الماشية، تنفس الصعداء والمعلم يفلته من قبضته ويقول له محذرا:

- إياك ثم إياك أن تتجه نحو غرفة الساحر ثانيةً.. ستكلفك حياتك المرة القادمة!

لم يكن (داكان) في حاجة لهذا التحذير في الواقع.. الرائحة وحدها كادت أن تفتك به.. ارتعشت قدماه فترك جسده يسقط أرضا وهو يسعل بقوة طاردا بقايا رائحة الموت من رثتيه.. ثم دفن وجهه وسط كفيه وهو يبكي بحرارة مفرغا رعبه.. ألقى عليه المعلم نظرة سريعة وقد صارت كتفاه ترتجان بسرعة مع بكائه المحموم، فhez رأسه ماظا شفتيه قبل أن يرحل من الساحة الواسعة تاركا العبد الجديد يبكي وسط قطيعه الجديد.. في يومه الأول بمعبد (إنليل)..

6-لعنة (أكاد)

اتجهت الآلهة الثمانية صوب مدينة (أكاد) ناطقةً بلعنة الخراب والهلاك عليها..

يا أيتها المدينة لقد تجرأتِ بالهجوم على معبد الإله (إنليل) وتحديثه..

عسى أن تتكس غياضك وتتراكم كالتراب..

وعسى أن يعود أجرك المصنوع من الطين لأصله المائي.. وعسى أن تعود أشجارك لغاباتها..

لتكن أشجارك ملعونة ولا ينبت بسهولة سوى قصب الدموع..

وأبقارك المعدة للذبح عساك تذبحين زوجاتك بدلا منها..

وأغنامك المعدة للذبح عساك تذبحين أبناءك بدلا منها..

وفقراؤك عساهم يُغرقون أطفالهم الأعراء من الجوع..

يا (أكاد) عسى قصرك المشيد بالفرح يتحول لخراب محزن..

وليهز الثعلب ذيله بالمواضع التي تقام بها شعائرك..

وعسى ألا تنبت بمواضع جر القوارب سوى الأعشاب..

ولينمو النبات الباكي بطرق عرباتك..

ولتحل الحيات والعقارب بدلا من الماعز والأغنام..

ولتجري المياه المُرّة فيك بدلا من مياهك العذبة الجارية..

ليهجرك الناس ولتبقى مدينتك مدينة الخراب أبد الدهر..

(ترجمة لقصيدة قديمة سومرية تصف لعنة (أكاد) بالتفصيل)

(نيبور) البشرية..

لم يكن هناك موضع لقدم حول الزقورة المركزية.. تجمّع هائل من كل قاطني (نيبور) من عبيد وأحرار.. خَلَّت البيوت أو أغلبها من الناس.. توقفت حركة البيع والشراء بالسوق وقد حمل كل

تاجر بضاعته موقفا عرضها للبيع ووقف يراقب هذا المشهد غير المسبوق.. تقدم الأطفال الحشد وقد صاروا يتواثبون في المقدمة حول الجنود المدججين بالعتاد والأسلحة كما لو كانوا في حالة حرب، وكانت الأطفال ترقص وتصفق وتصفق وكأن اليوم هو أحد الأعياد السنوية.. حتى النساء وقفن خلف رجالهن ينظرن بقلق لهذا الجيش الذي لم يُر له مثيلا من قبل في (نيبور)..

شق الحشد مجموعة من الكهنة بملابسهم وهيئتهم المميزة يقودهم ويتقدمهم الكاهن (تاراح) وقد علت وجهه نظرة جادة.. أفسح لهم العامة الطريق برهبة ليمروا من خلال ممر تم صنعه لهم وسط الناس تلقائيا.. ما بين العشرين والثلاثين من الكهنة كانوا يسرون بوجوه جامدة وأذرع متشابكة على صدورهم وعيون العامة تتابعهم بوجل.. هذا عدد كبير من الكهنة ليسير في تجمع واحد وسط المدينة المقدسة.. وصل الكاهن (تاراح) لأول درجات الزقورة حيث كان يقف مجموعة من جنود الملك (نارام سين) في وضعية تحفز، أشار لهم (تاراح) ليفسحوا له ولكهنته الطريق صائحا:

- كهنة معبد الإله (إنليل)..

نظر له الجنود بوجوه قاسية بدون أن يتزحزح أحدهم قيد أنملة، وقال له أقربهم ببرود:

- لا أحد يمر صاعدا.. هذه أوامر الملك (نارام سين)..

نظر له الكاهن (تاراح) بتعجب وهو يقول مهددا:

- أيها الجندي.. أنت لا تعلم ماذا تفعل.. أنت لست في (أكاد) -مقر حكم ملكك(نارام سين)- الآن.. أنت في (نيبور) المقدسة حيث لا حكم إلا للإله (إنليل) وحده ممثلا في الكاهن الأعظم، والذي لن يسره منع كهنة معبد إلهه من التواجد بالمعبد..

أطلت نظرة ذات وعيد من عيني كل الجنود المتحيزين أمامه وقال له أحدهم ساخطا:

- وملكنا جاء ليتحدث مع كاهنك الأعظم ليعلم لماذا سحب إلهكم بركته من مدينتنا.. وأنت لست الكاهن الأعظم فيما يبدو.. لذا حاول تجاوزنا وسأكرمك بطعنة في الكبد!

احتقن وجه الكاهن (تاراح) ولكنه لم يتفوه بحرف، هناك أمر خاطئ يحدث الآن.. كل هذا الجيش وتحفزهم وما تلقوه من أوامر شديدة وباردة.. والأخطر من كل هذا هو الطريقة التي ينظر بها الجنود له ولكهنته وكذلك طريقة تحدث الجنود له.. هناك أمر مبيت النية سيحدث هنا، ولا يبدو أن عزل الكاهن الأعظم عن أغلب كهنته سيكون آمنا له.. الكاهن الأعظم الآن يواجه وحده الملك (نارام سين) الجامح وكل جيوشه.. ترى ماذا يقولان لبعضهما الآن؟

كانت الشمس الحارقة تسلع وجوه الجنود الكالحة الرابضين على كل درجات الزقورة، يتزايد لهيبتها كلما ارتفعت درجات الزقورة للأعلى نحو القمة حيث معبد الإله (إنليل).. وصلت قوة أشعة الشمس لأقصاها على المعبد الرئيسي نفسه، حيث وقف الملك (نارام سين) بجسده الضخم ونظراته الحادة التي كانت تنصب على وجه الكاهن الأعلى، والذي كان منتصباً أمامه باعتداد وثبات، يتلاشى النظر لأي من الجنود الذين ملأوا قمة الزقورة عن آخرها، ويبادل الملك نظراته بنظرات لا تقل عنها حدة وتحدياً.. وقد ماثله الهيئة والنظرات عشرة من الكهنة وقفوا خلفه صفا كالبنيان المرصوص..

ترك الملك قطرات عرقه تنحدر على جبينه بلا مبالاة وهو يقول للكاهن الأعلى بنبرة شديدة الوقع:

- إلهك منع عن (أكاد) بركاته وطرد منها جميع الآلهة.. معابد (أكاد) أصبحت بلا فائدة.. لم يعد هناك من يتحدث للكهنة من السماء.. لا إشارات سماوية ولا نُذُر ولا فأل.. أراضينا الزراعية أصبحت جدياً.. لم تعد لدينا من موارد ما يمكننا من شراء أو مقايضة أي سلع غذائية ضرورية.. (أكاد) تموت ويغادرها أهلها بسبب إلهك هذا.. الكل ببلاد الرافدين يتداول لفظ لعنة (أكاد) كحقيقة مسلم بها.. فهل لي أن أعرف السبب؟

كتم الكاهن غضبه وهو يرد عليه بهدوء:

- أولاً تحدث بأدب في حضرة الإله (إنليل) عنه.. ثانياً ليس بالعبد الصالح من يتذمر من ابتلاءات إلهه..

زمجر (نارام سين) حرفياً وهو يصيح:

- الملك (نارام سين) ليس بعبد!

تأهّب جنوده مع صيحته واستلوا سيوفهم وفؤوسهم، لم يتزحزح الكاهن الأعلى من مكانه وهو يقول للملك:

- كلنا عبيد للآلهة وخدامها ورعاياها..

صاح الملك بسخط متزايد:

- وأنا كنت خير تابع لهذا الإله لعدة سنوات.. كنت أصلي وأتضرع له وأدعوه ليلاً نهاراً ليكشف عن (أكاد) الغمة.. تكاتف كل كهنة معابد (أكاد) ليستجلبوا رضاه.. لم يحدث شيء.. وكأنه يستكبر عن سماع كهنته وملك مدينته الأولى التي شيدها ملك الحرب جدي (سرجون) بدمه..

وكانه يفضل (نيبور) عن (أكاد) ليس لسبب إلا لأنه إله ظالم.. أو إله أصم.. أيهما تفضل سيدي الكاهن الأعلى كاهن الإله (إنليل) الأقرب؟!!

بدأت ملامح قلق تظهر على وجه الكاهن الأعلى، فما يقوله الملك خطير ويحمل تجديفا عميقا لا يخفيه، ويحمل كذلك تحدّي للإله في قلب معبده وأمام كاهنه الأعلى، لقد جاء الملك لهدف محدد وهو عازم على تحقيقه بدون الاستماع لوجهات نظر أخرى، ويجب عليه أن يكون حازما في رده على تطاولات الملك فمكانته ليس بينها وبين الإله (إنليل) حجاب، إنه يمثل للعامّة مندوب الآلهة البشري، مكانة (نيبور) المقدسة الآن على المحك، ووحده ردُّ فعله الآن سيقدر مدى صمود مكانة المعبد في وجه تهديد الملك العسكري.. السلطة والنفوذ للملك (نارم سين) يقفان في وجه المعبد وكهنته، وكأنه ملك يتحدى إله.. أيقن الكاهن الأعلى أن الملك (نارام سين) يسعى الآن لضم السلطتين -الملكية العسكرية والدينية- في يده، وبهذا يتحقق له المُلك المطلق على مدن (سومر وأكاد)، وبهذا يخرج من مأزق اللعنة التي حلت على (أكاد) ويستطيع استعادة مكانتها بجلب المؤن والمساعدات من (نيبور) الغنية بعد أن يضع يده على حكمها، والذي كان مستقلا بيد الكهنة فقط دائما وأبدا..

شد الكاهن الأعلى قامته حازما أمره، أخذ خطوة للأمام ليقف وجها لوجه الملك، كان الملك قد أعد العدة وارتدى حلته العسكرية كاملة وكأنه مقبل على حرب فعلية، خرجت الكلمات من شفتي الكاهن الأعلى كالقنبلة وهو يقول:

- وجودك أنت وجنودك وعتادك وتناولك غير مرغوب بهم في مدينة (نيبور) المقدسة..

أشار الملك بيده اليمنى للأمام في حركة ذات معنى فتحرك صف من الجنود يحملون المجارف والفؤوس، تحرك صف الكهنة بتناغم ليحيلوا بين الجنود ومعدات الهدم وبين المعبد، تحرك الكاهن الأعلى ليتقدم صف الكهنة، تحرك الجنود نحو الكهنة وكأنه لا يعينهم أمرهم شيئا، التفت الملك (نارام سين) نحو جنوده والتقط من أحدهم فأسا ويلوح به للسماء صائحا بانفعال:

- اضربوا الأساسات.. ليخرّ المعبد ساجدا كالجندي الميت..

ثم أحنى طرف فأسه نحو الكهنة مكملا بوحشية:

- ولتسيل دماء من يقف في وجه إرادة الملك (نارام سين)!

ثم سبق جنوده بسرعة وقام بنحر عنق الكاهن الأعلى بحركة قوية نصف دائرية من ساعده الحاملة للفأس، لم يهتز الكاهن ولم يصرخ حتى، سقط على ركبتيه والدماء تفور من جرح عميق بعنقه، ثم انكفأ على وجهه يلتقط أنفاسه الأخيرة بتحشرج بالتزامن مع صيحات مستهجنة من العامة مع تصايح الجنود في كل مكان أن اقتلوا كهنة الإله الأصم.. أعمل الجنود أسلحتهم ليمزقوا

أجساد الكهنة.. كانت مذبحه قصيرة انتهت بالكهنة جثثا هامة.. خرج عدد من العبيد والعداري هاربين من داخل المعبد يصرخون برعب.. تجاهلهم الجنود وتحركت المجارف ودقت الفؤوس.. وخلال وقت قصير كان المعبد يتهاوى مع تحطم أساساته ليصبح أثرا بعد عين.. دوى صوت سقوط الأعمدة الضخمة وانهار الجدران الملونة المزينة بالنقوش.. اصطدمت الرقمة الطينية ذات الكتابات المسماوية لتتحطم ويضيع محتواها للأبد الديني منه والعلمي.. لم يتبق من المعبد كله إلا تمثال (إنليل) صامدا بمنتصف المعبد وأمامه مذبح حجري قصير..

وفوق هذا التمثال بمسافة بعيدة بين السحاب، كانت (إينانا) واقفة تراقب المشهد من علو بزوج من أجنحة تخفق بصمت، ووجدت نفسها تغمغم رغما عنها:

- لماذا أيها الملك؟ لماذا فشلت في اختبار السيد (إنليل)؟ كانت هناك طرُقا عديدة للخروج من المحنة، بالتأكيد ليس أحدها تحدي إلهك!

تجسد (إنليل) بجانبها، كان يهز رأسه بأسى وهو يقول:

- مسكين.. لقد أنهى للتو حكمه وحكم امبراطورية (أكاد) بيديه..

سالته (إينانا) بفضول:

- هل ستعاقبه؟

أجابها (إنليل) وقد بدا حزينا لما يقوله:

- لقد بدأ العقاب بالفعل.. لقد رأيت نواياه وتابعت تحركات جيوشه وكنت أعلم ما سيفعله من شرّ وتهوّر.. كان لابد من حدوث رد فعل سماوي لما فعله هذا الملك حتى لا تزول هيبتنا كآلهة عند البشر.. لذلك الآن وبينما نحن تحدث فقد قمت بالإيعاز للهمج (الجوتيين) لينحدروا من فوق الجبال كالجراد نحو (أكاد) التي هي الآن بدون جيش يحميها.. ذلك المخبول حرّك جيوش (أكاد) كلها فقط ليهدم معبدي.. استعراض نرجسي للقوة بلا داع سيتسبب في انهيار مُلكه.. (الجوتيون) قد قاموا بالفعل بتعطيل المواصلات وأوقفوا الطرق البرية والملاحة النهرية.. يتم الآن سلب الأغنام والماشية من حظائرهما.. قُطّاع الطرق والرقباء انتشروا في كل الأرجاء.. حتى هذا الجيش العظيم لن يستطيع مجارة (الجوتيين) والذين استولوا على البلاد فعليا الآن، وسيكون موقف (نارام سين) الآن هو كمن يحاول احتلال مدينة تم تحصينها بالكامل.. لقد سقطت (أكاد)..

ندمت (إينانا) على تضييع وقتها في مراقبة هذا الحفيد ل(سرجون) والذي من الواضح عدم امتلاكه لقدرات جده ملك الحرب والدهاء السياسي، لذا فقد ولّت وجهها شطر السماء وهي تقول هامة:

- لنعود ل(الوركاء) الآن..

ما حدث في هذا اليوم بعد هدم معبد (إنليل) لم يكن حقا بالضبط ما رواه (إنليل) منذ قليل، (أكاد) لم تسقط على يد (الجوتيين) ذلك اليوم، استطاع (نارام سين) بجيوشه طردهم من (أكاد) وتعقبهم بكامل جيوشه حتى جبال (زاجاروس)، ولكنه كان تنبؤا بما سيحدث بعد سنوات، فقد تنبه كل من حول (أكاد) من شعوب معادية لسهولة اجتياحها بعدما رأوا بأعينهم محاربي (الجوت) يتنزهون بقلب (أكاد) وعدة مدن سومرية أخرى، فزادت الهجمات الخارجية عامةً وهجمات (الجوتيين) خاصةً على مدن الرافدين.. مات (نارام سين) تاركاً ابنه (شار كليشاري) يواجه مزيداً من التحديات.. ففي عصره هاجمهم (الغيلاميون) بجيش عرمرم من الشرق ولكن واجههم الملك بجيوشه ونجح في صدّهم.. تسللت قبائل (المارتو) السامية من الغرب ولكنه صدّهم.. شنت قبائل (لولوبو) و(الجوتيين) البربرية هجمات مسلحة عنيفة متتالية من الشمال والشمال الشرقي من خلف جبال (زاجاروس) فحاول الملك صدّهم.. استنزفت كل هذه الجهود العسكرية الملك وجيوشه وخزانه دولته مما أثر على الحياة السياسية والاقتصادية في البلاد، حتى جاءت نهايته في ثورة حدثت ضده في قصره أنهت عليه وعلى حكمه.. فساد الارتباك العاصمة (أكاد) ليتحين (الجوتيون) الفرصة ليكتسحوها بجيوشهم ويدمروها تماماً، ثم ينطلقوا منها ليحتلوا عدداً من المدن الرئيسية المحيطة بها خاصةً شمال ما بين الرافدين..

ولم تكن أيام (الجوتيين) أيام رخاء وعمارة ونهضة اقتصادية وعلمية، كان كل همهم جباية ونهب خيراتها تاركين البلاد في عصر مظلم غير منتج لم يذكره التاريخ أبداً وكأنه لم يكن.. وبعد مرور مئة عام من احتلال (الجوتيين) ظهر الملك (أوتو حيكال) بمدينة (الوركاء)..

وها هو (أوتو حيكال) قد جمّع حوله رجال (الوركاء) ممن هو قادر على القتال، واتجه صوب معبد الإله (إنليل) الموجود هناك.. أمر رجاله بالانتظار خارج المعبد ثم دخل وحده ليخفي بالداخل عدداً من الساعات يخرج بعدها وخلفه كاهن المعبد مبتسماً بثقة.. ثم يقف بين يدي رجاله ويصيح بملء فيه:

- رجال (الوركاء) و(سومر وأكاد).. كل رجل حر ببلاد ما بين الرافدين.. لقد فوضني ملك البلدان الإله (إنليل) أنا (أوتو حيكال) ملك (الوركاء) وملك جهات العالم الأربعة الذي لا يستطيع أحد أن يخالف أمره.. أمرني الإله (إنليل) بتحطيم اسم (الجوتي) أفعى وعقرب الجبال الذي رفع يده ضد الآلهة.. الذي نقل ملكية (سومر) لبلاد أجنبية.. الذي ملأ (سومر) بالعداوة.. الذي أبعد الزوجة عن كان له زوجة.. الذي أبعد الطفل عن كان له طفل.. وأقام العداوة والعصيان بالبلاد..

هل الناس و(أوتوحيكال) ينهي كلامه بأن رفع يده عاليا للسماء، ثم أشار للأمام وانطلق بعربته الحربية الملكية التي يجرها زوج من الحمير المتوحشة، فتبعه الرجال وكلهم تصميم في الفوز بحرب التحرير الوليدة..

وكما كان متوقعا فإن تحركا مثل هذا بالأرض لم يغب عن أهل السماء، لذا نجد الحكيم (ماندانو) يحث الخطا كما لو كان يعدو متجها نحو الشرفة الملكية حيث كانت تقضي (إينانا) أغلب وقت نهارها، توقف بشكل حاد لما رآها تجلس شاردة وتوقف لحظة يلتقط أنفاسه فانتبهت له (إينانا) وأمالت رأسها نحوه سائلة بتعجب:

- ماذا هناك أيها الحكيم؟

ظهرت (نينشوبور) خلف الحكيم، لم يكن يفوتها شاردة أو واردة فيما يخص السيدة (إينانا)، فاستقرت واقفة بجانبه بفضول تنظر لشفتيه اللتين انفرجتا عن قوله الهادئ رغم هيئته المنفعلّة:

- هناك جديد بالأرض يا ملكتي..

استحثته (إينانا) للحديث بنظرات عينيها فقال:

- هناك ملك خرج من (الوركاء) ليحرر البلاد من سطوة (الجوتيين).. ترددت خطبته الحماسية منذ قليل بأرجاء معبد السيد (إنليل) ب(وركاء) البشر.. وقد جمع رجالا متحمسين للإطاحة بالغزاة..

سرى انفعال جارف في الأجواء مع قيام (إينانا) المفاجئ من جسلتها الطويلة، وسألت الحكيم بعيون تبرق أملا:

- هل هناك أمل في هالة إلهية جديدة؟

ابتسم الحكيم (ماندانو) بتروّ وهو يجيب بنبرة محايدة:

- لا يبدو الاحتمال قويا حتى الآن ولكن ولأول مرة يتحرك سومريون بعد احتلال (الجوتيين) بهذه الحماسة والعزم..

أضافت (نينشوبور) موجهة كلامها ل(إينانا):

- وحتى لو لم يكن يملك هالة إلهية.. مجرد تحرير بلاد الرافدين من هؤلاء الهمج وعودة الحضارة للأرض سيكون أملا متزايدا لنسل من الملوك يملكون هالة إلهية، بالمقارنة بملوك (الجوتيين) الجهلاء عديمي التحضر..

وافقتها (إينانا) بقولة مختصرة:

- صدقتِ عزيزتي (نينشوبور)..

سألها الحكيم (ماندانو) بحذر:

- ماذا ستفعلين الآن سيدتي؟

أجابته على الفور:

- كما فعلت مع سابقيه.. سأجعله يتقرب لي ويصلي لي.. وبالمقابل سأعطيه من الأسرار والحكم ما يجعله ينتصر على هؤلاء الغزاة.. وبعدها لنر ما ستسفر عنه الأمور.. لو كان صاحب هالة إلهية لن يكون الأمر صعب الاكتشاف.. ولو لم يكن صاحب هالة فكما قالت (نينشوبور) فإن عودة الحضارة للأرض فقط سيكون إنجازا يحتسب..

هز الحكيم رأسه مؤيدا، ثم انحنى بعد أن شعر بأن رسالته قد انتهت ليغادر الشرفة الملكية عائدا لغرفته، بينما قالت (إينانا) ل(نينشوبور) وهي تنهياً للطيران بجسدها مغادرة (وركاء) السماويين متجهةً نحو (وركاء) البشر:

- يبدو أن هالة إلهية جديدة قادمة..

لم ترد عليها (نينشوبور) واكتفت بابتسامة واسعة وهي تشيعها بتلويحها الهادئ بذراعيها..

وعلى الأرض.. وبينما كان (أوتوحيكال) يتقدم رجاله خارجا من (الوركاء)، خُيِّل إليه أنه يسمع همسا في داخل عقله يقول له بوضوح أن صلِّ للإلهة (إينانا) تنل مرادك، لما تكررت العبارة عدة مرات أيقن الملك أنها رسالة وليست هلاوس، فقام بتعديل مسار الجيوش التي تتبعه لیتجه الحشد نحو معبد (إينانا) المتواجد ب(الوركاء)، ثم توقف أمام مدخله ليخرج إليه كاهن المعبد على عَجَل متعجبا ومرحبا بهذه الزيارة، فقال له (أوتوحيكال):

- أهلا بك أيها الكاهن.. أنا الملك (أوتوحيكال) ملك (الوركاء) وملك جهات العالم الأربعة.. أتيت لآخذ بركات الإلهة (إينانا) لتبارك حربي ضد الغزاة (الجوتيين) كما باركني الإله (إنليل) من قبل..

انحنى الكاهن باحترام قائلا بغبطة:

- خيرا ما ستفعل سيدي الملك..

وقف (أوتوحيكال) ثابتا أمام مدخل المعبد، ورفع ذراعيه للسماء صائحا بصوت جهوري فيه قوة وتضرع في نفس الوقت:

- يا ملكتي.. يا لبؤة الحرب التي تهاجم البلدان الأجنبية.. أنا الملك (أوتوحيكال) ملك (الوركاء) وملك جهات العالم الأربعة.. لقد فوضني الإله (إنليل) ملك العالم لاسترجاع ملوكية (سومر) فكوني حليفتي في ذلك.. وساعديني في الحرب ضد الملك (تريجان) ملك (الجوتيين)..

ردّ عليه زئير أسود (إينانا) التي كانت تتطلع إليه من فوق معبدها، ففرح (أوتوحيكال) وهلل رجاله معتبرينها علامة على مؤازرة (إينانا) لهم وبالتالي نصرهم المؤكد..

تحرك الجيش لملاقاة (الجوتيين) بالشمال.. وبعد مسيرة ستة أيام تقابل الجيشان وكانت حربا سريعة حمل فيها (السومريون) على (الكوتيين) الغزاة بقوة متحمسين بمؤازرة آلهتهم (إنليل) و(إينانا)، في حين لم يحارب (الكوتيون) بنفس الحماسة، هزم (السومريون) (الكوتيين) وفرّ الملك (تريجان) لقرية قريبة ولكن تبعه (أوتوحيكال) حتى نجح في أسره وقضى عليه.. وبهذا عاد الحكم ل(سومر) لبلاد ما بين الرافدين على يد هذا الملك العظيم.. ولكن لم تشعر (إينانا) بأن هذا الملك يملك هالة إلهية رغم عظمته.. لذا فقد تركت للحكيم مهمة مراقبة نسله بدقة مقتنعة تمام الاقتناع بأن تحرير (سومر) من (الكوتيين) هو خطوة لا بد منها لتهيئة المنطقة لتأتي بملك منفرد ك(سرجون)..

7-لارسا

تدوم الصداقة يوماً..
لكن القرابة باقية للأبد..
(حكمة سومرية قديمة)



شمش

(لارسا) السماوية..

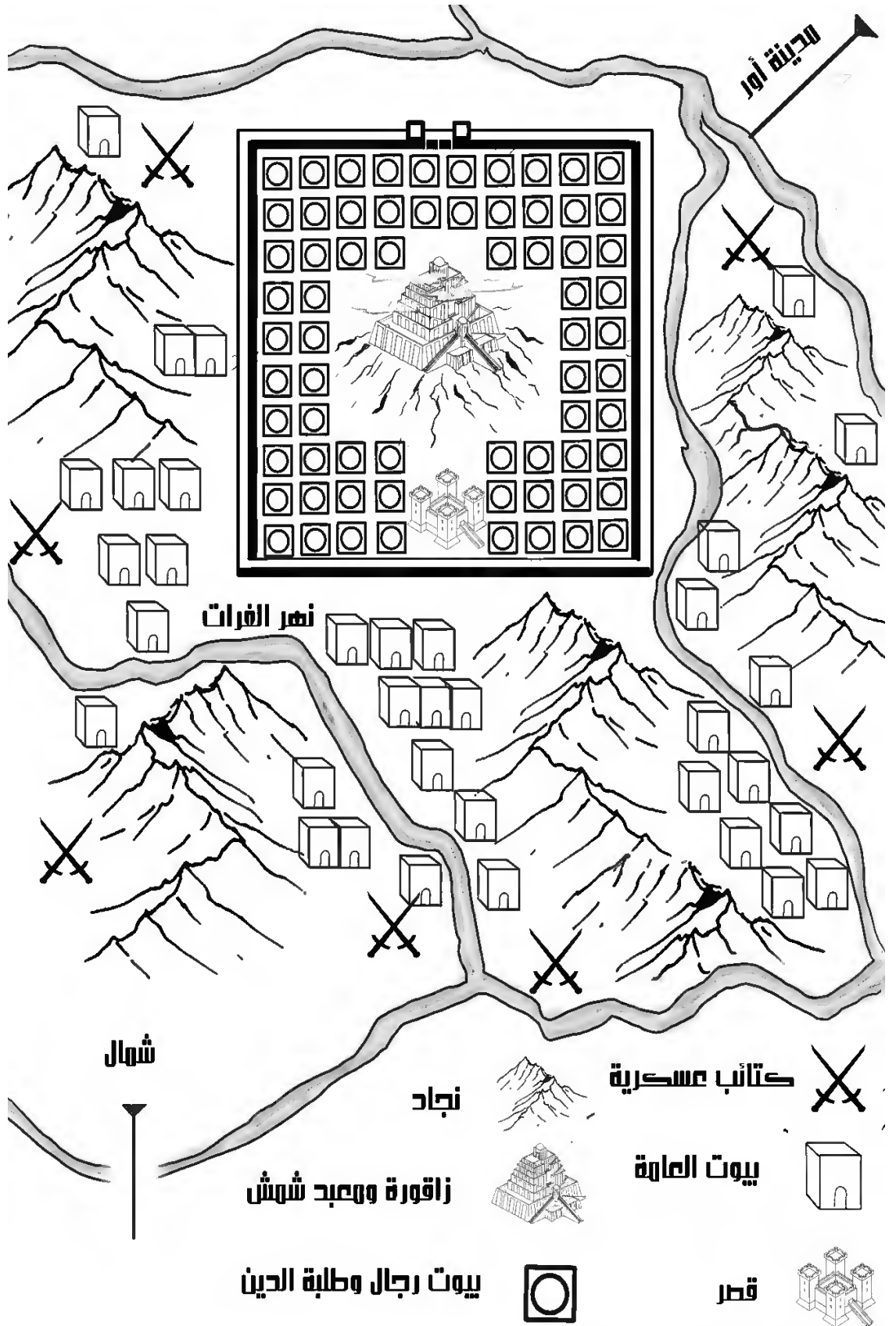
على الضفة الشمالية لنهر (الفرات) السماوي.. نفس الضفة التي تطل عليها مدينة (الوركاء) ولكن إلى الشرق قليلا منها.. انتصبت مدينة (لارسا) وسط سور ضخم دائري يحيطها كالسوار.. وبرزت ثلاثة أبراج عالية أطلت قممها الضخمة لتلقي بظلال عظيمة الحجم على منازل المدنيين نقيها ضوء شمس الصيف الحارق.. المنازل التي كانت تبدو وكأنها بنيت بقلب النهر، كان كل منزل يفصله عن جاره مجرى مائي رفيع، وارتقت الأشجار الخضراء الكثيفة حول كل منزل وكأنها سور خاص به.. وكانت كائنات (لارسا) السماوية تنتقل بين المنزل والآخر بواسطة ما يشبه قارب خشبي صغير.. لم تكن الكائنات السماوية كلها تمتلك قوة الطيران أو الانتقال الآني كالأسياذ، بل كانت تبدو بشرية جدا في الواقع سواء بالجسد والملامح أو القدرات الجسدية.. لم يكن الوضع سيختلف كثيرا لو تم جلب مستوطنة من البشر وتوطينها بأي مدينة سماوية تحت حكم آلهتهم الجدد.. وقد كان العامة من السماويين يعلمون هذا ويتجنبون أي نقاش بخصوص سياسة تعامل الأسياذ مع البشر وكأنه شأن لا يخصهم.. فقط يعلمون بوجود عالم سفلي به كائنات دنيا أقل منهم في التقدم العلمي ولكن كلا العالمان لا يلتقيان ولا شأن لأيهما بالآخر..

تراصت المنازل وسط مياه (الفرات) حول زقورة مركزية ضخمة ارتقت فوق الماء، امتلأت بالثكنات العسكرية وكأنها حصن مدرج وليست زقورة كباقي الزقورات.. وتوسط قمتها معبد ضخم للسيد (شمش) سيد (لارسا)..

وتميزت (لارسا) أيضا بوجود طوق يحيط منازل المدنيين من حصون عسكرية يليه السور المحيط بالمدينة والموازي لطوق الحصون.. يخرج من كل حصن منهم درجات حجرية تفضي للسور مباشرة.. وكان لها بوابتان أساسيتان، شمالية وجنوبية فقط..

كانت مدينة عسكرية التصميم والهوى كما هو واضح..

وخارج الأسوار، حيث بدت الحياة برية أكثر منها مائية، برزت مساحات شاسعة تفوق حجم المدينة نفسها داخل الأسوار، كانت كلها عبارة عن مساحات من الأراضي الزراعية وفيرة المحاصيل، تم تقسيمها على شكل



مربعات من الأراضي الخضراء تخترقها أنابيب حجرية ضخمة تقوم بضخ الماء للري، وتتقارب كل أنابيب الري هذه لتتقابل عند ضفة النهر حيث يوجد خزان ضخم يقوم بضخ الماء عبر هذه الأنابيب لكل الأراضي الزراعية، وبجانب الخزان وعلى ضفة (الفرات) برز معبد أخضر لون الجدران للسيدة (شيريدا) زوجة السيد (شمش) والمسؤولة عن الاعتناء بالأراضي الزراعية الشاسعة والتي تعتمد عليها المدينة ككل لسد الاحتياجات الأولية من الطعام وكذلك للتجارة وتصدير الفائض لباقي مدن ما بين الرافدين..

برز سد ضخم مهيب شمال غربي المدينة كلها اعترض (الفرات) كوسيلة حماية من الفيضانات الموسمية المدمرة للزرع والنسل، وكذلك لترشيد استهلاك الماء.. أما عن جنوب المدينة فقد كان ممهدا ليصلح لسير العربات الحربية والتجارية ذات العجلات.. وقد انقسمت بدايته لطريقين واسعين.. أحدهما يقود لمدينة (أور) والثاني يقود لمدينة (إيريدو).. كلاهما جنوب مدينة (لارسا)..

اقتربت مجموعة من العربات الحربية من البوابة الجنوبية، نظر الجنود الرابضين فوق الأسوار ليلمحوا العربة الحربية الخاصة بقائد الجيش (بونيني) تتبعه عدة عربات تحمل عددا من الجنود، فتم فتح البوابة على الفور ليخترقها القائد (بونيني) كالسهم وخلفه جنوده.. اتجه نحو الزقورة المركزية مباشرة بدون أن يلوي على أي اتجاه آخر.. توقف بعربته عند وصوله لأول درجات الزقورة في مواجهة معبد (إيبارا) – أو البيت المنير- الخاص بالإله (شمش) المتربع على القمة، فترجل من على متن عربته ليسارع بتسلق الزقورة، وتبعه كل الجنود على الفور..

وصل (بونيني) للقمة، كان طويل القامة رياضي القوام يرتدي رداءً عسكريا فضيا وينسدل شعره المجدول أحمر اللون من تحت خوذته، ملامح وجهه الممتلئة بالندوب أظهرت شبابا لا يتوافق مع منصب قائد جيوش هائلة كجيوش مدينة (لارسا) العسكرية.. تطلع للمعبد الشامخ حيث يستقر السيد (شمش)، وركز نظره على ذلك النقش المميز فوق بوابة المعبد حيث تم نقش صورة ضخمة للشمس تخرج منها نجمة رباعية وتحيطها أشعة تبدو وكأنها تنير فعليا.. رمز مدينة (لارسا) وسيدها (شمش) والذي يعبده أهل بلاد الرافدين البشرية كإله للشمس، ويقومون له المعابد في شتى المدن، وإن استقر معبده الرئيسي ب(لارسا) البشرية.. كما كان بشر الرافدين يعبدون زوجته السيدة (شيريدا) أيضا كإلهة الخصوبة..

دخل (بونيني) المعبد تاركا خلفه الجنود وقد توقفوا في مكانهم بدون أن يتبعوه مكتفين بالوقوف في حالة تأهب رغم عدم وجود ما يدعو لهذا..

عبر (بونيني) الحجرات.. تطلع يمينا ويسارا حيث امتلأ المعبد عن آخره بالعدراوات واللائي اقتصر المعبد على وجودهن حصريا بدون ذكر واحد، باستثناء السيد (شمش) بالطبع..

كان السيد (شمش) جالسا على كرسيه في غرفة تقع بمكان أعلى من كل حجرات المعبد، تطل على السماء مباشرةً عبر قبة زجاجية مثلثة القمة.. بدا ضخمة الجثة رغم كونه جالسا، ينسدل شعره الأحمر المجدول الغزير ليغطي حتى أسفل جذعه، مفتول العضلات متقدم العمر كما بدا في تجاعيد غزت جزءا عظيما من ملامح وجهه.. حاد الملامح يتوسطها زوج من عيون تحدقان كعيني صقر بنظرة أسرة مهيمنة طغت على كل ما عداها من ملامح وجهه وطغت عليها.. وكان مشغولا بنقش شيء ما على رقيم طيني جاف، فلما دخل عليه (بونيني) اعتدل في كرسيه تاركا الرقيم الطيني وابتسم مرحبا قائلا:

- أهلا بالقائد الهمام (بونيني).. لقد طالت زيارتك للمنطقة الجنوبية هذه المرة.. طالت حتى قاربت في فترتها الزمنية زيارتك لمدينتي الثانية (سييار) بأقصى الشمال رغم بعدها الشديد..

ألقى عليه (بونيني) التحية ثم جلس على الأرض أمام (شمش) وهو يقول:

- لقد تغير الحال كثيرا يا سيدي..

سأله (شمش) باهتمام:

- هل تقصد مدينة (أور) أم مدينة (إريدو)؟

أجابه (بونيني) وهو يتنهد:

- كلاهما يا سيدي..

ثم استرسل مع نظرات (شمش) المتسائلة:

- بالطبع كان مقصد رحلتي الظاهر أنها رحلة تجارية وليس رحلة بغرض التجسس العسكري كما قررنا.. ورغم هذا فقد أثمرت الرحلة تجاريا بشدة في مدينة (أور).. في الواقع لم أر من قبل مدينة تملك كل هذه الكنوز والخيرات، يمكنني القول بأنها مدينة دولة مكتفية اقتصاديا على نفسها ولا تحتاج لمبادلة غيرها لأي بضائع ولا يحتاجون لشراء أي ما يلزم لمعيشتهم.. باستثناء الأسلحة التي ننفرد بصنعها لأغلب المدن بالطبع.. حتى المدنيون لم أر فيهم فقيرا.. كلهم أثرياء غارقين في الدعة والراحة.. يدينون بولاء مطلق لكاهن المدينة الدولة ويعاملونه معاملة البشريين لأسيادنا وكأنه إله فعلي..

سأله (شمش) باهتمام:

- والتحصينات؟

سارع (بونيني) بالإجابة للسؤال الذي كان ينتظره منذ البداية:

- ليست بنفس المستوى من التقدم.. وكأنهم لا يعتقدون بأنهم سيخوضون حربا يوما ما.. يتحدثون عن قوة الكاهن الأعلى وسحره القوي ويعتمدون عليه وكأنه عين لهم وهم عميان..

ردد (شمش) هازئاً:

- سحر؟ يا لهم من حالمين!

- حياة الراحة والخمول المصاحبة للثراء الفاحش تفعل أكثر من هذا بكثير يا سيدي..

وافقه (شمش) بإيماءة من رأسه ثم أضاف باهتمام:

- سنحتاج هذه الموارد والذي يبدو وكأنها تكفي لكل مدننا السماوية..

- وتفيض يا سيدي..

سأله (شمش):

- وماذا عن مدينة (إريدو)؟

أخذ (بونيني) نفساً عميقاً قبل أن يجيب:

- يلفت النظر بهذه المدينة تقدم عمراني مذهل.. الزقورات كثيرة وعديدة وضخمة تختلف عن كل زقورات مدننا.. تتناثر معابد سيدهم (إنكي) بكل الأرجاء.. مكتفيين اقتصادياً أيضاً ولكن ليس بمستوى ثراء (أور).. يحكمهم الكاهن الأعلى والسيد (إنكي) بقبضة من حديد.. وبخلاف (أور) لديهم في (إريدو) جيش ليس بالسوء التنظيم والتسليح، ويحرصون دورياً على إمداد من الأسلحة سواء من مدينتنا أو من مدينة (كيش) العسكرية شمال البلاد..

غمغم (شمش):

- يعتمدون على مصدرين للتسليح.. خطة جيدة حتى لا يفقدوا كل إمداداتهم في حالة حدوث حرب.. يبدو وأن (إنكي) سيد بعقلية محارب..

قال (بونيني):

- أسوارهم قوية ولديهم مدد لا يستهان به من الأسلحة يجعل حصارهم فكرة ليست بالسديدة.. سيصمدون فترة أطول مما يجب مهما طال الحصار..

صمت (شمش) يفكر.. موارد (لارسا) ليست بالقليلة ولكنه يريد المزيد.. بالرغم من خصوبة أرضه ولكن أرض (أور) أكثر خصوبة وأكثر اتساعاً أضعافاً مضاعفة.. يعتمدون على الزراعة إلى جانب تعدين الأرض الغنية فمدينة (أور) تقع على تلة مرتفع غني بالمعادن المختلفة.. لديهم

تقنية ممتازة في تربية وتسمين المواشي والأغنام.. مدينة دولة بهذا الثراء والتنوع لا بد من الاستيلاء على خيراتها، ومن الغباء التام عدم استعداد أهلها لمثل هذا التفكير من دول الجوار..

قال ل(بونيني) وهو يهز سبابته سارحا:

- أفكر في الاستيلاء على (أور) بدون دماء.. بدون حرب فعلية.. لو هجمنا عليهم سنكتسحهم بدون شك.. ولكن لماذا نلجأ للعنف في حين يكون هناك بديلا عنه؟

سأله (بونيني) بعدم فهم:

- ماذا يعني سيدي؟

أجابه (شمش) وقد ارتسمت ابتسامة وحشية على وجهه:

- الكاهن الأعلى.. إذا كانوا يولونه ولاء أعمى لهذه الدرجة فسيتخبطون في ظلمات الاضطراب لو فقدوه وسيرحبون بأي من يتحكم بخيراتهم من بعده لعدم لجوء مستقبلهم لخطة مستقبلية بديلة بدون هذا الكاهن..

سأله (بونيني) مترددا:

- هل تعني اغتياله؟

قال (شمش):

- بالطبع.. أنت تعلم الآن مداخل ومخارج وتسليح مدينة (أور).. ارسل جنديا واحدا فقط يمتلك من المؤهلات ما يمكنه من إنجاز عملية الاغتيال هذه بسرعة وصمت وفعالية.. وبمجرد قتل الكاهن الأعلى سيتم إشاعة أن السيد (سين) قد عاد لحكم مدينته الأولى بعد أن سلبه منها الكهنة المتعاقبون..

تردد (بونيني) قليلا قبل أن يسأل بحذر:

- وهل سيعود السيد (سين) بالفعل؟

اتسعت ابتسامة (شمش) وهو يجيب:

- لا يزال للسيد (سين) -شقيقي- رغبة في حكم مدينة (أور) مرة ثانية بعد أن طرده منها الشعب في مظاهرة حافلة حرّض عليها الكهنة..

- وهل نتوقع تدخل المبعوث حيا -السيد (أداد)- مجددا؟

نفخ (شمش) بضيق مع ذكر (بونيني) لاسم شقيقه الثالث (أداد)، وتراجع في كرسيه للخلف وهو يقول وقد بدا التعصب في صوته:

- السيد المثالي (أداد)، شقيقنا الثالث والذي لقي حتفه عقب حرب الأسياد الدموية منذ سنين عديدة خلت، والذي كان له الدور الأساسي في عزل (سين) عن حكم مدينة (أور).. فعندما لمّح (سين) لاستخدامه لقوته الغاشمة - كأحد الأسياد- في مواجهة ثورة الكهنة والعوام، حينها تصدى له (أداد) -مبعوثا من العالم السفلي من جديد- ومنعه من استخدام قوته، بل والأنكى أنه حذره بأنه سيتدخل ويصبح طرفا في المواجهة لو استخدم القوة ضد شعبه.. مما اضطره للانسحاب من (أور) في صمت وتسليم مقاليد الحكم للكهنة بعد ظهور (أداد) المباغت من الجانب الآخر.. لقد كانت مؤامرة لخلعه باركتها أسياد العالم السفلي..

غمغم (بونيني):

- ما زالت زقورة (أور) الاسطوانية الضخمة المرتفعة تحمل معبد السيد (سين) على قمتها..

قال (شمش):

- ألم أقل لك أن السيد (أداد) وكهنته ومن بعثه حيا يصرون جميعا على تمثيلهم لدور الطرف المثالي العادل؟ وكأنهم بتركهم لمعبده لم يخلعوه بالقوة والدهاء من حكم مدينته!

- هذا يعني أنه باغتيال الكاهن الأعلى سيعود السيد (سين) لحكم مدينة (أور)؟

- بالطبع.. ما زال يتألم من يومها.. وما زالت أتحين الفرصة لإعطاء شقيقي ما سرقه منه شقيقي الثاني! وعندما يجد (أداد) ومن يدعمه بالعالم السفلي أن العامة هم من يهتفون باسم (سين) سيضطر لجر أذيال خيبتة والاكتفاء بالمشاهدة..

- عادل بما يكفي سيد (شمش)..

نهض (شمش) من كرسيه فسارع (بونيني) بالاعتدال قائما احتراما لسيدته، اقترب (شمش) من (بونيني) قائلا بلهجة حاسمة:

- سأترك لك تخطيط عملية الاغتيال وحدك وسأنتظر فقط خبر نجاحه لأخبر (سين) ليذهب ويستعيد ما تم سلبه منه في نفس اليوم.. لا ينبغي أن نترك لهم فرصة لمّ شتاتهم بعد لحظة الاغتيال.. ولك كامل الصلاحيات والتي تصل حتى لاستخدام الساحر القرد سيد الأشكال..

هز (بونيني) قامته بشدة مبالغ فيها وهو يقول بحزم:

- لا تقلق يا سيدي.. اخبر السيد (سين) بأن يستعد لحكم مدينته (أور) من جديد..

8- كيش

المعبد منصة الأرض..

الثور الشرس النافع..

معبد (كيش) منصة الأرض..

ارتفاع عاليًا كالتلال..

ارتفاع مثل (إيكور)..

ارتفاع مثل الجبال المتجذرة ب(أبزو)..

جبال شامخة كعظمة (كيش)..

فهل هناك من مُنح من قبل مثل هذه العظمة؟

معبد يطفو بالسمااء كسفينة مقدسة..

مثل قارب سماوي..

يطوف كثورٍ له خوار..

معبد بداخله طاقة الأرض وخلفه حياة (سومر)..

(من ترنيمة (كيش) أقدم عمل أدبي بالتاريخ 2600 ق.م)



زابابا



نینازو

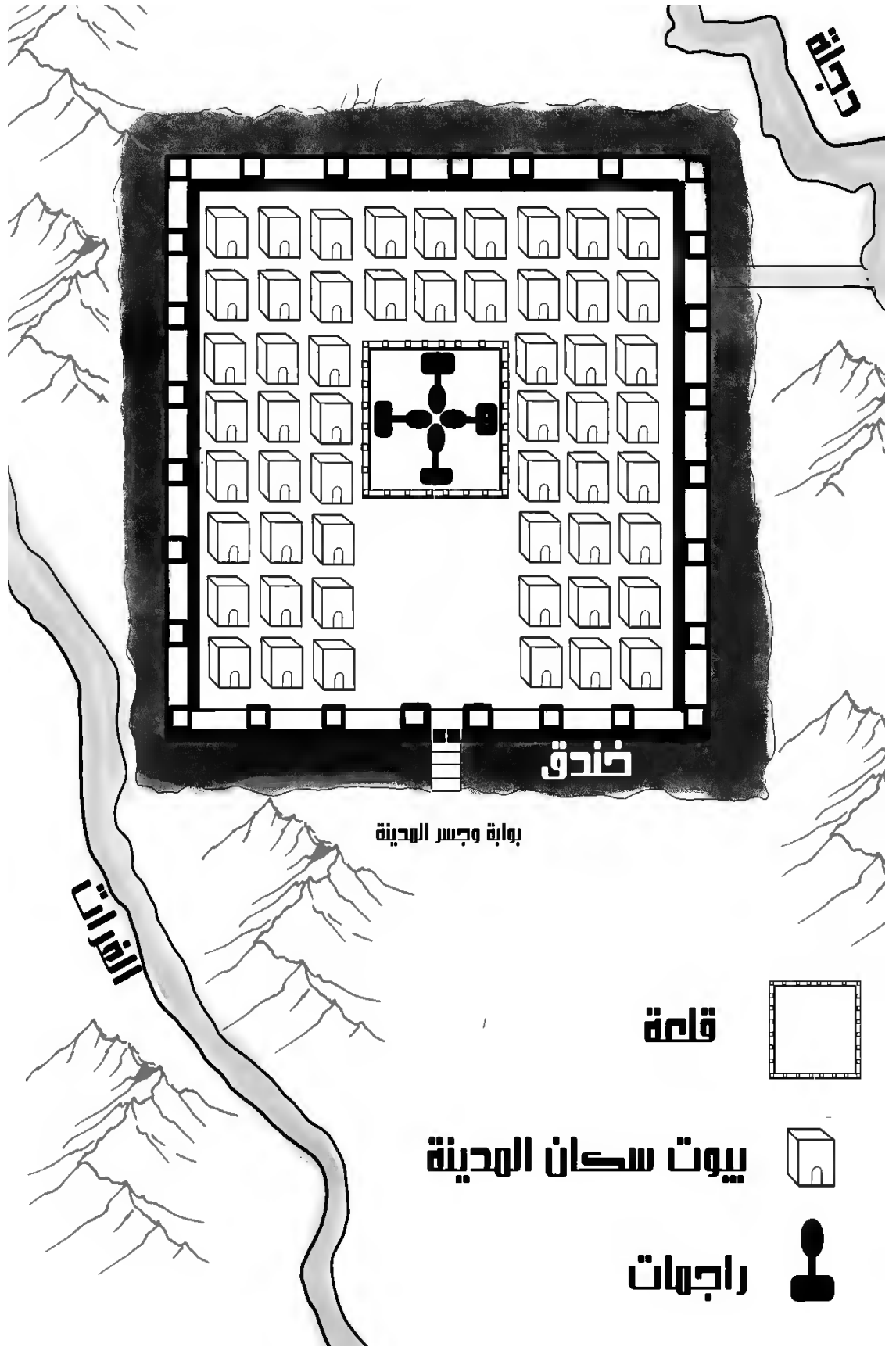


عسق

(كيش) السماوية..

شمال ما بين الرافدين، بمنطقة صحراوية تحيطها الجبال العاليات من كل الجهات، تقع بالمنتصف بين نهري (دجلة) و(الفرات) السماويين مدينة **(كيش)** والتي يمكن اعتبارها مدينة عسكرية بالكامل.. تحمل مدينة **(كيش)** تاريخا حافلا من الهجمات العسكرية على كل جيرانها منذ فجر التاريخ السماوي رغم أن معنى اسمها الحرفي بالسومرية يبدو سلميا للغاية ألا وهو شجر السوس.. لديها جيش نظامي قوي قبل أن يكون لأي مدينة سماوية جيش حقيقي.. تقسيمها العمراني كان برياً بشدة كطبيعة المدينة الجغرافية الوحشي، تراصت البيوت بجانب بعضها البعض في خطوط مستقيمة لتصنع مستطيلاً يمكن رؤيته من الأعلى كبيوت بيضاء امتدت الرمال الصفراء خلالها.. لا أشجار لا مياه نهر.. فقط أنبوبة حجرية ضخمة كانت تتفرع منها عشرات الأنابيب الأصغر حجماً لتمتد بين البيوت وتمدها بالماء، وكان مصدر هذه الأنبوبة يأتي من الشرق من جهة نهر (دجلة).. لا توجد بها زقورات، فقط قلعة محصنة شديدة الارتفاع بالمنتصف ينتصب بأعلىها سطح مستوي واسع تجاوزت فوقه عدة راجمات أحجار عملاقة كخط دفاع مركزي قوي عن المدينة.. في حين أحاط بالمدينة أربعة أسوار أحاطت بالمدينة كأضلاع مربع ضخم، كانت الأسوار سميكة يعلوها عدد هائل من الأبراج المتراسة، وبين كل برج والآخر تواجد قاذف أسهم ضخم كانت بجانبه قطعة قماشية معلقة على السور -كنازة- تحوي عدداً هائلاً من الأسهم عظيمة الحجم بما يناسب حجم قاذف الأسهم.. ثم أحاط بالأسوار كلها أربعة خنادق امتلأت عن آخرها بمادة سوداء ثقيلة القوام ساكنة الحركة، فلم يكن من الممكن دخول المدينة سوى من الجنوب عبر بوابة كبيرة الحجم تعلّق بها جسر حجري متحرك يهبط عند الحاجة لنقل المتحرك من وإلى المدينة بسلام فوق السائل الأسود القابل للاشتعال، ثم يعود ليرتفع رأسياً حتى يصبح جزءاً من البوابة والسور جاعلاً اجتياز المدينة ضرباً من ضروب المستحيل..

بداخل القلعة المحصنة والتي تزينت بوابتها برمز ضخم لأوراق شجر السوس كان حاكم مدينة **(كيش)**- وقائد جيوشها أيضاً- السيد **(زابابا)** يجلس متربعا على الأرض بجانب السيد **(نينازو)** محارب جيوش **(كيش)** الأكثر



حجلة

الفرات

خندق

بوابة وجسر الهدينة

قلعة



بيوت سكان الهدينة



راجهات



شهرة والملقب بمروض التنين، كلاهما كان يرتدي ملابس حرب كاملة وكانهما بوسط أتون حرب مستعرة، فلم يبرز منهما سوى جسدان ضخمان مدججان بالدروع، وخوذتان فضيتان متشابهتان تميز كلاهما بزوج من القرون المعدنية الحمراء المتفتحة.. سمعا صوت طرقا معدنيا من درع الحارس الواقف بخارج حجرة الحاكم، يستأذن الحاكم (زابابا) في إدخال الزائر الجديد، فصاح به (زابابا) بقوة:

- لتدعه يدخل..

دلف الحجره كائن ضخم الجثة لحد قارب ليصل السقف المرتفع، بوجه كره مشوه مليء بالطعنات وبشرة فضية عجيبة اللون ليست كبشرة السماويين المماثلة لبشرة البشر بتنوعها في الألوان، كان يرتدي دروعا سوداء وتدل على سيف فضي طويل من نطاقه لامست ذبابته الأرض وظلت تحتك بالأرض الحجرية أثناء سيره صانعة صوتا مثيرا للأعصاب.. أشار له (زابابا) عندما اقترب منه لحد كبير ليتوقف، أطلق العملاق حوارا وتوقف.. أشار له (زابابا) بيده ليجلس مثلها على الأرض، زمجر العملاق قبل أن يقول بصوت خشن نبراته غير مفهومة:

- لا أستطيع الجلوس أرضا.. جسدي ليس مصمما لهذه الرفاهيات..

أنته تنهيدة نارية من (زابابا) قبل أن يأتيه صوته من خلف خوذته قائلا:

- ماذا تريد من حاكم (كيش) أيها المارد (عسق)؟

زمجر المارد (عسق) قبل أن يقول:

- أريد مساندة منك في حربي ضد (إيرا) قائد جيوش (نينورتا).. جيوشي جاهزة وعلى أهبة الاستعداد وتحتاج للمساندة فقط..

أناه الرد على الفور من (زابابا):

- حربك ضد (إيرا) أم ضد (نينورتا)؟

- حربي ضد (إيرا).. وبعد أن أهرمه ساحل محله قائدا لجيوش (نينورتا)..

- وهل تظن أن (نينورتا) سيتركك على قيد الحياة لو أطحت ب(إيرا) ذراعه اليمنى؟

- (نينورتا) مشوش الفكر ولا يعرف كيف يختار قائدا لجيوشه..

تدخل (نينازو) في الحديث لأول مرة قائلا بصوت غريب بدا كتدفق نيران من الحمم:

- ربما لا أعلم الكثير عن (نينورتا) بشكل شخصي.. ولكن القليل الذي أعلمه أن أسياذ الصواعق بشكل عام ليسو بمشوشو فكر قط..

نظر نحوه المارد (عسق) بكراهية وهو يقول:

- أتحدث مع الحاكم (زابابا) أيها الكريه..

قال له (نينازو) بحدة:

- انعتني ثانيةً بنعت آخر سيء وسأشوق جسدك السمين..

مال فك (عسق) لجانب وجهه المشوه فيما يبدو كابتسامة متحدية وهو يقول:

- لم أسمعك جيدا أيها المأفون!

أشار (زابابا) بكفّ يده ل(نينازو) مانعا إياه من رد فعل كان وشيكا، ثم اتجه ل(عسق) بالحديث قائلا:

- طلبك مرفوض.. لا توجد حاليا عداوة بيننا وبين (إيرا).. ولا نريد خلق عداوة مع جيوش نظامية قوية كجيوش (نينورتا) والتي سيقف خلفها وبلا شك سيدا الصواعق أبيه وجده (إنليل) و(أنو).. لن نقوم بتحدي أسياذ الصواعق جميعًا من أجلك..

- خائف؟

- (زابابا) لا يخاف..

ثم أكمل:

- فقط لا أخذ خطوة ستضرني أكثر مما ستفيدني..

- وتدمير مدينة (ماراد) لن يفيد مدينتك (كيش)؟ إنها قريبة جدا من (كيش) وتكتظ بجنود (سومر) مما يمثل خطرا داهما على مدينتك..

- جنود (سومر) النظاميين لا يبدأون بشن حرب غير مبررة أبدا.. ثم —والأهم— لا أجد جدوى حقيقية مفيدة من شن حرب على مدينة تخص أحد أسياذ الصواعق.. إنهم يتجنبونا ونحن نتجنبهم وكفى..

- أنت الأجدر بقيادة جيوش (سومر) النظامية من (نينورتا)..

- لن تنجح ببث سمومك في بدني أيها المارد.. عندما تنفذ موارد مدينتي سأقوم حينها بشن الحرب على كل مدن ما بين الرافدين وأجعلها كلها ملكا لي.. أما الآن لا أحتاج لشن حرب ضد أقوى جيوش (سومر) وأسيادها بدون داعٍ.. اقتصادنا يكفي شعبنا ويفيض..

عاد (نينازو) ليعقب قائلا:

- ولو كان هناك خطرا حقيقيا فهو من مدينة **(بابل)** القريبة والتي يبدو وأنها ستهاجم الجميع قريبا..

زمجر **(عسق)** قائلا:

- **(ماراد)** و**(نيبور)** المساندة لها أشد خطرا من **(بابل)**.. **(إيرا)** أقوى وأشد خبثا من **(مردوخ)**.. قال **(زابابا)** بلهجة أشبه بالزعيق:

- و**(زابابا)** أقوى من كل أسياذ سماوي **(سومر)**..

صمت **(عسق)** وقد بدا مستاءً للغاية من قرار **(زابابا)** الواضح هو ومحاربه **(نينازو)**، فقال غاضبا:

- قريبا ستندم على اختيارك الخاطئ هذا كما سيندم **(نينورتا)** على اختيار خاطئ مثله..

تحرك **(زابابا)** ليعتدل واقفا وحذا **(نينازو)** حذوه، و**(زابابا)** يقول محذرا وهو يمد يده لسيفه المعقوف الرابض بنطاقه هاما بالتقاطه:

- هل تهددني أيها المارد؟

تراجع المارد **(عسق)** خطوات للخلف وهو يرفع يديه قائلا:

- ليس بتهديد أيها الحاكم..

ثم أضاف وهو يوليها ظهره مغادرا:

- لقد أخطأت بالقدوم إلى هنا.. من الواضح أن حاكم **(كيش)** مشغول بحاكم **(بابل)** والذي هو سيد للسحر لا يمكن مجاراته..

صاح به **(زابابا)** على الفور:

- توقف مكانك أيها المارد..

ابتسم **(عسق)** ابتسامة كريمة للغاية قبل أن يدور بجسده العملاق وينظر ل**(زابابا)** بتحفز، فسأله الأخير:

- ماذا تعني بأن **(مردوخ)** أصبح سيذا للسحر؟ لا أحد يعرف يقينا أية معلومات عن هذا السيد الذي ظهر بغتة بدون مقدمات بعالمنا السماوي..

أجابه **(عسق)** بغموض:

- هل تظن أن معلومات كهذه ستكون كافية لموافقتك على الانضمام لتحالف معي ضد جيوش السيد (إيرا)؟

غمغم (نينازو) بمقت من خلف خوذته:

- يا لك من خبيث..

سارع (زابابا) بالرد عليه:

- (زابابا) لا يمكن ابتزازه للدخول في حرب لا يريد.. انصرف أيها المارد بسرعة قبل أن يكون لي شأن آخر معك..

عبس (عسق) بعد أن ظن أنه قد نجح بالفعل في إثارة اهتمام (زابابا) نحو جاره (مردوخ) سيد (بابل) المدينة السماوية الوليدة، لذا فقد أدار وجهه وجسده وسارع بالانصراف من حجرة الملك ومن القلعة المحصنة كلها.. بينما اتجه (زابابا) نحو (نينازو) بوجهه قائلاً:

- ماذا يقصد هذا المارد باتجاه (مردوخ) للسحر؟

هز (نينازو) كتفيه العريضتين مجيباً:

- لا أدري حقاً.. منذ وقت قريب اعتلى ذلك السيد السماوي الجديد (مردوخ) عرش (بابل) ومع بداية حكمه فرض قانوناً بمقتضاه لا يمكن دخول المدينة إلا من أهلها فقط، وقام بإنشاء جدار سحري معتم يمنع اختراق أو رؤية ما يحدث بمدينته.. أصبحت هذه المدينة بقعة غامضة لا ندري عنها شيئاً من حينها..

- أرى أن ما قاله (عسق) ليس باختلاق.. هناك ما يحدث فعلاً خلف أسوار (بابل) وليس السحر بمستبعد..

قال له (نينازو) بهدوء:

- لماذا تخاف من السحر ولدينا الوحش (موشوسو) والذي لا يوجد مثله بكل البلاد ولا يمكن مجاراته..

تنهد (زابابا) وهو يقول:

- لا بد وأن تخاف السحر يا عزيزي (نينازو).. ما أظن أنه يحدث ب(بابل) ليس ما اعتدناه وعلمناه للبشر من سحر التنجيم والعرافة وقراءة الأحلام ومعرفة الماضي بمناظرة أكباد الموتى.. إن ما يجعل (مردوخ) يغلق عليه أبوابه لهو حتماً شيء مختلف..

ثم أكمل وهو يربت على درعه:

- سنجد استراتيجية تمكنا من اختراق أسوار **(بابل)** سلميا والتجسس عليهم لمعرفة ما وصلوا إليه من تقدّم بمجال السحر وما يخفونه بهذا الخصوص.. وفي أسرع وقت ممكن.. وإلا لن يكون أماننا إلا الإسراع بشن حرب خاطفة على **(مردوخ)** قبل أن يتفاهم خطر ما يفعله سرا..

في هذه اللحظة كان **(عسق)** يغادر **(كيش)** سائرا بعصبية على الجسر المتحرك بخطوات كانت تهز الجسر كله وتكاد تقتلعه من منشئه بأسفل البوابة الضخمة.. ابتعد عن **(كيش)** قليلا ووقف لا يلوي على شيء شاعرا بغضب عميق يجتاحه.. ليس لديه أي جيوش كما يدعي.. فنت كلها في آخر حرب ضد **(نينورتا)**.. ولكنه يذيع بأن جيوشه ما زالت موجودة فقط لإعطاء نفسه هيبة تصلح لجعل **(نينورتا)** و**(إيرا)** قلقين منه، وكذلك حتى ينجح في استمالة أي من الجيوش والتي قد تصلح لمساعدته على النصر على جيوش **(نينورتا)** التي يعترف بأنها قوية ومنظمة للغاية، وأن النصر عليها هو ضرب من الخيال، وأن نجاحه في جلب أي حليف ضد **(نينورتا)** سيكون شيئا مستحيلا فالكل يهابه..

كان قد ابتعد عن أسوار **(كيش)** بما فيه الكفاية حتى تصبح قمم أبراجها تتماوج في عينيه كالسراب بسبب بعد المسافة، عندما شعر وكأن هناك دخان فضي يتكون أمامه، توقف لحظة يراقب ما يحدث، تكاثر الدخان وبدأ يأخذ شكل قوام كائن حي معتدل الحجم ليس كحجم المارد **(عسق)**، ثم انفض الدخان ليسفر عن قوام جسد أنثوي ترتدي أقمشة بيضاء تغطيها من قمة رأسها لأخمص قدميها كما لو كانت تتعمد إخفاء هويتها، رفعت ذراعها اليمنى لتبرز من طرف القماش المغطي للذراع أصابع مخلبية طويلة الأظفار السوداء، وكانت الأظفار تشير إليه وصوت المرأة يقول له بصوت مبجوح:

- لقد خسرت معركتك قبل أن تبدأها أيها المارد **(عسق)**..

تطلّع لها **(عسق)** بدهشة وهو يفكر في هذه الغامضة التي تعرف ما يفكر فيه وتفاصيل وضعه الحالي المؤسف، ولكنه استجمع زمام أمره وصاح بها:

- لا شأن لكِ بمعركتي أيتها المتطفلة.. أنا أعلم كيف أكسب معاركي..

أطلقت المرأة ضحكة رنانة قبل أن تقول هازئة:

- لا يمكنك أن تكسب معركة ضد سيد من أسياذ الصواعق..

ثم استدركت بسرعة مع زمجرة **(عسق)** الغاضبة:

- بدون تواجدي أنا والراعي سيد الدمار معك ضده..

زادت دهشة **(عسق)** وهو يردد:

- هل تقصدين السيد (أمورو)؟!

رفعت يديها الاثنتين للسماء لتواجه أظفارها السوداء السماء وهي تقول:

- لقد رَقَّ حال الراعي السيد (أمورو) لوضعك المزري وهو على استعداد لدعمك في حربك ضد (نينورتا) و(إيرا).. وأي تحرك للسيد (أمورو) يرافقه تحرك لي..

عمّ (عسق) الآن ذهول كامل، منذ لحظات كان يظن أن موافقة حليف له في حربه ضد (نينورتا) و(إيرا) لن تحدث، والآن قد جاء له سيد الدمار شخصيا عبر هذه المبعوثة ليخبره بانضمامه له في حربه، ولكن من هذه المرأة الغامضة؟ وانطلق السؤال ليسري من عقله للسانه قائلا:

- ومن أنتِ أيتها السيدة المجهولة؟

قابلته ضحكات طويلة متواصلة تردد صداها بالصحراء حوله، طار جسدها للأعلى مع ضحكاتها لتنتطير أطراف ثوبها القماشي الأبيض المغطي لجسدها كالكنف، اهتزت الأرض تحت قدميها لتبرز كماشات سوداء عملاقة أعقبتها رأس صغيرة ثم جسد كامل انبثق من تحت التراب لعقربين هائلتي الحجم شديدي سواد اللون، انتصب ذيل كل منهما للأعلى بتحفز، مع صيحة المرأة القوي:

- أنا سيدة الصحاري وملكة العقارب.. السيدة (إيشارا) والتي ترافق السيد (أمورو) في أي حرب يخوضها وتجعل انتصاره أمرا حتميا.. والتي ستكون في جانبك لحسن حظك..

(وسوء ظن (نينورتا) و(إيرا)..) هكذا أسرها (عسق) في نفسه وقد أسعده -بقدر ما فاجأه- قوة هذين الحليفيين القويين، لذا فقد رفع يمينه وحنى رأسه قليلا لها وهو يقول:

- يشرفني انضمامكما لي أيها السيدان القويان.. ولكن هل لي أن أعرف سبب رغبتكما في تحطيم (نينورتا) و(إيرا)؟

كان العقربان يحومان حول جسد (عسق) وكماشاتهما لا تتوقف عن الحركة تتحسسان جسد (عسق) اللامبالي، بينما بدأ جسد (إيشارا) ينخفض ليعود للأرض وهي تجيبه:

- ليس لك أن تسأل الآن أيها المارد.. كل ما عليك هو أن تسمع وتنفذ كل ما يقال لك مني حتى تتمكن من الانتصار في هذه الحرب والاستمتاع بقيادة جيوش (سومر) السماوية النظامية والتي تستحقها عن جدارة كما نرى أنا والسيد (أمورو)..

اعتدل (عسق) شاعرا بالرضا وصمت ولم يعلق عليها في موافقة ضمنية على ما طلبته منه.. فقط قال لها بعد وهلة:

- وما المطلوب مني الآن؟

قالت له:

- فقط احرص على الظهور حول أسوار (ماراد) عدة فترات على مدار اليوم وحاول استفزازهم قدر ما استطعت دون الدخول في حرب فعلية.. حاول استدراج (إيرا) ليخرج بجيوشه لك.. حينها ستكون مفاجأة مذهلة له ولسيده (نينورتا)..

ثم عاد الدخان الفضي يحيط بجسد (إيشارا) ليختفي بعدها تدريجيا كل من جسدها وجسد العقربين المصاحبين لها، تاركةً المارد (عسق) في حالة نشوة من صدمة المفاجأة السعيدة وقد بدأ يشعر بمذاق النصر بين يديه بالفعل..

9-أور

المادة الرابعة: من حق الزوج قتل زوجته الزانية وإطلاق سراح الرجل الذي ارتكب معها الزنا..

المادة الثانية عشرة: إذا تقدم الخاطب بهدايا لخطيبته ووالدها وعدل والدها عن الخطبة وزوجها لخش آخر فللخاطب الأول الحق في تعويض يقدر بضعف ما دفعه من هدايا..

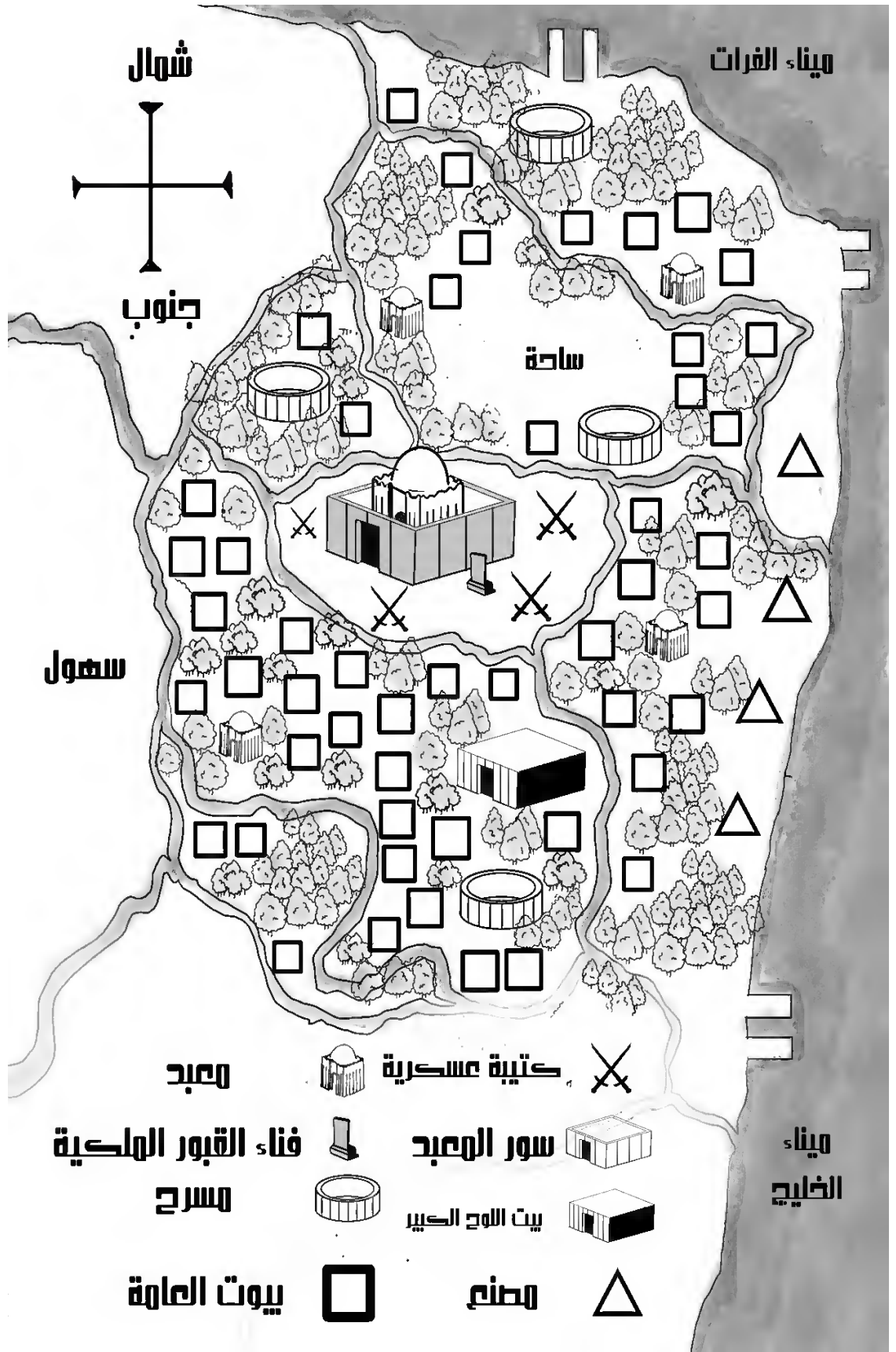
المادتان الخامسة والسادسة والعشرين: عقوبة شاهد الزور تغريمه خمسة عشر شاقل من الفضة.. وإذا استدعي شخص لقضية وأدلى بشهادته ثم رفض أن يؤدي اليمين على شهادته يلتزم بدفع غرامة تساوي قيمة الحق المتنازع عليه في القضية نفسها..

(بعض المواد من قانون (أورنمو) والذي عُثِر عليه بمدينةنتي (أور) و(نيبور).. يتألف من 31 مادة تأكلت أغلب ألواحها ومحفوظة الآن بجامعة متحف الآثار والأنثروبولوجيا ب(فيلاديلفيا) بالولايات المتحدة)

مدينة (أور) البشرية.. مدينة النور.. أقدم عاصمة بعالم البشر..

كانت مدينة صغيرة الحجم بسيطة التصميم البيضاوي، تتألف من ميناء عظيم يطلّ على كلا المائنين، ماء الخليج الملح الأجاج وماء (الفرات) العذب.. تواجد معبد ضخم بمنتصف المدينة تحوطه الأسوار السميكة من الجهات الأربعة، يواجه مدخل المعبد بوابة مرتفعة وسط السور المقابل تفضي لخارج الأسوار المحيطة بالمعبد.. ويلصق المعبد فناء القبور الملكية حيث كان كل ملك يتم دفنه بقبو سفلي عظيم ثم يتم دفن زوجاته وجواريه معه بكامل زينتهم وجليهم بعد أن يُسقوا السم ليرافقوا الملك، بالإضافة لكل ما كان يحبه الملك من أشياء وحتى حيوانات أليفة..

خارج الأسوار تناثرت منازل كثيرة مستطيلة الشكل من الطوب المحروق متلاصقة بدون أي تصميم هندسي مميز تتخللها معابد أصغر حجما وعدد من المسارح ومحكمة عظيمة تسمى بيت اللوح الكبير، تكثر الأشجار الخضراء الوارفة وأشجار النخيل حول -وأحيانا بين- هذا التجمّع، ثم توجد ساحة واسعة متاخمة للمنازل خضراء أشبه بتجمع للعمامة يفترش أغلبهم الأرض من العائلات يتسامرون.. الأطفال يلعبون.. تجمعات بسيطة من الشباب يتسلون بلعب المصارعة.. البعض الآخر يلعب لعبة على الرمال أشبه بلعبة الطاولة الحديثة.. تفرق عدد من الشباب يعزفون على آلات موسيقية متنوعة.. وكانت أكواب البيرة تمتلئ وتفرغ ويعاد ملؤها على مدار اليوم للجميع.. الكل يشرب ويلهو ويستجم.. ومنهم من انطلق شمالاً أو غرباً نحو ضفة نهر (الفرات) يستمتع بالسباحة واللعب بمياهه الضحلة مبددين جزء من حر الشمس القوية.. متنقلين بالزوارق المائية من نقطة لأخرى بالمدينة.. لم تكن لمدينة (أور) أسوار.. فقط تواجدت عدة كتائب عسكرية مدججة بالسلاح والجنود مرابطة كجيش صغير بجانب السور المحيط بالمعبد المركزي والذي كان المقر الرئيسي لكاهن مدينة (أور) وحاكمها الأوحده.. بينما كان عدد من الماشية يسير متلكنة في أرض السهل الواسعة المحيطة بالمدينة يأكل من حشائشها.. ثم تواجدت بيوت طينية صغيرة متراسة على شكل مستطيل شرق المدينة كانت تعتبر كمصانع صغيرة حيث يتم قطع الأخشاب وصهر المعادن للاستخدام المنزلي وتجسيد الفخار وتجفيف الرقم الطينية..



كان المعبد أضخم مبنى بالمدينة.. تواجدت عند مدخله تماثيل لثيران من نحاس مصبوب تبدو وكأنها حية من فرط إتقان نحتها، توسطها تماثيل من البرونز لغزالين رشيقتين، يعلوهما تماثل لرأس نسر هائل له جسد أسد فاردا ذراعيه فوق الغزالين وكأنه حامي للمعبد.. زينت حوائط المعبد شرائط عريضة من زخارف تمثل رعاةً يحلبون أبقارهم، عمال يصفون الحليب ويصنعون الزبد.. وكان بريق الأحجار الثمينة التي تزين الحوائط يخطف الأبصار..

بداخل المعبد وبعد العبور من مدخله الذي يحرسه رأس النسر ثم اجتياز ممر واسع طويل تضيئه مشاعل من الجانبين، تجد تماثلاً ضخماً لشخص يقف حاملاً رقياً مملوءاً بالنقوش يضمه صدره وكأنه يحميه من تهديد ما، ثم ينعطف الممر يمينا ويسارا فنتجّه يمينا لنجد الممر يفضي لبهو شديد الاتساع يجلس بمنصفه الكاهن الأعلى القرفصاء على الأرض الرملية ينظر لأعلى فيرى للسماء مباشرةً لعدم وجود سقف للمعبد.. وقد غرز نسر ضخم مخالبه بقطعة القماش التي كان يرتديها الكائن كلباس لنصفه العلوي- عند منطقة الكتف ليقف معتدل الظهر يحرق للأمام بعيون مخيفة..

أغلق الكاهن عينيه وسكن جسده تماماً.. كانت تراوده الآن رؤية إلهية.. ما يشبه الحلم ولكن يأتيه وهو مستيقظ بكامل التفاصيل.. إنها رسالة من الآلهة الذين اختصوه هو تحديداً عن كل أهل (أور) ليكون هو مبعوثهم وناقل رسائلهم وأوامرهم للبشر، وكذلك ليتوسط للبشر عند الآلهة في طلباتهم وأمانهم بنقل دعائهم للحوح للسماء.. رأى بعقله نسراً عظيماً أبيض الحجم يطير مبتعداً عن (أور) ويولي وجهه شطر المغرب ثم يخلق عالياً وبعيداً وقد فرد جناحين يبلغ طول الواحد منها ارتفاع قامة جسد شخص بشري بالغ.. عبّر نهر (الفرات) ثم اخترق فيافي الصحراء وكتبانها وجبالها بسرعة خارقة حتى وصل لجماعة من البدو يسرون في قافلة ضخمة الحجم، فخفض من سرعة طيرانه ليتوقف فوقهم مباشرةً.. ثم هدر الصوت الرخيم في عقله قائلاً:

- بدو رحالة يأتون من كل فج عميق.. قوافل لا حصر لها تأتي من المغرب بأقوام عماليق ليسوا كأهل (سومر وأكاد) وستأتي نهايتهم على أيديهم.. سيصبحون هم السادة ولن يُذكر اسم السابقين إلا من خلال قراءة نقوشهم الخالدة..

تعجب الكاهن مما يسمع من إلهه النسر الأبيض وقال له متسائلاً:

- البدو جاء منهم مشايخ (العموريين) وأقاموا سلالة عسكرية في (كيش) بالفعل..

جاءه الصوت يرد عليه:

- هؤلاء (العموريون) الجدد ليسوا كمن سواهم.. سيتسللون لما بين الرافدين كاللص البارع ثم يقيمون في كل مكان كالجراد المنتشر.. ثم يصبحوا مالكي البلاد بالقوة واللين والحضارة معا.. والسحر!

ردد الكاهن بغرابة:

- السحر؟ ألسنا ملوك الأرض في السحر؟!

جاءه الرد بصوت بدأ يخفت:

- سيكون بوادي (شنعار) سحر عظيم لم يأت أحد مثله بسحر من قبل على وجه الخليقة.. إنه سحر قادم من السماء.. إنه سحر الأسياد! ولكن قبل كل هذا ستختفي (أور) تحت بطش همج ما خلف الجبال من الشرق.. فكما سيأتي الزوال من الغرب سيأتي الانمحاق من الشرق!

انقطعت الرؤيا فجأة فارتد جسد الكاهن للخلف بعنف، ثم استعاد توازنه واستقام ظهره وهو يلهث قليلا وصدى كلام النسر الأبيض ما زال يتردد بمخيلته.. هل ستزول (أور) من الوجود؟ (أور) العظيمة سيدة المدن وعاصمة امبراطورية ما بين الرافدين وأقدم بقاع التاريخ المضيئة.. هل سيأتيها الغزاة من الشرق والغرب مجتمعين عليها؟ ثم أي سحر مخيف هذا الذي سيأتي من السماء ويتركز بوادي (شنعار) -الجزء الأعلى من ما بين الرافدين- ويستخدمه البدو للسيطرة على البلاد.. تقول الرؤيا بوضوح بأن أيام (سومر وأكاد) أصبحت معدودة، فكيف هذا والبلاد ما زالت بقوتها رغم احتلال (الكوتيين) ل(أكاد)، فما زال لل(سومريين) اللغة والشعائر والحضارة التي لم ينجح (الكوتيون) الهمج في تغييرها بل بالعكس اتحدوا فيها وصاروا يطلقون على أنفسهم أسماء (سومرية)، حتى مدينة (أور) الجنوبية تتمتع بحكم مستقل عن (الكوتيين) تماما والذين تكاد تقتصر سيطرتهم ببلاد ما بين الرافدين على (أكاد) وما يتاخمها من مدن بالشمال.. وكان كل ما نالوه من احتلالهم هو نهب ثرواتها فقط.. ولكنه لم يجادل الرؤيا فهي دائما تكون صادقة وكل ما عليه هو الاستعداد لها وليس مجادلة عقله في كيفية تحققها..

تمتم ببعض كلمات للنسر الرابض على كتفه، فحلق على الفور مغادرا بهو الكاهن عبر السماء خافقا بجناحيه بقوة، وخلال لحظات كان يعود ليحط على كتف سيده، ثم ظهر شخص طويل القوام متين البنيان عبر بوابة البهو ينحني للكاهن قائلا باحترام:

- أمر سيدي..

قال له الكاهن:

- لقد جاءت الرؤيا بما لا يمكن تجاهله من أخطار تحيط بالبلاد.. (أور) ستحتاج لتدعيم أسوارها حامية لتحمي بيوت العامة والمصانع والمزارع بكفاءة.. وسيتم نقل الكتائب العسكرية الحامية لترتكز فوق الأسوار.. يجب أن يتم كل هذا في أسرع وقت ممكن.. الغزو قادم لا محالة ولكن ليكون بأقل خسائر ممكنة..

انحنى الرجل ثانية مجيباً:

- أمر سيدي الكاهن.. سيتم بدء التخطيط للتدعيم من الآن وخلال أيام سيبدأ العمل في بنائها..

قال له الكاهن بصرامة:

- اجعل الأيام ساعات.. الوقت لا يحتمل..

تراجع الرجل للخلف منحنيًا للمرة الأخيرة قبل أن يغادر البهو على عجلة تاركًا الكاهن وقد احترق مخه من التفكير..

كانت عائلة (سرجون الأكادي) قد حكمت فترة طويلة من الزمن، ورغم نجاحهم في الحروب خارج البلاد لم يستطيعوا منع الدسائس والانقسامات داخل البلاط الحاكم، وكانت أيامهم تعج بالثورات والاضطرابات والمطالبين بالحكم، وحاولت الأقوام الجبلية من الشرق والبدوية من الغرب غزو البلاد بدون نجاح يُذكر حتى هذه اللحظة، وحدها (أور) ظلت صامدة لم ينلها غازٍ من الخارج أو ثورة من الداخل، يحكمها الكاهن بيد من حديد من جهة ويد مبشرة برضا الآلهة وعطاياهم للبشر من خير- من الجهة الأخرى، كانت (أور) مدينة لم تتأثر بما ساد البلاد من قلاقل وأصبحت لها الزعامة على غيرها، واختلط العرق السومري الأقدم بالمنطقة مع العرق السامي (الأكادي) الذي أتى مع دخول (سرجون) للبلاد وإقامته لإمبراطوريته بحيث صارت المنطقة رسمياً بعد اندماج العرقين وعدم القدرة على تمييز أحدهما من الثاني تسمى بلاد (سومر وأكاد).. ثم سقط آخر أحفاد (سرجون) على يد (الكوتيين) الذين لم ينجح بطشهم في أن يطال مدينة (أور) وأغلب مدن الجنوب..

أرسل رسالة أخرى للنسر فسارع في الطيران مغادراً لوهلة قبل أن يعود سابقاً قائد الكتائب العسكرية، الذي أتى على عجلة مليبياً دعوة الكاهن متقلداً لباسه الحربي..

انحنى القائد العسكري فقال له الكاهن على الفور بلهجة عملية:

- حاول تجنيد أكبر عدد ممكن من العامة ليزيد عدد جنودنا.. زد من قوة تدريباتهم وحاول تطوير أساليبك العسكرية.. أريد منك خلال أيام أن تعدّ لي جيشاً لا يمكن قهره ويمكن الاعتماد عليه..

رد عليه القائد على الفور:

- جيشنا على أهبة الاستعداد ومنذ الآن يمكن الاعتماد عليه، ولكن إن كانت رغبة الآلهة ورغبة سيدي الكاهن الأعلى سأقوم بتحضير المزيد من الجنود ورفع مستوى الجيش لأقوى وأعلى المستويات الممكنة.. ولكن هل لي أن أسأل سيدي هل أخبرته الآلهة بغزو محتمل من (الجوتيين) لمدينة (أور)؟

قال الكاهن بصرامة:

- ليس (الجوتيون) فقط من سيحاولن غزونا، وسنكون نحن الغازون هذه المرة.. ارسل الكتائب لكل الاتجاهات فلن نقف مكتوفي الأيدي.. اتجه شمالا بطول نهر (دجلة) واستنزف (الجوتيين) ب(أكاد) بحملات متعددة قوية خاطفة تجعلهم لا ينسون اسم جيش مدينة (أور) ولا بأس جنودها.. لتصل في حملاتك حتى (أشور) الوليدة بأقصى الشمال.. اتجه شرقا لبلاد (عيلام) وجنودهم الهمجية.. اتجه غربا بامتداد (الفرات) حتى تصل لبدو الغرب العماليق (العموريين).. لا تجعل أي من هذه الأقوام يظن نفسه بقادر على زعزعة استقرار بلادنا وقم بالفتوحات واترك جالية عسكرية لنا بكل منطقة.. ومن ثم استغل هذه الفتوحات في تثبيت طرق تجارة جديدة وأكثر بعدا واتساعا لنا.. لدينا فائض من الزراعة فلنستخدم القمح والشعير لاستيراد ما يحتاجه أهل (أور) من معادن وحبوب وفواكه.. ولدينا أيضا العديد من أقراص الفضة فلنشتري بها ما يمكن تخزينه من غلال ومواد غذائية..

هز القائد العسكري رأسه موافقا ومستحسنا، فأشار له الكاهن قائلاً بحسم:

- فلتبدأ من الآن..

- أمر سيدي..

قالها القائد العسكري قبل أن يغادر بهو الكاهن مسرعاً، فقام الكاهن بعدها ليتبعه خارجاً من البهو ثم اتجه نحو مفترق الطريقين المين واليسار الموجود عند تمثال الرجل الذي يحمل رقيماً لصدره، واتجه للييسار عكس اتجاه البهو الذي كان يجلس به، طال الطريق المضاء بالمشاعل حتى انتهى بساحة واسعة بنفس اتساع البهو الخاص به ولكنه كان مسقوفاً.. ألقى نظرة سريعة على الأرفف التي تراصت على الجدران الأربعة وقد امتلأ كل رف بعدد مهول من الرقم الطينية المملوءة بالنقوش، وقد تم تنظيمها بحيث يشمل كل رف رُقماً تحتوي على مواضع في نفس المجال.. كان هناك معلم جالس بمنتصف المكتبة ينقش بطرف قلمه المصنوع من نبات الغاب فيغوص بالطين صانعة مزيداً من النقوش، فلما رأى الكاهن توقف عن عمله وسارع بالوقوف فأشار له الكاهن بيده مانعاً إياه من الوقوف قائلاً:

- أرجوك لا تتوقف.. فما تكتبه هو ما سيبقى من حضارتنا بعد أن نزول ونفنى..

نظر له المعلم بتأثر وقد هزته كلمات الكاهن الأعلى وأشعرته بجسامة ما يفعله ومدى أهمية تلك النقوش البسيطة التي لا تأخذ منه سوى سويقات معدودة، فطال نظره للكاهن والذي كان ينتقل على قدميه من رف لرف يطالع عناوين الرُّقم وعناوين الأرفف المجدولة، رف للطب وآخر للفلك وثالث للسحر ورابع للرياضيات وكذلك للموسيقى والهندسة وقواعد اللغة وغيرها من العلوم العديدة.. ثم جاءه صوت الكاهن يسأله بدون أن ينظر إليه:

- ماذا تنقش الآن أيها المعلم الطيب؟

أخذ المعلم نفساً عميقاً أخرج به ببطء وهو يجيب باختصار:

- قصة الراعي (إتانا)..

صمت الكاهن ولم يعقب.. طافت تفاصيل تلك القصة الفلسفية الشهيرة بذاكرته.. ذلك الراعي الذي أصاب العقم أغنامه ولم تعد تلد له فصعد على ظهر نسر واتخذ سبيله للسماء بحثاً عن نبتة أصل الحياة.. وبينما كان قاب قوسين أو أدنى من الوصول لهذه النبتة سقط من على متن النسر ليهوي من حالق على الأرض مباشرةً ويلقى حتفه وسط أغنامه العقيمة.. قصة عميقة وتحمل عدة معاني.. تقبل القدر والسعي وراء هدفك في نفس اللحظة.. ربما سيستطيع البشر الطيران للسماء يوماً ما فليذكروا هذه القصة القديمة.. فكرة الخلود والسعي خلفه.. سيرها كل من يقرأها بطريقة خاصة به ويفسرها ويجد فيها لذته الشخصية ومعناها الذي لن يراه سواه..

هز الكاهن رأسه وهو يشير للمعلم ليكمل ما نقشه، فقال له المعلم بحماس وهو يتجه نحو فرن بركن الحجرة:

- لقد أنهيت كتابة هذا الرقيم بالفعل يا سيدي الكاهن وقمت بتجفيفه بوضعه في الشمس لعدة ساعات، الآن سأضعها بالفرن لتُحرق وتصبح لوحة فخارية تصمد مهما طال الزمن.. حتى بعد موتنا وموت أحفادنا..

الموت؟ ما الموت إلا الانتقال لمكان مقبض تحت الثرى ملئ بالظلام والتراب والكائنات الدودية الدقيقة، مكان يذهب إليه الناس جميعاً لا فرق بين الصالح والطالح.. هكذا كانت عقيدة كل أهل ما بين الرافدين وليس هذا الكاهن فقط..

نظر الكاهن نحو المعلم وسأله بعينين منهكتين:

- هل تعلم أننا نعيش حياتنا على أنقاض آبائنا وحيواتهم وماشيتهم!؟

رد عليه المعلم وهو لم يفهم ما يرمي إليه الكاهن بتساؤله هذا:

- بالتأكيد يا سيدي فالسومري عندما يموت يتم دفنه تحت بيته ويتم دفن حيواناته معه حتى لو كانت حية فيتم ذبحها لترحل معه في حياته الآخرة تحت الأرض..
- هز الكاهن رأسه نفيا، وصمت لحظة يستجمع أفكاره ثم قال للمعلم:
- أنت تعلم أن بيوتنا أغلبها طينية، وأن الأمطار الشديدة والفيضانات العنيفة تؤثر كثيرا على هذه المنازل لو طالتها..
- هذا صحيح وربما دمرت منها أجزاء تدميرا لا يستقيم معه أن تستمر فيها الحياة بهذا البيت..
- وماذا نفعل حينها؟
- نقوم بتسوية الأنقاض ونبني مساكن جديدة فوق سطحها..
- وهكذا يفعل أجدادنا وأجداد أجدادنا خلال آلاف السنين أيها المعلم.. المدن التي نسكنها الآن – والتي أصبح مستواها أعلى من السابق بسبب إعادة البناء على الأنقاض- ما هي إلا مدينة فوق أنقاض من سبقونا.. نحن نعيش فعليا على أنقاضهم..
- ابتسم المعلم وقد فهم الكاهن، وقال باحترام:
- حكمة سيدي الكاهن الأعلى لا حدود لها..
- بادل الكاهن الأعلى ابتسامة قصيرة ثم حياه بهزة صامته من رأسه ليتجه للخارج، فسارع المعلم بأن انحنى ليلتقط رقيما طينيا طريا من الأرض وأعطاه للكاهن قائلا:
- سيدي.. أستاذك بأن تشرف هذا الرقيم بختمك قبل ان أجففه بشمس النهار..
- توقف الكاهن لحظة يخرج ختمه الأسطواني من بين ملابسه، وقام بالضغط بقوة بحجره الاسطواني الذي غاص في الطين اللين صانعا رسمة عميقة لثور أسفل نقوش من حروف كانت تكتب اسمه.. الكاهن الأعلى وحاكم (أور) في نفس الوقت.. (أورنمو)..
- تناولها منه المعلم وهو يتطلع للختم برهبة، فقال له الكاهن والحاكم (أورنمو):
- هل تعلم أيها المعلم الطيب.. سأتي إليك غدا في أول اليوم لتكتب ما سأمليه عليك من شرائع تكون قانونا ل(أور) ولكل بلاد ما بين الرافدين كما أمل.. لا بد من المساواة والعدل وهذا لن يتحقق إلا بقواعد مكتوبة وتُطبَّق على الكل في الدولة..
- ردد المعلم بانبهار:
- هذا خير ما قد يفعله حاكم يا سيدي..

ثم أشار له وهو يغادره:

- الآن سأذهب لمقابلة مهندس المدينة الأعظم.. لقد راودتني رؤيا بالأمس وأعتقد أنه بمقتضاها فإن الإله (سين) يطلب من (أور) أن تحتوي على معبد خاص به.. سأطلب من المهندس التعجيل بتصميمه.. سيصير ل(أور) إلهها الخاص قريبا وسيتم إطلاق لقبه على نسلي من سلالة (أور) الحاكمة..

جاءه صوت متسائل من خلفه:

- هل يعني هذا أنني سأقوم بتغيير اسمي يا أبي؟

التفت (أورنمو) لابنه (شولكي) الذي اشتهر بحبه للأدب والموسيقى، فاتجه نحوه وقام بالتربيت على كتفه قائلا:

- أنت الملك من بعدي يا بني.. اسمك لك وحدك..

قال له (شولكي) بتصميم:

- لا تقلق يا أبي.. ابنك البكر مؤلف كلمات وملحن أغاني سيذكره التاريخ للأبد.. أجيد العزف على سبعة آلات موسيقية مختلفة ولا يوجد من يجيد العزف مثلي على القيثارة ذات الثلاثين وترًا.. أقسم لك الآن وفي هذا اليوم بالذات بإله الشمس -وسيكون أشقائي الصغار شهودا على قَسَمِي هذا- أن اسمي سيُحَدِّد ببلاد أجنبية لا تُعَرَف (سومر) فيها.. بلاد طرقها معبّدة وليس لديهم إمكانية الحصول على كلمات مكتوبة.. أقسم لك بأن الناس سيتلون كلماتي وكأنها كتابات سماوية وسينحنون احتراما وإجلالا لكلماتي..

ابتسم (أورنمو) شاعرا بالفخر من ثقة ابنه بنفسه وقال له مداعبا:

- حسنا أيها الملك الموسيقار..

وقال مغمما لنفسه:

- وأتمنى أن يتذكرنا التاريخ بسيرة حسنة.. أتمنى أن يتذكرنا وكفى!

10-حمورابي

في ذلك الوقت نادتنى الآلهة أنا (حمورابي) الخادم لسرورها من أعمالي..
راضية عن (حمورابي) الذي كان عوناً لشعبه وقت الشدائد..
سامع الأقوياء من ظلم الضعفاء.. وسأشتر النور بالعالم..

(كلمات (حمورابي) عن نفسه في مقدمة قوانينه الشهيرة)



(بابل) البشرية..

مدينة هي الجنة في الأرض، أربعة أسوار عالية أحاطت بالمدينة التي احتل نهر (الفرات) جزءا كبيرا منها وقسمها لجزء كبير شرقه وجزء أصغر غربه، وخلف الأسوار الشاهقة بمسافة قصيرة تواجدت مجموعة ثانية من الأسوار أقل ارتفاعا كحماية مضاعفة، وبين حزامي السورين تواجدت أراضي خضراء بديعة تثمر فواكه وخضروات، ومماشي ومنتزهات للعامّة، انثنى السوران عند النهر ليعلو حاجز ضخّم شديد التعبئة العسكرية، ثم تواجدت بوابة ذهبية تحمي ممر النهر شمالا وجنوبا، أربعة أبواب ضخمة أحاطت بالمدينة أضخمها بوابة (إينانا) الشمالية الزرقاء المميزة، وكانت كل بوابة بالسور الأساسي تتبعها بوابة أصغر بالسور الثاني الداخلي ثم يُلقب باسم البوابة ليتوغل وسط البيوت العديدة التي كانت ترتقي لعدة طوابق.. وقد يمتد طريق انتشرت النخيل الباسقة بين البيوت، واخترقت القنوات المائية ما بين البيوت، وكانت هناك تلك التربة الملكية بوسط المدينة والتي أنشأها الملك (حمورابي) كمصدر لتروية المدينة كلها من خلال ما أبدعه مهندسيه من مضخات متقدمة كانت تقوم برفع الماء ليصل لكل البيوت عبر القنوات..

ارتقى قصر الملك بالمنطقة الجنوبية، تحفة معمارية ضخمة شاهقة الارتفاع، تميز بالنقوش والألوان وكذلك بالاستحكامات العسكرية شديدة الضخامة وكأنها قلعة قوية بقلب المدينة، تبعه جنوبا المقبرة الملكية الخاصة بأجداد (حمورابي) (العموريين)، ثم تبعهما بأقصى الجنوب هيكل الإله (مردوخ) والذي انتصبت زقورة هائلة الارتفاع من منتصفه نافس ارتفاعها طول أعمدة قصر الملك، وتجاوز كلاهما ارتفاع الأسوار الشاهقة بحيث يرى القادم ل(بابل) من على مسافة بعيدة قمة القصر الملكي وقمة الزقورة بجانبها كأعلى نقطتين بالمدينة ثم تختفي كل تفاصيل المدينة المتبقية خلف الأسوار..

على كرسيه الذهبي الضخم الذي يعلو كل شيء آخر ارتفاعا أربع درجات حجرية مزخرفة، كان يجلس الملك (حمورابي) ضامًا قبضته المضمومة لذقنه التي تزينت بلحية طويلة سوداء الشعر مجدولة بالكامل لينتهي طرفها السفلي مستقرا على صدره وقد زينت حلية ذهبية دائرية نهايتها وجمّعت آخر شعيرات لتنتهي بشكل مدبب للأسفل، زيّنت أصابع يديه عدد من الخواتم الملونة الجذابة والتي امتاز أوسطها بختم اسطواني كبير عليه نقش لثور خلفه قرص الشمس الكبير، وجهه طويل حاد الملامح واسع العينين المكحولتين اللتان كانتا ترسلان نظرة قوية لوجه الرسول الواقف بين يديه مرتعدا من مجرد وقوفه بقاعة الحكم بقصر (حمورابي) سيد امبراطورية (بابل) مترامية الأطراف، برقت الأحجار الكريمة التي كانت تزين التاج الذهبي

المكمل لهامة الملك والذي يقع فوق قطعة من الكتان تلف رأسه في عدة طبقات دائرية وتخفي جلّ شعر رأسه، وبرز حجم جسده الضخم رغم الثوب الصوفي الفضفاض أرجواني اللون الذي كان يرتديه، مثله ككل (العموريين) البدو الذين تميزوا بضخامة الجسم، عماليق الغرب آكلو اللحم النبيّ الذين لا يعرفون الحبوب ولا البيوت ولا يُدفنون بعد الموت- كما يصفون أنفسهم بأنفسهم، كان (حمورابي) ينظر للرسول المائل أمامه وأذناه وعقله ينصتان باهتمام لكاتم سره الواقف بجانب كرسيه والذي كان يكسر غلاف الرسالة –اللوحه الطينية الجافة- التي جاء بها الرسول، ثم يقرأ بصوت جهوري:

- لقد فاض نهر (الفرات) وسبّب بعض الخسائر وتوقفت الملاحة بين مدينتي (أور) و(لارسا)، ووقف صف طويل من السفن لا يستطيع السفر..

أنهى كاتم السرّ الرسالة المختصرة، ظل (حمورابي) صامتا لوهلة ينفكّر، ثم ألقى نظرة خاطفة على وزيره الواقف بالجانب الآخر من الكرسي قبل أن يقول بلهجة أمرّة:

- (حمورابي) الراعي العادل وملك (بابل) العظيمة يأمر حاكم (لارسا) بتطهير المجرى في الحال ولتواصل السفن سيرها في أقرب وقت ممكن..

سارع كاتم السر بالتقاط قلمه من الكيس الجلدي المعلق بنطاقه لينقش ما قاله (حمورابي) في رقيم طيني جديد بسرعة احترافية كشأن كل من يشغل هذا المنصب ويتمتع بكونه كاتب لا يشق له غبار إلى جانب ولاؤه غير القابل للشك فيه بالطبع، ثم قام برشّ حفنة من التراب الجاف مانعا الغلاف الطيني الذي يلف به الرقيم من الالتصاق بالكتابة ومسحها، ثم أعطى الرقيم لعبد كان يتربع الأرض بجانبه هامسا له بأن يبعث به للفرن..

انصرف الرسول مع إشارة الوزير له بالانصراف فانحنى بشدة قبل أن يستدير ويغادر القاعة بسرعة وكأن شياطين العالم كلها تطارده، ثم أشار (حمورابي) بطرف سبابته ليعبر الباب شخص جديد يبدو عموريا من ملامح جسده، انحنى أمام (حمورابي) فأشار له الملك ليرفع رأسه، فنظر الرجل نحو الوزير خوفا من النظر لوجه (حمورابي) وقال بخفوت:

- رئيس خبازي معبد الإله (مردوخ) ولديّ مظلمة عند سيدي امبراطور (بابل) الراعي العادل..

قال له (حمورابي) ببطء:

- تحدث..

صمت الرجل قليلا يستجمع شتات نفسه قبل أن يقول ناظرا للأرضية المزينة بالفسيفساء والخزف الملون:

- سيدي.. لدي تكليف ملكي بأن أسافر لمدينة (أور) بشأن الاحتفال بقص أصواف الأغنام الربيعي السنوي الذي يشمل الممكلة كلها.. ولكن لدي قضية هامة تتعلق بأحد أولادي سيتم النظر فيها خلال نفس الفترة الزمنية لذا أناشد سيدي الراعي العادل بأن يتكرم ويوافق على تأجيل قضيتي لحين العودة من (أور) والانتهاء من تكليفي بسرور..

أعطاه (حمورابي) نظرة قوية قبل أن ينظر للأرض قليلا وكأنه يفكر في الأمر، ثم نظر للوزير قائلاً:

- أيها الوزير الطيب.. انظر لقضيتيه وقم بتأجيلها لما بعد الانتهاء من مراسم عيد قص أصواف الأغنام..

هز الوزير رأسه موافقا قائلاً باحترام:

- أمر سيدي الراعي العادل..

أشار (حمورابي) للرجل بالانصراف فغادر منحني الجذع ولسانه لا يكف عن شكر الملك والدعاء له، ثم نظر (حمورابي) لكاتم سره قائلاً:

- اكتب رسالة الآن للمسؤول الملكي عن جمع الضرائب وألفت نظره لتأخر جلب الضرائب وأن رجاله لا يؤدوا واجبهم جيدا كما يجب.. لا بد من الانتهاء من جمع كل الضرائب قبل حلول عيد قص الأصواف بلا تأخير..

سارع كاتم السر بنقش الرسالة، في حين أشار (حمورابي) للقادم بالدخول، فدخل رجل سومري الهيئة بعينين محمرتين من أثر كثرة البكاء بشكل واضح، انحنى للملك فقال له:

- ارفع رأسك وتحدث..

ظل السومري مطأطئ الرأس وقال بصوت مبجوح:

- سيدي ملك (بابل) والراعي العادل.. لقد انهار منزلي أثناء وجود ابني بداخله وتسبب ذلك في مقتله..

قال له الملك (حمورابي) على الفور:

- عسى أن يبدلك الإله (مردوخ) خيرا منه..

ثم التفت للوزير قائلاً:

- القوانين واضحة أيها الوزير الطيب.. مبدأ معاقبة المتسبب بالضرر بنفس الضرر الذي تسبب فيه.. العين بالعين والسن بالسن.. قوانين (حمورابي) العادلة لم تترك شيئاً مهما كان احتمال

حدوثة نادرا لم تذكره، ويتم تنفيذها بكل أرجاء الإمبراطورية على الجميع.. ليتم قتل ابن الشخص الذي بنى البيت..

انحنى الأب المكلوم مغادرا القاعة مع إشارة (حمورابي)، الذي كان يعلم علم اليقين بظلم هذا القانون في هذه الحالة، ولكن القانون قانون ولا بد من تنفيذه في كل الأحوال، هكذا تسير الأمور منذ أن قام بنفسه بسنّ مجموعة الشرائع التي قامت بتنظيم كثير من الأمور بالامبراطورية، والتي كانت خلاصة ما قام هو باختياره عندما رأى تعارض القوانين التي كانت تسبقه مع بعضها البعض مما يخلّ بالنظام العام، فقام بتوحيد القوانين وقواعد المعاملات التجارية والمعاملات الاجتماعية كلها منذ أيام (السومريين) الأوائل، مروراً ببعض محاولات من سبقه من الحكام كالكاهن (أور نمو)، قام بتبويب قوانين السابقين وتحسينها وتعديلها بحكمته، ثم تم نقش كل هذه القوانين على لوحة هائلة الحجم من الحجر باللغة السامية -لغة (الأكاديين) و(العموريين)- وتم وضعها بمعبد الإله (مردوخ)، يعلو سطور القوانين نقش للملك (حمورابي) نفسه يتلقى القوانين من إله الشمس..

صاح أحد حراس بوابة القاعة:

- لا مزيد من الرسل والمظالم لليوم..

تنهد (حمورابي) قائلاً للوزير:

- أيها الوزير الطيب.. أريد أن أطمئن على حالتنا التجارية..

رد عليه الوزير:

- سيدي الملك (حمورابي) الراعي العادل.. أرضنا تضحج بالحبوب والبلح.. لدينا فائض أيضاً من أصواف وجلود الغنم والماشية.. سنقوم بإرسال قوافل الحمير والبغال للجبال بالشرق للمقايضة والحصول على المعادن والأحجار.. وستتجه قوافل أخرى للساحل الشرقي للبحر المتوسط للمقايضة و جلب الأخشاب من الصنوبر والأرز.. لدينا فائض هائل من صيد الأسماك وكذلك الأصواف هذه الأيام..

سارع (حمورابي) بالقول:

- هذا جميل ولكن سارع بالتخلص من ما يحتويه القصر من أسماك.. الجو شديد الحرارة وسيتلف بسرعة بدون أن يستفيد به عدد كافٍ.. بعه لكبار التجار بسعر مقارب لسعر التكلفة حتى يهبوا لشرائه وتوزيعه للشعب أو حتى تصديره.. أما عن الأصواف فما يفيض بعد أن ينتهي

الحائكون والنساجون من صنع ما يكفي من ألبسة للقصر- يمكن توريده للتجار للبيع والتصدير ولكن بسعر التكلفة..

ثم سأل عاقدا حاجبيه:

- وماذا عن شبكات الري؟

كان لملوك **(بابل)** عامة والملك **(حمورابي)** خاصةً ولعًا شديدًا بالاهتمام بصيانة نظام السقاية وتوسيعها باستمرار والحرص ألا تصاب بأي خلل يشلّ نشاطها، لدرجة أنه كان يسمي سنين حكمه باسم القنوات التي يأمر بشقها، وأدى فتح القنوات لاستصلاح مزيد من الأراضي الزراعية وازدياد كثافة السكان حول ضفافها، كما أعاد **(حمورابي)** شق ما تضرر من قنوات فيما سبق سواء من حروب أو من كوارث طبيعية وأعاد من نزع وتشتت من سكانها الأصليين إليها ليعيد بناء حقوله..

كان وزيره يرد:

- القنوات الجديدة التي تم شقها بأمر ملكنا الراعي جعلت المياه الخصبة تتدفق نحو **(نيبور)** و**(إريدو)** و**(أور)** و**(لارسا)** و**(الوركاء)** و**(ايسن)**.. فتروي أراضي **(سومر وأكاد)** وتثريها ثم تكرر عائدة لموطنها..

لم يبتسم **(حمورابي)** رغم استحسانه لما سمع، وسأله من جديد:

- وماذا عن أركان المملكة الأربع؟

قال الوزير مجيبا على الفور:

- الأمور مستتبة أمنيا بالجهات الأربعة.. **(أشنونة)** شرقا، **(ماري)** غربا، **(لارسا)** جنوبا، و**(أشور)** شمالا.. وأخيرا **(بابل)** العظيمة بالوسط تفيض بحب الملك وتأييدهم المطلق لهم ولحكمه وحكمته الإلهية..

لوح له **(حمورابي)** بسبابته ووسطاه قائلا بتأن:

- اهتم ب**(لارسا)**، حكامها يتعجلون الثورة.. لقد كنت أنا حكيما بما يكفي ولم أغامر بمهاجمتهم إلا بعد أن أصبح ملكهم القوي **(ريم سين)** كهلا.. ولا تفلت قبضتك العسكرية على **(أشور)** فلا يزال أهلها يذكرون أمجاد ملكهم **(شمشي أدد)** الأول والذي اضطر والدي واضطرت أنا من بعده لمهادنته حتى توفى وحينها فقط استطعنا غزو **(أشور)**.. ولا تغفل عينيك عن **(ماري)** وموقعها الاستراتيجي الهام تجاريا وعسكريا على أواسط نهر **(الفرات)**، خسارتها ستقضم ظهر الإمبراطورية كلها..

قال الوزير:

- لهذا قمنا بوضع نصف عدد قلاعنا بالشمال..

تدخل كاتم السر قائلاً:

- لو يسمح لي الملك (حمورابي) بإبداء الرأي.. لم يكن غزو البلاد المجاورة صعباً ولم يكن عسكرياً أو بالقوة الغاشمة من الأساس، نحن (العموريون) نشكّل أغلب سكان ما بين الرافدين بعد هجراتنا المتتالية، وأغلب (العموريين) يرون فيك مثال مجسد لحكمة الإله في ملك بشري، ينهلون من الخيرات التي كنت سبباً فيها بما قمت بعمله من إصلاحات في البلاد، لقد انحاز (العموريون) للراعي العادل فاضطر (السومريون) و(الأكاديون) لاتباعهم خوفاً وطمعاً.. تحصيناتك قوية لا تغري أحداً بالانقلاب عليك، وكذلك إصلاحاتك الداخلية جذبت قلوب الناس حولك من شتى الأعراق وأصبح لك جيشاً يوليك ولاءً نابع من القلب لا تشوبه شائبة.. لقد قمت بإحلال لقب بلاد (بابل) محل لقب بلاد (سومر وأكاد) الغابر.. لم تدعي كذباً أنك إله كما فعل كثير من قبلك.. ولكنك أثبتت أنك ملك تحبه الآلهة!

زمّ (حمورابي) شفثيه شاعراً بثقل ما قاله كاتم سره من كلمات، كان كل ما قاله صحيحاً، بالإضافة لأسلوب (حمورابي) الفريد في معالجة ميزان القوى العسكرية بالمنطقة سياسياً بدهاء اشتهر به، فعندما تولى الحكم بتنازل والده (سين مبلط) عن العرش له، كان كل حاكم حوله يحاول فرض سيطرته على جيرانه، وحاول كل حاكم صنع مجموعة من الحكام الصغار حوله ليحاول أن يصبح امبراطوراً، تفرّد (حمورابي) عن كل حكام ما بين الرافدين بانتهاجه سياسة التحالفات المؤقتة، فقد وضع خطة دقيقة وسار على خطاها بمنتهى التأنى حتى أصبحت له امبراطورية مترامية الأطراف، كان يتحالف مع حاكم قريب له ضد حاكم بعيد، فلما ينتصر هذا الحلف على الحاكم البعيد كان يهجم على الحاكم القريب بمعاونة حاكم أقرب منه، وهكذا دواليك خطوة تلي الأخرى تعززها حتى تمكّن خلال ثلاثين عاماً من الانتهاء من دولة واحدة واسعة مركزية تقودها (بابل) ويؤيدها الإله (مردوخ)..

الفت (حمورابي) لوزيره قائلاً:

- أريد تشييد معبد جديد للإله (مردوخ) بمدينة (الارسا).. وكذلك صيانة دورية لمعبده ب(بابل).. وسنحتاج لتشبيد معبد يماثله حجماً وجمالاً معمارياً وزخرفياً للإلهة (إينانا) هنا بجانب قصري..

ثم أشار (حمورابي) للوزير بالانصراف عندما انتهى، وعندما تهيأ كاتم السر للانصراف مع الوزير قال له (حمورابي) بلهجة خاصة:

- احضر المنجم الآن..

انحنى كاتم السر قبل أن يلحق الوزير مغادرا القاعة الملكية بخطوات سريعة..

وما هي لحظات إلا وحارسا باب قاعة الحكم يبلغان (حمورابي) بقدم المنجم فأذن له (حمورابي) بالدخول.. دلف المنجم مكفهراً الوجه بقامته الطويلة ووجهه أسود البشرة وقد أرخى قلنسوته لتتسدل حتى أعلى ظهره فور دخوله قاعة الحكم بعد أن كان يسدلها على وجهه ليخفي ملامحه، انحنى ل(حمورابي) قائلاً بصوت خشن:

- منجم هيكل الإله (مردوخ) ومندوبه لدى البشر..

أشار له (حمورابي) بالاعتدال قائلاً:

- مالي أراك في حالة غير معتادة..

سارع المنجم بالتفسير قائلاً:

- جاءتني الرؤى المتتابعة تحذرنى من قدوم ساحر أريب من بلاد شرق نهر (دجلة)..

ردد (حمورابي) بدهشة:

- نحن أسياد العالم في السحر ولا يوجد من يضاھينا فيه، عندما هاجر أجدادنا لهذه البلاد لم نكن نعلم شيئاً عن السحر في الصحراء التي كنا نجوبها، تعلمنا هنا كيف يمكننا استخدام السحر والتنجيم وقراءة السماء وتفسير الأحلام والرؤى.. لقد استخدمنا ما توارثه أقوام (سومر وأكاد) وطوّعناه ليصبح سلاحاً ذا قيمة حتى أصبح بإمكان الخبراء مثلك قراءة الماضي والتنبؤ بالمستقبل من خلال قراءة أكباد الموتى من الأضاحي المهداة لهيكل الإله (مردوخ) وكذلك من خلال قراءة النجوم.. لقد تفوق سحرنا حتى على سحر (المصريين).. ما الذي يجعلك قلقاً هكذا من رؤيا بخصوص ساحر أجنبي..

قال المنجم:

- ما يملكه هذا الساحر ليس بسحر من الأرض.. إنه سحر ألقى إليه من السماء.. إنه سحر الشياطين..

انتبه (حمورابي) وسأل المنجم:

- هل تعني أنه يملك قبسا من سحر الآلهة؟

- ربما..

- وهل يمكنك مقابله والتفاوض معه لنعطيه منصبا كبيرا بهيكل الإله (مردوخ)؟

عبست ملامح وجه المنجم وهو يقول:

- لا أعتقد إنه يؤمن بالإله (مردوخ).. ما رأيته بوضوح هو كيان مقيم بالمنطقة المجاورة لأرض (عيلام) منذ مئات السنين.. كيان غير بشري ولكنه يقيم بوعاء ليبدو كالبشر.. كيان ينهل من سحر السماء منذ مئات السنين حتى صار أعجوبة الزمان..

سأله (حمورابي) وتعجبه يزيد:

- ولماذا قد يأتي ساحر مثل هذا لديه علم من السماء ل(بابل)؟

ثم سأله بلهجة قلقة:

- هل رأيت لديه نوايا سيئة شريرة؟ هل سيأتي غازيا؟

أوما المنجم برأسه نفيا مجيبا:

- ما رأيته أنه سيأتي كطالب علم يريد الاستزادة.. لقد شاع اسم سحر (بابل) حتى وصل لكل البلاد المجاورة ويبدو أن ساحر السماء يريد الاستزادة من أمهر سحرة الأرض..

قال (حمورابي) مفكرا بصوت مسموع:

- لا يوجد مكان فيه من السحرة المهرة ما يضاهي هيكل الإله (مردوخ) والذي فيه مدرسة تعلم السحر لكل من يأتيها من أعراق من شتى الأقطار ممن يملك القدرة على الدفع بسخاء لهذه المعرفة المقتصرة على النخبة..

قال المنجم موضحا:

- لهذا جاءتني الرؤيا..

صمت (حمورابي) يفكر.. ساحر أجنبي يملك علوما لا يملكها غيره.. إنه سلاح قد يكون هو الأقوى ل(بابل) لو استطاع امتلاكه.. وسيكون بلا شك الأشد خطرا لو استطاع غيره استمالته إلى جانبه ضد (بابل).. المنجم محق والرؤيا خطيرة حقا ولأبعد الحدود..

نظر لعيني المنجم مباشرة وهو يقول:

- حاول الاتصال بهذا الساحر فور أن تطأ قدماه أرض (بابل) وقدم له أي عرض يراه مناسباً للانضمام لهيكل الإله (مردوخ)..

أوما المنجم برأسه موافقا وهو يقول:

- رغم أن الرؤيا لم تقل بأنه سيحلُّ بوعائه البشري في أرضنا ولكني سأتابع العلامات بمنتهى الدقة سواء في النجوم أو بقراءة الأكباد..

ثم عاد لينظر نحو (حمورابي) ليسأله رافعا حاجبيه:

- اعذرني سيدي الراعي العادل لقد اندفعت رغم أنني من تم استدعاؤه للمقابلة الملكية..

ابتسم (حمورابي) وهو يجيب:

- بالفعل كنت أريد إخبارك بأمر شديد الأهمية..

ثم أخذ نفسا طويلا قبل أن يقول:

- لقد زارتنى الإلهة (إينانا) شخصيا في حلم بالأمس..

اتسعن عينا المنجم بانفعال وهو يقول:

- هذا فال هو خير ما يكون.. الإلهة (إينانا) لم تبارك ملكا إلا وصارت له امبراطورية لم ينسها التاريخ..

أضاف (حمورابي) بفخر:

- طلبت مني بناء معبد خاص بها في (بابل) وأن يتم تخصيص عيدا سنويا لها يتخضب فيه مذبح لها باسمها بالدماء الغزيرة.. ووعدتني بالدعم المستمر لي ما دمت حيا..

ضم المنجم قبضته قائلا:

- هذا لم يحدث لملك من قبل.. دعم من اثنين من أقوى الآلهة.. أولاً الإله (مردوخ) والآن الإلهة (إينانا)..

ثم تمالك أعصابه قائلا:

- لا بد من الإسراع في إرضاءها..

قال له (حمورابي) هازا رأسه:

- لقد أوصيت كبير المهندسين وبدأ بالفعل التخطيط للمعبد والذي سيجاور هيكل الإله (مردوخ)..

- هذا جيد..

ثم أكمل:

- أعتقد أنه لا داعي للخوف من أمر هذا الساحر الآن..

قال (حمورابي) بحزم:

- لن نغفل أمره..

سارع المنجم:

- بالتأكيد سيدي الراعي العادل..

ثم خفض رأسه قائلاً:

- هل يأذن لي سيدي بالعودة للهيكل ومتابعة أخبار نبوءة هذا الساحر..

وافق (حمورابي) بإيماءة من رأسه وهو يقول:

- وقم بابلأغي بأي جديد..

- أمر سيدي..

ثم انصرف المنجم تاركاً (حمورابي) يفكر في عدة أمور في آن واحد، غافلاً عن **(إينانا)** التي كانت تحلق في مستوى سقف القاعة الملكية وقد ارتسمت دهشة على ملامح وجهها وهي تقول لنفسها:

- ساحر يملك سحر من السماء.. كيف يمكن أن يحدث هذا؟ نقل السحر الضارّ من عالمنا السماوي لعالم البشر هو أمر محظور منذ بداية اكتشافنا لعالم البشر.. هذا أمر -إن صح- لهو شديد الخطورة..

كانت **(إينانا)** قد بدأت مؤخراً تتابع (حمورابي) بعد أن لاحظت منه شأنًا لم يتكرر لملك منذ عهد **(سرجون الأكادي)**، لذا فقد شعرت بأنه لا بد وأنه سيكون صاحب هالة إلهية وبدأت بالفعل في التواصل معه لتقدم له الدعم والإلهام مقابل أن يؤلّهاها.. صدمتها الآن معلومة تسرب سحر حقيقي من عالمهم السماوي للأرض.. كما صدمها من قبل ذلك الكائن السماوي **(مردوخ)** والذي يبارك (حمورابي) بعالم البشر، ويحكم مدينة **(بابل)** السماوية بمنتهى السرية محيطاً إياها بسور لا يمكن سبر أغواره، جاعلاً ما يحدث بداخلها غامضاً لا يعلم أي من أسياد عالم ما بين الرافدين تفاصيله، لم يره أحد من السماويين وإن بدأ اسمه يتردد كثيراً على الألسنة كسيد فرض عزلة حديدية على **(بابل)** السماوية لأسباب غير معلومة..

شعرت **(إينانا)** بأنه لا بد وأن يكون هناك ارتباط بين ظهور **(مردوخ)** بالسماء وظهور ذلك الساحر بالأرض.. لا تعلم ما الصلة ولكن ظاهر الأمور يقول هذا.. حملت أفكارها معها وحلقت

لتغادر (بابل) البشرية عائدة لمدينة (نيبور) السماوية شاعرةً بالرغبة في التحدث مع أبيها السيد
(إنليل)..

11- تحرير المشعوذ

مدينة (ماراد) السماوية..

كان السيد (نينورتا) يخترق مدينته -مدينة (ماراد)- من بوابتها الشرقية بعد خروجه من بوابة (اينانا) الغربية لمدينة (نيبور)، وقد أحاط به بضعة جنود مدججين بالأسلحة والعتاد كحراس شخصيين له، ألقى (نينورتا) نظرة خاطفة على الأبراج الشامخة والتحصينات فوق الأسوار مال بعدها جانب وجهه برضا وهو يكمل مسيرته نحو الزقورة المركزية لمدينته..

ارتقى الزقورة متجها نحو القمة حيث يرقد معبده الرئيسي، وحيث يتواجد السيد (إيرا) في حالات الحرب أو الاستنفار، كانت المنازل شبه فارغة لا تحوي سوى النساء والأطفال والعجائز، وتواجد جميع الجنود في حالة تأهب كاملة خلف الأسوار وفوقها يحرسون المدينة بأوامر من السيد (إيرا)، هز (نينورتا) رأسه وقد راقه ما وجده من حالة استعداد كاملة من جيشه النظامي لأي هجوم محتمل من المارد (عسق)، يبدو وأن (إيرا) لا يمزح حقا فيما يخص منصبه كقائد لجيوش بلاد (سومر) السماوية ويريد الاحتفاظ بمنصبه ما دام حيا..

دلف المعبد فتوقف حراسه الشخصيين عند المدخل، تحرك بسرعة نحو القاعة الرئيسية للمعبد حيث يتواجد تمثال ضخم له خلف كرسي حجري أسود اللون، كان (إيرا) واقفا أمام طولة حجرية يصل طولها لجذعه وقد تراصت عليها قطع حجرية صغيرة تمثل كتائب جنوده وقد تراصت كالدائرة خلف أسوار مدينة (ماراد)، وكان منهمكا في التفكير لدرجة أنه لم ينتبه لوقع خطوات (نينورتا) القوي على الأرضية الرخامية، فاقترب منه (نينورتا) وهو ينظر للخريطة الحربية التي يدرسها (إيرا) قائلا:

- وأين جنود المارد (عسق) على هذه الخريطة؟

التفت له (إيرا) بقامته الطويلة عريضة البنيان، لباس عسكري أسود برز بنطاقه سيف أسود طويل وكان درع أسود قد تعلق بظهره، خوذة عسكرية سوداء بقرنين ملتفين، ولم يبرز من وجهه سوى زوج من عيون جاحظة وفم مضموم الشفتين بقوة، ثم انفرجت الشفتان عن قوله بصوت قوي:

- لم يتم رصد أي جيوش له حتى الآن.. ما تم مشاهدته هو المارد شخصيا..

سأله (نينورتا) باهتمام:

- وهل من المنطقي أن يتجول القائد وحده بدون جنوده؟

هز (إيرا) رأسه مجيباً:

- ليس منطقياً بالطبع وقد يعني أنه لا يملك جيشاً ولكن الحذر مطلوب.. فليس من الحكمة التهاون مع ذئب جريح.. بل بالعكس يجب تقدير شراسته وقد تضاعفت..

قال (نينورتا):

- الذئب يملك حلفاءً أقوى..

- هل تمكّن المارد (عسق) أخيراً من التحول لكائن اجتماعي وتكوين صداقات مفيدة!؟

- لا نعلم من هم حتى الآن.. إنها معلومات جلبتها لنا العرافة (غولا)..

- معلومات أكيدة إذًا..

دار (نينورتا) حول الطاولة الحاملة للخريطة وهو يتأمل المساحات الشاسعة حول مدينة (ماراد) والتي يمكن ل(عسق) الهجوم من أي اتجاه منها، وإن كان غالب الأمر سيبدأ بإحدى البوابتين الشرقية أو الشمالية، وقال ل(إيرا):

- مشاهداته كلها من الشمال.. هل سيبدأ بمهاجمة البوابة الشمالية؟

- المنطق يقول بأنه سيهجم من الشمال.. من العبث مهاجمة الأسوار بعيداً عن البوابتين.. ولكن هذا لا يعني إهمال هذا الاحتمال مهما كان بسيطاً..

- لاحظت شدة تأمين الأسوار كلها بدون تمييز وليس فقط البوابتين..

- لا أريد أن يقال بأن (عسق) كان أكثر ذكاءً من (إيرا)..

- لا أحد منا يريد هذا..

ثم توقف (نينورتا) يعبث بقطعة حجرية لكتيبة من الجنود وهو يقول:

- سنكتفي بالتحصن بأسوار المدينة حتى تظهر لنا أية معلومات بخصوص حلفائه..

- أفضل الهجوم دائماً..

- وأنا أيضاً.. ولكن هذا ما حذرت منه العرافة (غولا)..

نظرت عينا (إيرا) لعيني (نينورتا) مباشرةً وهو يقول له:

- صوامع الغلال والتموينات الغذائية لدينا تكفي لحصار طويل الأمد ولكني لا أجد حصارا حقيقيا يدعو لمثل هذا التصرف.. لن يجعلنا (عسق) نتخفى خلف أسوارنا وكأننا نخاف منه..

- هذا ليس حقيقيا عزيزي (إيرا).. جيوشنا ستلزم مدينة (ماراد) حتى نتمكن من سبر أغوار جيوش (عسق) الخفية وكذلك حلفائه.. ثم بعدها سنشن عليهم حربا قاصمة لن تنتهي إلا بفنائهم هو وكل حلفائه وجيوشهم..

- وكيف سنفعل هذا؟

- مهمة استكشافية بسيطة للساحر (إيراكال)..

صمت (إيرا) وأدار وجهه بعيدا عن (نينورتا) مغمغما:

- هل تريد تحرير المشعوذ وإطلاق كينونتته السحرية حقا؟

تأنى (نينورتا) منتقيا كلماته بدقة قائلا:

- ليس تحريراً بالمعنى الحرفي.. لن يحارب فالحرب لم تبدأ بعد.. أريد منه فقط أن ينسل كالطيف خارج أسوار مدينة (ماراد) ويأتي لنا بأخبار عن حلفاء (عسق)..

أعاد (إيرا) وجهه ناظرا نحو (نينورتا) وهو يقول بلهجة حاسمة:

- إذا ليحدث الأمر.. ليتحرر المشعوذ (إيرا كال)!

ثم أغلق عينيه وتمتم ببعض كلمات كالهمس، ارتجف جسده قليلا ثم أصبح جسده كله يهتز بشدة كما لو كان يعاني نوبة صرع شديدة، ارتسمت خطوط سوداء حول أطراف جسده وظلت تهتز مع اهتزاز جسده للحظات قبل أن يتشكل كيان له جسد انفصل عن جسد (إيرا) بحركة خاطفة سريعة ليقف أمام (نينورتا) ككيان مماثل لجسد (إيرا) بذات الدروع السوداء والخوذة ذات القرنين الملتفين، واختلف فقط في وجهه الذي احتل ما داخل الخوذة ككتلة سوداء مبهمة أضاءتها كرتان حمراوتان مكان العينين، سكن جسد (إيرا) وتراجع للخلف يلهث بسرعة راميا نظرة منهكة على ظهر جسد (إيرا كال).. بينما كان المشعوذ (إيرا كال) يقترب أكثر من (نينورتا) قائلا بصوت كالفحيح:

- أهلا وسهلا بالسيد (نينورتا)..

ابتسم (نينورتا) له رادا التحية بهزة من رأسه قبل أن يقول:

- كم تتضاعف فرصنا في النصر بمجرد ظهورك في ساحة المعركة عزيزي (إيرا كال)..

رد عليه (إيرا كال):

- لا أرى معركة حقيقية تحدث الآن..

- دورك سيكون أهم بكثير من أي دور قد قمت به من قبل بأي معركة..

- هل عاد (عسق)؟

- نعم..

- أخبرتك في الحرب الأخيرة ضده أن ماردا متمرّد مثله لن يهدأ إلا بانتصاره أو بموته.. لذا كان يجب قتله..

- أتفق معك.. وهذا ما سنفعله هذه المرة فور وقوع رأسه الكريهة بين أيدينا..

تدخل (إيرا) قائلاً:



(إيرا) وقرينه المشعوز

- (عسق) يملك حلفاءً هذه المرة..

وأضاف (نينورتا):

- حلفاء غامضون لا نعلم عنهم شيئاً..

قال (إيرا كال) ببساطة:

- لماذا لا تجرّد جيوشك وتخرج وتسحقهم كالحشرات؟

قال (نينورتا) مجيباً:

- حذرتنا العرافة (غولا) من فعل هذا وقالت إن نتيجته هزيمتنا..

تنهد (إيرا كال) قائلاً:

- هذا لا يوحي إلا بقوة حلفائه..

قال (نينورتا):

- لهذا فكرت في استدعائك.. نحتاجك بشدة لمسح المناطق الشمالية التي شوهد فيها المارد (عسق).. آتنا بكل المعلومات التي تخص جيوشه وحلفائه وأماكن تركزهم.. كل هذا بسرية تامة.. وبسرعة..

تحرك (إيرا كال) منسلاً وكأنه يطير ليتوقف أمام خريطة مدينة (ماراد) ذات القطع الحجرية، والقي نظرة طويلة بعينيه الحمراء وتين وكأنه يفكر في الوضع الحالي ومهمته الجديدة، فتحرك (إيرا) ليقف بجانبه ويحذو حذوه ويركز نظره في القطع الحجرية الممثلة لكتائب جيشه، ثم مدّ (إيرا كال) يده فارداً أصابعه فتحرّكت القطع وحدها تلقائياً بدون أن يلمسها وأعدت تحريك نفسها لتصبح أغلبها خارج الأسوار ولكن ملاصقة لها، وظل ما يقارب رُبع القوات فوق الأسوار والأبراج، وجزء بسيط بالجزء الداخلي من الأسوار.. ثم نظر (إيرا كال) ل(نينورتا) قائلاً:

- هكذا أفضل.. سنجعل لعابهم يسيل وكأننا قد ابتلعنا الطعم وحركنا جيوشنا خارج المدينة ونعدّ العدة للهجوم عليهم، في حين أننا فعلياً لا نزال داخل الأسوار ويسهل عودتنا لموضعنا الأول في لحظات.. وفي نفس الوقت نجعلهم أقل حذراً فيسهل لي التجول بين صفوفهم وجلب المعلومات الكافية لنا..

غمغم (إيرا):

- أنت تغشّ يا قريني المشعوذ.. لقد كانت فكرتي..

رد (إيرا كال) بشيء من السخرية:

- فكرتك ولكنها أعجبتني أيها القرين المخطّط البارع...

ابتسم (إيرا) ولم يعقّب، في حين شد (نينورتا) قامته قائلاً:

- لدينا خطة مبدئية واعتمادنا الكلي الآن على مهارتك يا (إيرا كال)..
طار (إيرا كال) للأعلى بحركة سريعة وهو يقول بتصميم:

- لا تقلق.. اعتبر مهمتك قد نجحت بالفعل.. مسألة وقت ليس إلا..

ثم غادر القاعة بسرعة تعجز الأعين عن متابعته تاركاً (نينورتا) و(إيرا) يناقشان استراتيجيات عديدة متوقعة للحرب القادمة..

12-الرسول

سحابة العاصفة..

راسخة بقوة على الأرض..

قلبها غامض..

كلمة (أنو)..

كلمته التي فوق تهز السماوات..

وكلمته التي بأسفل تزلزل الأراضين..

لا بصير لكلمته.. ولا يمكن التنبؤ بكلماته..

ولا مفسر لأحلامه..

كلمة الرب تقتل عشب الأهوار في بركها..

وتغرق المحاصيل في سيقانها..

وتطغى على الصفصاف كالفيضان..

كلمة الجبار إذا تمشي بهدوء لكنها تحطم الجبال والسماوات..

(جزء من قصيدة في تأليه (أنو) مترجمة من السومرية القديمة..)



أنو

(الوركاء) السماوية..

توقفت (إينانا) أمام مدخل قصر (أنو)، رفعت رأسها لتلقي نظرة على نقش النجمة ثمانية الرؤوس -بسخرية- إذ كان هذا الرمز يشير لتحكم (أنو) بجهات العالم الجغرافية الثمانية، فكيف يتحكم (أنو) بعالم وهو معزول عنه لم يره أحد منذ عشرات السنين، تخطت تماثيل الثيران الضخمة بالمدخل لتصبح بداخل ممر عريض مبطن بحجارة بيضاء، أفضى الممر القصير مباشرةً لبهو شديد الاتساع لتجد (إينانا) نفسها تحديق بقاعة عالية السقف تشمل بالفعل مساحة القصر كله، نقوش وتماثيل الثيران البيضاء تغزو البهو، يتوسط البهو أربعة عمدان ضخمة تصنع فيما بينها ما يشبه حجرة خاصة بلا جدران ولا سقف تنظر للسماء مباشرةً عبر فراغ دائري بمنصف السقف المزيّن -أيضا- بتماثيل الثيران البيضاء.. وكان هناك شخص يجلس القرفصاء بين هذه العمدان طائرا على مسافة عدة أمتار من الأرض يرمي السماء بنظرة جامدة لا تطرف فيها عيناه.. يتطاير طرف ثوبه الأبيض الفضفاض حوله ليتشابك مع أطراف شعر رأسه الأبيض المجدول شديد الطول.. وكانت ملامح وجهه أشبه بملامح وجه (إنليل) وإن غزاها عدد مضاعف من التجاعيد ولكن بشكل محبب للنظر..

السيد (أنو) شخصيا.. شعرت (إينانا) بالرهبة رغما عنها.. رغم كل ما يقال وكل ما كانت تفكر به بخصوصه لم تستطع منع تلك القشعريرة التي سرت بجسدها وهي تحرق في أبي الأسياذ.. السيد الذي جاء قبلهم جميعا..

(يبدو وكأنها المرة الأولى لك لتشهدني أبا الأسياذ.. أبانا..)

انتبهت (إينانا) لوجود (إنليل) قائل العبارة السابقة وقد كان جالسا يستريح على كرسي حجري ضخم يعلوه رأس ثور، أحد بضعة كراسي مماثلة تناثرت حول العمدان الأربعة، أعطته ابتسامة عريضة وهي تقول:

- هذا صحيح.. لم أره مطلقا من قبل.. ولكن ما سمعته عنه يكفي.. أو بشكل أدق ما لم أسمعته عنه!

أمال (إنليل) رأسه وقد ارتسمت ابتسامة حنون على شفثيه وهو يقول:

- ابنتي الصغيرة.. السيد (أنو) لديه ما يشغله عن شؤوننا وهو ما يجعلني أتقبل الحلّ محله كسيد للأسياذ..

سألته (إينانا) بعناد وقد لاحظت تجاهل (أنو) لهما ولحديثهما وكأنهما غير موجودين:

- وما الشيء الخطير الذي يشغل بال جدنا العظيم!؟

أجابها (إنليل) بهدوء:

- لا أعلم ولكني أثق به..

صمتت (إينانا) تأخذ شهيقا عميقا ثم قالت:

- لقد جنّت مباشرةً من مدينتك (نيبور) ولم أجدك، ما زلت أتابع ذلك البشري (حمورابي) والذي صرت لا أشك الآن بأنه يملك هالة إلهية.. هناك أخبرني الكهنة بأنك غادرت (نيبور) متجها ل(الوركاء) بسبب استدعاء السيد (أنو) لك..

قال لها (إنليل):

- الاستدعاء لنا جميعا وليس لي فقط.. ولو اتجهت لمعبدك لوجدت من يخبرك بضرورة التوجه لقصر السيد (أنو) ب(الوركاء) لأمر هام..

- لقد دُهِشت في الواقع وأنت الآن تزيد دهشتي أضعافا.. هل قرر السيد (أنو) التحرك من عزلته أخيرا؟!!

- وما سبب زيارتك لي ب(نيبور)؟

صمتت (إينانا) برهة وهي تفكر، تربط الأحداث ببعضها البعض، ما سمعته من منجم (حمورابي) بشأن الساحر الذي سرق سحرا من السماء، وما تعلمه بشأن السيد السماوي الغامض (مردوخ) الذي يتحكم بقرارات (حمورابي)، وأيقنت أنه لا بد وأن يكون سبب استدعاء السيد (أنو) لهم يتعلق بأحد الأمرين الخطيرين، فاتجهت ببصرها نحو (أنو) الساكن بين الأعمدة وقالت بصوت عالي:

- سبب زيارتي لك هو بلا شك سبب دعوة السيد (أنو) لنا..

نظر لها (إنليل) باستفهام فتابعت قولها بصوت أعلى:

- بسبب سرقة سحر ضارّ من عالمنا السماوي واستقراره بعالم البشر.. وكذلك بسبب ما يقوم به السيد (مردوخ) من تخطيط سري بمدينتيه السماوية والبشرية..

نظر (إنليل) ل(أنو) ففوجئ به يحرك ساقيه ويفك انعقادهما، ويتحرك كالريح لينزل حتى يقف بينه وبين (إينانا) مبرزا طوله المهيب الذي فاق طوله هو رغم تقدمه الشديد في العمر، وتراجع خطوة للخلف برهبة وهو يراه يدير وجهه نحو (إينانا) التي اضطرت للإطراق أرضا بقلق بدون أن تنطق أمام هذا الفعل غير المتوقع أو المسبوق، وانطلق الصوت القوي من بين شفتي (أنو) يقول ل(إينانا):

- ما حدث لم يكن أن يجب أن يحدث!

تجرات (إينانا) ورفعت رأسها لتتنظر لعيني (أنو) المكحولتين الأسرتين وسالته باهتمام بعد أن قلت الرهبة كثيرا واستأنسته:

- من سرق السحر من عالمنا يا سيد (أنو)?

تحرك (أنو) ليخطو جانبا عدة خطوات وهو يقول:

- القواعد يتم وضعها ليتم تنفيذها وليس خرقها.. العواقب وخيمة للغاية والعقاب رادع.. سواء بالدنيا أو بالآخرة..

رددت (إينانا) مع (إنليل) في صوت واحد بذهول:

- الآخرة؟!!

أكمل (أنو):

- ما كن ينبغي لسارق السحر من بدء تعليمه للبشر.. إنه مُحَرَّم عليهم.. هكذا أصبح للبشر سطوة علينا.. وسطوة على بعضهم البعض وهذا هو الأشد خطورة..

سأله (إنليل):

- لم يفت الأوان.. بإمكاننا عقاب السماوي الذي سرق السحر وكذلك منع تعليمه بعالم البشر والتخلص من معلمه..

هز (أنو) رأسه نافيا وهو يقول:

- لقد قال الخالق كلمته.. وبدأ اختباره للبشر.. وكذلك لنا السماويين.. لا تدخُل بقراراته وحكمته..

رددت (إينانا) بفراغ صبر استحثه فضول شديد:

- أي خالق وأي آخرة؟ لماذا تحدثنا بالألغاز يا سيدي؟ لا يوجد خالقون سوانا نحن آلهة البشر..

توجّه (أنو) نحوها مرددا:

- لا يوجد سوى خالق واحد لكل المخلوقات..

ضيق (إنليل) حاجبيه بدون أن يعلّق تاركا التساؤلات التي تغمره تنطلق عبر لسان (إينانا) المندفع كالسهم المارق:

- لعلك لا تقصد مهندس العوالم والذي خلق العوالم السماوية وخلق حواجز الدهر حتى لا يرى أحدنا الآخر..

قال (أنو) بمرارة:

- لقد بدأ تصدع حواجز الدهر.. وكذلك بدأ انتهاء اتصالنا بعالم البشر.. لقد بدأت النهاية بالسحر المسروق واختلت الثوابت..

سأله (إنليل) وقد تحدث أخيرا:

- كيف علمت بكلّ هذا يا سيد (أنو)?

وجّه (أنو) نظره نحو (إنليل) لحظة، ثم نظر ل(إينانا) وأشار لها نحو أحد الكراسي البيضاء قائلا مبتسما:

- استريحي يا ابنتي فالحديث سيطول ويحتاج لكل تركيز..

تحركت (إينانا) بصمت لتستقر على كرسي مقابل لكرسي (إنليل)، فأعاد (أنو) نظره نحو (إنليل) قائلا:

- ما أنا سوى برسول من رب العالمين.. الخالق الذي أرسل لكل عالم ولكل مجموعة من المخلوقات رسولا يخبرهم بضرورة عبادته حتى لا يكون لهم حجة يوم الآخرة بأنه لم يتم تنبيههم.. أنا شقيق البشري (نوح) الناجي من الطوفان.. أنا (أدم) لمملكة السماويين كلها.. أنا من اختصني رب العالمين بمعرفة إلهية هي معجزة لا يمكن تفسيرها.. معرفة تجعلني أرى كل العوالم السماوية وكل أراضي البشر.. معرفة تجعلني أرى جدران حواجز الدهر وهي تتشقق تمهيدا لانهارها الكامل وبدء حقبة جديدة لم يحدث مثلها من قبل حتى إبان حرب الأسياد الدموية الأولى.. معرفة تجعلني على علم بالأحداث الجسام الأربعة الأولى، وبالحدث الجسيم الخامس الذي هو على وشك الحدوث وجلب الفناء للعالم.. معرفة تجعلني أرى حتى نهايتي التي صارت وشيكة..

صمت (إنليل) ولم يستوعب أغلب ما قاله من معرفة غيبية، ولكنه شعر بصدمة تلطمه مع قول (أنو) الأخير المتنبئ بنهايته القريبة، بينما سألته (إينانا) بفضول:

- لهذا كنت في معزل عنا جميعا؟

أجابها (أنو):

- عزلتي كانت اختيارية – وإن كانت ضرورية- للبحث عن إجابة لسؤال لم يفارق ذهني منذ دحري لجميع الأسياد الآخرين وبداية حكمي للعالم السماوي.. كنا أسياد امتلك كل منا قوة أحد عناصر الحياة المختلفة قبل أن يحدث التمرد والحرب الشاملة منذ ما قبل التاريخ السماوي والتي انتهت بسيطرتنا سلالة أسياد الصواعق.. منحني القدر أسرة جميلة متحاببة مخلصه.. وجدت نفسي أحرق بكائنات أدنى مني تنظر لي كإله بعالمهم السماوي.. ظل السؤال الذي طالما أرقتني هو من الذي خلق الأسياد جميعا في الأصل؟ كيف بدأت الحياة بعالمنا؟ لماذا نختلف عن البشر؟ من القادر على إعادة صنع مخلوقات خارقة مثلنا مرة أخرى؟ ولماذا؟ إذا كانت كائنات البشر الأدنى وكذلك العامة من كائنات عالمنا السماوي تنظر لنا –الأسياد- وكأننا آلهتهم، فمن آلهتنا نحن؟

ثم نظر نحو (إنليل) مضيفا:

- وإيماننا مني بقدرتك على السيطرة على جميع الأسياد، سواء من أتى من نسلنا أو من أتى من أسياد آخرين.. تركت الحكم لك يا بني واعتزلت العالم لأبحث في السماء عن إجابة لسؤالي.. إذا كان للبشر سماء يناجون فيها معبودهم فلا بد لنا من نفس الامتياز.. وقد كان هذا حتى جاءني الوحي بالأمس يأمرني بأن أبلغ رسالة الخالق الأوحى لجميع السماويين.. وهكذا بدأت بعشيرتي الأقربين –أنت و(إينانا) و(نينورتا)- ثم سأقوم باستدعاء جميع الأسياد السماويين الآخرين ونقل الرسالة لهم بوضوح..

قال (إنليل) بقلق:

- لن يتقبل الجميع الأمر بصدر رحب.. هناك من سيشكك به وهناك من سيرفضه كليا.. ولن يكون رد فعل الجميع سلميا فأنت تطلب من الأسياد أن يكفوا عن كونهم أسيادا..

عقب (أنو) مبتسما:

- لهذا قلت لك بأن نهايتي صارت وشيكة..

انفعل (إنليل) وهو يقول مندفعاً:

- لن أدع أحداً يمسك بسوء ما دمت حيا..

اتسعت ابتسامته (أنو) وهو يقول:

- بني.. لنعم الابن أنت حقا يا (إنليل).. ولكن ما قدره الخالق سيكون.. وبالتأكيد سيكون له سبب وعظة ودرسا للتاريخ.. الخالق لا يفعل شيئا عبثا.. ولكن هناك ما هو أهم من هذا..

ثم بادل الاثنين نظرات سريعة وهو يسأل باهتمام:

- هل وجدت دعوتي صدى في قلبكما؟

سارع (إنليل) بالرد المرحب:

- بالطبع يا أبي.. أمنت بربك ورب العالمين..

طلت نظرة امتنان من عيني (أنو) قبل أن ينظر نحو (إينانا) فأجابت على الفور:

- بالطبع أمنت برب العالمين.. وهذا أمر منطقي قبل أن يكون عاطفيا..

ثم شردت وهي تقول:

- الآن فقط أجبتي على تساؤلات كانت لتظل تورقني مدى الدهر..

قال (أنو) مداعبا:

- لقد ورثت الحفيدة من الجد فقط ولعه بالتساؤلات الجدلية..

ضمت (إينانا) شفيتها بقوة قائلة وهي تنحني برأسها:

- شرف لي يا سيدي وجدي أن أكون حفيدتك.. أن أكون حفيدة لرسول من رب العالمين..

صمت (أنو) قليلا وقد لانت ملامح وجهه وبرز جليا عليه إمارات الراحة النفسية، وتحركت قدماه يجران الجسد المثقل بالهموم ليستقر على أحد الكراسي البيضاء وهو يقول بلهجة توحى بخطورة ما سيقول:

- أما عن السحر المسروق فسيكون سببا لضلال أجيال لا عدّها لها ولا حصر للبشر.. أما عن أثره على عالمنا فسيكون بانفتاحنا على باقي العوالم السماوية بكائناته التي منها الصالح ومنها الطالح.. أما عن أثره على عالمنا نحن والبشر- فلقد بدأ أهمها بالفعل ولم يعودا العالمان متصلان كما كانا منذ بدء الخليقة.. بدءًا من الآن لا خوف من انهيار نهر (الفرات) لدينا لو انهار لدى البشر.. لا خوف من سقوط مفاجئ لإحدى الزقورات لو انهارت مثلتها لدى البشر.. لقد زال السبب الرئيسي الذي أجبرنا على الارتباط بالبشر ومحاولة حماية وجود عالمهم لما سيترتب عليه من ضرر لعالمنا.. باختصار صار لكل مسار الخاص تاريخيا وجغرافيا..

ارتفع حاجبا (إينانا) بدهشة تامة وهي تقول:

- هذا يعطينا الحرية الآن في تجاهل البشر وبدء التركيز على عالمنا فقط..

تمتم (إنليل) وقد بدا متخوفا:

- ربما هذا ليس جيدا لبعض من نعرفهم من الأسياد.. سيكرسون قوتهم وجلّ وقتهم الآن لفرض سيطرتهم على باقي المدن السماوية (السومرية)..

صح له (أنو):

- تعني المدن السماوية (البابلية) وليس (السومرية).. لم يعد هناك (سومريون) بعالم البشر..
قال (إنليل) معترضا:

- لم يعد لنا صلة بعالم البشر بعد الآن.. أليس كذلك؟

ابتسم (أنو) رغما عنه لملاحظة (إنليل) وقال مؤمنا على كلامه:

- صدقت يا بني..

ثم أشار لهما قائلاً:

- بإمكانكما الانصراف الآن فلدي ما يكفي من الأسياد لتبليغهم بالرسالة..

قال (إنليل):

- فيما يخص (نينورتا)..

قاطعه (أنو) بهدوء:

- لم أتوقع مجيئه فهو مشغول للغاية بتهديد لمدينته..

وأكمل مبتسماً:

- الآن أصبحتما رسلا مثلي.. أبلغاه برسالة الإيمان بالخالق بدلا مني..

قامت (إينانا) إيذانا بالمغادرة، بينما تلتأ (إنليل) قليلا قبل أن يقول ل(أنو):

- لن أستطيع أن أكف قلقي عليك يا أبي.. قصرك فارغ ولا يوجد غيرك هنا.. ستكون هدفا سهلا لأي معارض لرسالتك..

تمتم (أنو) بخشوع:

- الله خير حافظا..

ثم أكمل لما رأى نظرات القلق في عيونهما:

- حولكما اثنا عشر تمثالا لثيران.. إنها ليست كما تبدو عليه.. إنهم حراسي (الأنانوكي) الذين أرسلهم الخالق لحمايتي.. وقت الخطر لن يظلوا مجموعة من حجارة وسيحركهم الخالق كجنود سماويين يحاربون من أجلي..

تنفس (إنليل) الصعداء قائلاً:

- هذا أفضل كثيراً..

ثم أشار ل(إينانا) ليغادرا سويا نحو مدينة (نيبور) وهو يقول:

- الآن سنتركك لتستمر في نشر الدعوة.. وفقك الله سيدي وأبي..

13- اغتيال بمدينة (أور)

هل رأيتَ الجثمان الذي تُرِكَ ملقَى في الريف المفتوح؟

رأيتُه.. روحه غير مستقرة بالعالم السفلي..

هل رأيتَ الشخص الذي روحه لم تُقَم لها الشعائر الجنائزية؟

رأيتُه.. يلتهم بقايا الأكل من وعاء..

يلتهم كِسْرًا من الخبز التي أُقِيَت بعيدًا في الشارع..

(ترجمة من مخاريط جنائزية من العصر البابلي القديم 1600-1800 ق.م)



(أور) السماوية..

اقتربت عربة خشبية يجرها حمار وحشي لاهت من بوابة (أور) الشمالية الرئيسية، واستقر على متنها شخصان أحدهما كان يتدثر بقماش أبيض قد تلوّثت أطرافه بالطين كان يتحكم في حركة الحمار ويقوم بتوجيهه نحو البوابة، والثاني كان يجلس بالخلف وسط مجموعة من محاصيل القمح والشعير يثبتها بأطرافه مانعا إياها من الانزلاق والسقوط خارج العربة، انتبه لهما حارس واقف بتراخ أسفل البوابة الرئيسية وقد تدلى سيفه من نطاقه فتحرك نحوهما ليشير بيديه قائلاً:

- توقفاً للتفتيش..

توقف المتحكم بالحمار ورمى نظرة لصاحبه بالخلف وهو يسأله بصوت تعمد أن يسمعه الحارس:

- هل حافظت على المحصول طوال الرحلة؟ هل سقط منه شيئاً؟

ظل جسد الثاني ثابتاً ممسكاً بسلال المحاصيل بصعوبة وهو يرد عليه قائلاً:

- لقد نجحت في منع فقدان أي سلة واحدة من المحاصيل ولكني لم أعد أشعر بأطرافي الآن من المجهود الذي بذلته طوال الرحلة..

نقل الحارس نظره بينهما قبل أن يقول:

- من أين جئتما أيهما التاجران؟

أجابه قائد العربة:

- مسيرة طويلة من مدينة (أوما) من أجل تبادل محصولنا..

قال له الحارس:

- كان بإمكانك توفير عناء رحلتك والتوقف في طريقك بمدينة (لارسا) أو (الوركاء) لقضاء منفعتك بدلاً من تعريض محصولك لخطر الهلاك بطول الرحلة لمدينة (أور)..

ثم أضاف ساخراً وهو ينظر للقمح والشعير:

- ومدينتنا ليست بحاجة لما جئتما به على الإطلاق فتوقعا أن تُبخَسَا قدره ولا تحصلان على ما يماثل قيمته الحقيقية..

قال الجالس بالخلف بين المحاصيل:

- لا يهمننا قدر محاصيلنا ولا فكرنا في خطر هلاك البضاعة خلال الرحلة الطويلة فما سمعناه عن جودة ما تملكون وتفردّه جعلنا نخاطر ولا نخشى شيئا..

هز الحارس رأسه مبتسما قائلا:

- هذا صحيح.. ما ستجدونه هنا بمدينةتنا لن تجدوه بأية مدينة بالمملكة السماوية كلها.. إن مدينة (أور) يباركها الكاهن الأعلى نفسه ويحميها بنفسه.. ربما حتى ستبادلان ما جئتما به من قمح وشعير بما لدينا من قمح وشعير يفوقانه جودة!

قال الجالس بالخلف وعلامات الألم ترسم على ملامح وجهه:

- أرجوك هل يمكنك أن تعفنا من التفتيش فأنا لم أقم بتحريك يداي ولا قدمي منذ ساعات، وأي حركة عنيفة قد تقوم بها ستسقط السلال كلها على الأرض..

نظر له الحارس مطولا ثم تحرك عدة خطوات للخلف ناظرا لسلال المحاصيل عن قرب، تفقد بيده محتوى ثلاثة سلال متجاهلا صياح القائد المذعور:

- لا تحركهم بقوة يا سيدي أرجوك..

نفخ الحارس بقوة صائحا:

- حسنا يمكنكم الدخول الآن.. سأقوم بعمل استثناء من أجل رحلتكما الطويلة..

ابتسم له الاثنان بامتنان وقائد العربة يعيد توجيه الحمار ليعبر بوابة مدينة (أور) المجيدة..

وفور ابتعادهما مسافة مناسبة قام الجالس بالخلف بتحريك ساقيه وذراعيه وهو يصيح بانفعال:

- أخيرا.. تبا لتلك السلال!

سقطت بضعة سلال مع حركته المفاجئة وتدرجت أرضا فسارع قائد العربة بالقول:

- يا (بابوم) لا تكن طفلا.. حركة غبية كهذه قد تُسقط الكرة السحرية التي نحملها..

هز (بابوم) كتفه بلا مبالاة رادا على قائد العربة:

- عزيزي (كالييوم) لا تكن جبانا.. دورك لن يكون سوى رمي تلك الكرة على معبد الكاهن الأعلى من مسافة بعيدة.. الدور الأكبر والأهم سيكون لي أنا العظيم (بابوم) أعظم قناصة مملكة (سومر) السماوية.. سأتربص للكاهن الأعلى خارج مدخل المعبد وبمجرد ظهوره هاربا من النيران سأقوم بانتزاع روحه بسهم لا يخطئ من ذراعي التي هي ذراع لسيد سماوي في مهارتها

وليست لمواطن (سومري) سماوي عادي.. أنت تمتلك الذراع الأقوى في مملكتنا السماوية حقا ولكن ذراعي وأصابع يداي هي الأذق..

مدّ (كالييوم) يده ليحرك سلة يخفي بها ما ظهر من جزء من تلك الكرة السحرية وهو يقول ل(بابوم):

- حسنا أيها القناص انطلق الآن وانتقي مكانا جيدا يصلح لأداء مهمتك.. أما أنا فسأحاول الاقتراب من المعبد دون إثارة الشكوك.. وسأستقر قريبا بما يكفي ليتمكنني إطلاق الكرة السحرية لتستقر بقلب المعبد..

وثب (بابوم) القناص برشاقة من وسط السلال مسقطا مع حركته عددا آخر من السلال، وتحرك شخص قريب منهما ليجمع له ما سقط من سلال ويعطيها له، فابتسم له (بابوم) ابتسامة واسعة مصطنعة وهو يشكره ملتقطا منه السلال قبل أن يعيد تجميعها بمؤخرة العربة.. ثم سارع بالحركة بخفة مشيرال (كالييوم) قبل أن يخفي تماما عن ناظره..

تنهد (كالييوم) وهو يتحرك بحماره وسط البيوت باتجاهات تبدو عشوائية لمن يلقي نظرة عابرة ولكنها كانت مدروسة جيدا بعناية بحيث يقترب من معبد الكاهن الأعلى بدون أن يثير الشكوك.. لديه تلك الكرة السحرية التي لا يعلم بوجودها سوى الصفة من قائدي الجيوش (السومرية) السماوية، تلك الكرة التي قيل له أنه عند إطلاقها بقوة ساعده التي لا مثيل لها ستحدث نيرانا ودخانا وجحيما مستعرا فقط بمجرد ملامستها لأي سطح صلب بعنف كافٍ لإثارته.. مما سيضطر الكاهن الأعلى للهروب من المعبد ليجده سهم (بابوم) القناص الذي لا يخطئ وينهي على حياته.. وإمعانا في الدقة تم طمأنتهما بأنه في حالة حدوث أي فشل بالمهمة فليس عليهما أن يقلقا فجيوش (لارسا) على أبواب مدينة (أور) بقيادة السيد (شمش) والسيد (بونيني) شخصيا ستقوم بالاقتراب بمنتهى العنف وتصحيح فشل مهمة الاغتيال.. وبالتالي سيتم الإفراج عنهما بدون إبطاء لو وقعا بين أيدي رجال الكاهن الأعلى..

قابله عدد قليل من التجار الراغبين في محصوله، لقد كان الحارس محقا في كون بضاعته من القمح والشعير غير مرغوب بها بمدينة زراعية خصبة مثل مدينة (أور)، ولكن هذا أيضا كان مقصودا لتقليل عدد الفضوليين من العامة والتجار مما لا يتسبب بتسليط العيون عليه واحتمال كشف مهمته السرية، حتى من قابله من تجار ردّ عليهم بأن بالغ في تقدير سعر بضاعته مما جعل السلال تظل بمكمنها بدون أن تنقص سلة واحدة، وهو المطلوب لإخفاء الكرة السحرية بالأسفل..

مرّ وقت ليس بالقليل اطمأن فيه (كالييوم) لأن (بابوم) القناص قد اتخذ موقعه بالتأكيد، فقام بالتحرك لنقطة معينة بين بيتين حيث استقرت نخلة باسقة، نظر حوله بحذر مراقبا من كان يمرّ

بالطريق حتى خلا من المارة فجأة فسارع بتحريك يده وسط السلال والتقاط الكرة السحرية التي كانت في مثل حجم رأسه، نظر للأمام حيث استطاع رؤية الأجزاء العليا من معبد الكاهن ثم أخرج قطعة متينة من قماش قاسي قام بربطها حول جذعه من الخلف بقوة وعقدها من الطرف المقابل الملامس للنخلة لتحيط بجذعه وجذع النخلة كالحلقة وتثبتها ببعضهما البعض، ثم وضع الكرة على صدره وقام بإحكام عقدة القماش أكثر لتصبح الكرة ثابتة على صدره، تحرك بسرعة وقد بدأت ضربات قلبه تزداد وتتداخل مع أنفاسه وهو يثب بمهارة للأعلى متسلقا محتضنا جذع النخلة، ثم سارع بتحريك عضلات جذعه وساقيه وذراعيه ليتسلق النخلة بسرعة أكثر تدرج عليها منذ نعومة أظفاره..

وصل لقمة النخلة في لحظة وقد تسببت سرعته في إصابة أطرافه الأربعة بجروح طويلة بدأت تنزّ دما ولكنه تجاهل آلامه مع فورة انفعاله التي غزت دمه وخدرت جسده، استقر بين سعف النخلة بمهارة وقام بحلّ عقدة القماش التي كانت تطوّق جسده وتثبته بجذع النخلة ليصبح جالسا في وضع مريح يمكّنه من قذف الكرة، أخرجها من مكمّنها بحرص وأمسك بها بقبضته اليمنى التي ذاع صيتها في كل بلاد (سومر) السماوية بأنه لا مثيل لها في قوتها، نظر للمعبد الذي كان يراه بوضوح الآن من ارتفاعه هذا، ركّز على منتصف المعبد حيث كان من المفترض تواجد الكاهن به طوال اليوم، قام بحساباته لتقدير المسافة فهو لا يريد قذف الكرة بقوة مبالغ فيها تتسبب في إلقائها خارج المعبد ولا بقوة أقل من اللازم فتسقط عند مدخل المعبد، حرّك ذراعه ثلاث مرات في تجربة لثقل الكرة قبل أن يكتّم أنفاسه ويشد عضلات جسده كلها ويقوم برمي الكرة بكل قوته مركزا على قلب المعبد..

مع انفعاله انزلق جسده ليميل جانبا، ومع عدم وجود عقدة لقطعة القماش وجد جسده يسقط بعنف من علوّ، حاول التشبث بجذع النخلة ولكن كان جسده يتجه مرغما بعيدا عن النخلة، فانتسعت عيناه برعب غير مصدق لهذا الخطأ التافه الذي سيتسبب في موته، وكانت رأسه أول ما ارتطم بالأرض لينشأ صوت تكسير عظام جمجمته المكتوم على الفور، وفارت من رأسه الدماء لتغرق الأرض التي سكن عليها جسده بلا حراك، وإن ظلت أصابع يده التي قذفت الكرة تنتشج لعدة لحظات..

كان (بابوم) القناص يكمن بين أوراق شجرة ضخمة وقد طال انتظاره عندما لمح الكرة وهي ترتقي عاليا بسرعة ثم تقل سرعتها تدريجيا حتى تتوقف فوق منتصف المعبد ثم تعود سرعتها لتزداد وهي تغير وجهتها بقوة الجاذبية وينحني مسارها لتسقط بداخل قلب المعبد بالتحديد، فرقصت ملامح وجهه فرحا وهو يغمغم:

- (كالييوم) أيها اللعين الماهر!

وأخرج من وسط الأقمشة التي تغطي خصره سلاحا معدنيا صغيرا مدبب الطرف كالخنجر ولكن أطول قليلا، أخذ يداعبه بين بأصابعه بمهارة قاتل محترف وهو يغمغم بابتسامة شرسة واسعة:

- أين أنت الآن أيها الكاهن؟

توقفت الكرة السحرية بالهواء قبل أن تختفي بداخل المعبد، وبدلا من أن يسمع (بابوم) صوت انفجارها فوجئ بها تظهر صاعدة من أسفل ترتجف في مكانها وكأن قوى غامضة تتحكم بها، ثم فوجئ بجسد الكاهن الأعلى نفسه يبرز قادما من قلب المعبد طائرا في وضع القرفصاء ناظرا للكرة بغضب وقد استقر نسر هائل الحجم غارسا مخالبه بكتف الكاهن فاردا جناحيه عن آخرهما، كادت عينا (بابوم) تثبا من محجريهما من هول ما يرى، هذا الكاهن ليس ببشر، إنه غير قابل للاغتيال هكذا ببساطة، رفع الكاهن يده ليحيط بالكرة بيديه ثم التفت مرة واحدة نحو (بابوم) وكأنه يراه رغم بُعد المسافة، توقف قلب (بابوم) وسقط سلاحه من بين أصابعه وهو يتمتم مأخوذا:

- إنه يراني.. إنه يعلم.. إنه ساحر عظيم!

حرك الكاهن أصابعه باتجاه (بابوم) فتحركت الكرة السحرية وكأنها تتلقى أمرا منه لتنتقل كالسهم نحو القناص المذعور، تغلّبت غريزة (بابوم) القتالية ممتزجة بغريزة البقاء لتتغلبا على رعبه ووثب بكل قوته جانبا، ارتطمت الكرة بالأرض أمام (بابوم) لتحدث صوتا كأنه يهيار الجبال، وضوءًا منيرا نفاث ضوء الشمس الساطعة، شعر (بابوم) بقوة الانفجار تتلاعب بجسده كالورقة يمينا ويسارا قبل أن يسقط على ظهره ويتدحرج قليلا للخلف شاعرا بكل عظام جسده تنسحق، ورأى وكأنه يحلم غيوما من تراب تتناثر حول جسده وأغصان أشجار تطير حوله ويصطدم بعضها بجسده لتزيد آلامه، ثم سكن كل شيء فجأة كما بدأ ليجد نفسه ينظر للسماء الزرقاء وقد صارت تتحرك أمامه وكأنها تقترب وتبتعد بانتظام مع آلام رهيبية برأسه وظهره لا يمكن وصفها.. حاول أن يأخذ أنفاسه بصعوبة وسط سعاله الذي قذف بنقاط دم حمراء قانية بين شفثيه سألت على ذقنه.. جاهد بصعوبة لمنع الظلام الذي احتل زرقان السماء ولكن عبثا، وخلال لحظات لم يعد يرى أو يسمع شيئا..

شعر بوعيه يعود مجددا فحاول فتح عينيه ببطء، فتخلل صوتا خشنا سمعه يقول:

- ها هو القاتل الفاشل يستعيد وعيه..

وجاء صوت آخر:

- لولا توصيات الكاهن بالإتيان به حيا لكنت قد مزقت جسده..

فتح (بابوم) عينيه، وجد نفسه يستقر على أرض من رمال صفراء، ممدداً على ظهره وأمامه يقف رجلا حرب من هيئتهما العسكرية، وخلفهما رأى ذلك الكاهن المخيف وقد جلس القرفصاء كعادته خلف الرجلين على الرمال ونسره راقداً على كتفه ينظر هو الآخر له بثبات.. حرك رأسه يمينا ويسارا ناظرا للجدران الشاهقة.. أيقن أنه بقلب المعبد.. وعلم أن ما مرَّ به من آلام ليس سوى البداية لمجموعة من أساليب التعذيب لاستجوابه.. التقط نفسا بصعوبة ألم حلقه وهو يسمع أحد الجنديين يقول له:

- يمكنك أن تخبرنا بسهولة ويُسر من الذي كلفك بقتل كاهننا الأعلى.. ويمكنك أن تظن نفسك بطلا وترفض الاعتراف.. ولكن ستظل النهاية واحدة في كلا الحالتين سنقول لنا الحقيقة عاجلا أم آجلا ولكن بعض الناس يظنون أنهم أقوى مما يظنون!

بصق (بابوم) الدماء التي كانت متجلطة على طرف لسانه وأطلق ضحكة قصيرة حاول جعلها قوية ولكنها خرجت مرتجفة بالرغم منه وهو يقول:

- يا لها من كلمات رنانة.. هكذا أنتم دائما أيها الكهنة ورجال المعبد.. لا تجيدون سوى إتقان الكلام..

اقترب منه أحد الرجلين بوجهه وشده من شعر رأسه بقسوة أحس فيها ببصيلات الشعر وهي تنفلت من مكنها بفروة رأسه مصدرة قرقرة مكتومة، وهو يصيح بانفعال مطلقا زخات من الرذاذ في وجهه:

- ماذا تقول أيها المجنون؟ لقد فشلت محاولة اغتيالكم السانجة.. لم يتوقع من أرسلكما أن سيدي الكاهن يرى ما لم يمكن أن يراه غيره.. لم يتوقع أن يلقي كلاكما حتفه تماما كما سيؤول إليه مصيره هو نفسه..

ردد (بابوم) بغضب:

- (كاليوم) مات؟!!

قذف الرجل رأسه لتصطدم بالرمال بقوة وترتج بعنف وهو يصيح به:

- نعم.. كما سيحدث لك بعد قليل..

نطقت عينا (بابوم) بلمحة رغبة في الانتقام وهو يقول جازاً على أسنانه:

- أنتم من ستلقون حنقكم.. كاهنكم هذا هو من سيصبح جثة هامدة.. اليوم سيموت رجالكم وتُشكل نساؤكم ويترمل أبناؤكم.. جيوشنا على الأبواب بكامل عددها وعتادها وكامل وحشيتها في انتظار

العلامة وانفجار الكرة السحرية.. أعتقد أنه لو حاول كاهنكم السخيف هذا تشغيل سحره سيراهم قادمين أفواجا.. وسيرى نفسه وقد أصبح نسيا منسيا..

نظر الرجلان للكاهن بدهشة وأحدهما يسأله:

- هل هذا صحيح سيدي الكاهن؟

مطّ الكاهن شفثيه وهو يرد:

- هذا مستحيل أن يحدث دون أن أراه..

ردد (بابوم) بسخرية:

- لدينا ساحر أقوى منك أيها الضعيف.. لن تستطيع أن ترى شيئا في وجوده بصفنا..

انتفض الكاهن غاضبا وعينه تكادا تطلقان بالشرر، الآن فقط شعر بالفعل بوجود قوى سحرية على أبواب (أور)، همس للنسر الخاص به ببعض كلمات فطار على الفور، وسارع أحد الرجلين بالعدو خارجا من قلب المعبد صائحا:

- سأنضم للرجال..

واستل الثاني سيفه وهو ينظر ل(بابوم) بغلّ قائلا:

- وأنا سأقتل هذا الحقير..

اعتدل (بابوم) بصعوبة رغما عنه وهو يشد عضلات جسده مستنفرا وهو يقول بتحدّ مخرجا لسانه ممررا إياه على شفثه السفلى بتلذذ يموج بالوحشية التي تسكنه:

- لن أموت اليوم..

طوّح الرجل بسيفه بقوة فتحرك (بابوم) بسرعة ومهارة رغم إصاباته يتفادى ضربات الرجل، اعتدل الكاهن الأعلى من جلسته متجاهلا الصراع الدائر وهو يشبك يديه خلف ظهره منتظرا قائد الجيوش الذي أرسل النسر الخاص به لاستدعائه، وبينما يحاول (بابوم) الوثب يمينا ويسارا والتدحرج أرضا لتفادي ضربات خصمه القوية والتي جرحت منه ذراعيه وفخذه بالفعل، دخل عليهم فجأة قائد الجيوش وقد ارتسم على وجهه تعبير مخيف، شعر الكاهن بالدهشة من سرعة رد فعله التي أتت به للمعبد والتي سبقت سرعة نسر السحري، وكان دخوله عاصفا حقا.. فقد صاح صيحة هادرة وهو يهاجم (بابوم) من ظهره مسددا لمؤخرة رأسه ركلة قاضية جعلته يميل للأمام كالجوال الممتلى ويسقط على وجهه فاقتدا وعيه ومزيد من الدماء الجديدة تسيل من وجهه، وأكمل

اندفاعه ليأخذ السيف من يد الرجل المهاجم قائلاً بغضب وقد أولى الكاهن ظهره وركّز نظره على (بابوم) المتكوم أرضاً:
- ليس هكذا يتعارك الرجال..

نظر له الرجل الذي هاجم (بابوم) باحترام وهو يرخي يديه بجانبه لدى تعرفه لقائد الجيوش، في حين ارتسم تعبير غريب على وجه الكاهن وهو يهمس:
- لا أرى شيئاً.. لم أعد أرى أي شيء..

أدار قائد الجيوش سيفه حول نفسه بسرعة وحنكة قبل أن يدفعه بكل قوته للخلف لينغرس بصدر الكاهن الأعلى في محل القلب، أمسك الكاهن نصل السيف بألم ممتزج بإحساس بالغرابة وهو يشعر بدقات قلبه تتباطأ تدريجياً ووعيه ينسحب منه، ثم مال جسده ليسقط متوسدا الرمال الصفراء، مع تراجع الرجل المهاجم ل(بابوم) بذعر صائحا وهو يرفع يده للأعلى بارتباك:
- ماذا يحدث؟!!

أخرج قائد الجيوش سيفه من صدر الكاهن في نفس اللحظة التي شقّ فيها الأسماع صفيّر النسر المتألم وهو يعود لقلب المعبد لامحا جسد سيده المضرّج بالدماء، ثم طوّح قائد الجيوش بطرف السيف لتقطع عنق الرجل الذي هاجم (بابوم) من الوريد للوريد مطلقة نافورة من الدماء الحارة، وبينما كان الرجل جاحظ العينين -متعجبا أكثر منه متألماً- يسقط محاولاً إيقاف الدماء بيديه، قذف قائد الجيوش بسيفه نحو النسر القادم مستخدماً إياه كرمح مندفع، ففوجئ النسر الغاضب بالسيف يطير بسرعة تماثل سرعة انقضاضه، لم يتوقع مثل هذه المناورة والسرعة، حاول أن يميل بأحد جناحيه ولكن كان نصل السيف أسرع وأقوى منه، فاندفع السيف بدقة ليخترق منتصف صدره ويوقّف اندفاعه القوي للأسفل للحظة توقف فيها جسد النسر مرتدا للخلف من قوة رمية السيف، قبل أن يطلق نواحا مجلجلا وجسده يسقط أرضاً وقد كف جناحاه عن الخفقان وصارا يتشنجان بلا توقف..

تحرك قائد الجيوش ببطء نحو جسد النسر المحتضر، وأمسك مقبض السيف بقوة ثم انتزعه من صدره وهو يقول هازئاً:
- لديك شيء يخصني..

ثم ألقى نظرة لا مبالية على جسدي الكاهن ورجله الملقين جثتين طازجتين وقد اختلطت دماؤهما بالرمال، وتنامى إلى سمعه أصوات خطوات رجال قادمين من الخارج مع أصوات

همهمة وأنفاس متسارعة، فانحنى ليلتقط جسد (بابوم) فاقد الوعي ليرفعه بذراعه بحركة واحدة وهو يقول له مبتسما:
- أحسنت أيها القنّاص..

ثم تفرق جسداهما قبل أن يختفي من المكان تماما مع همسه:
- لنترك المكان الآن قبل أن يأتي قائد الجيوش الحقيقي.. ساعته لم تحن بعد!

14- الكينونة

تراصّ عدد من الجنود وتزاحموا فوق الأسوار الشمالية لمدينة (ماراد) يراقبون خروج (إيرا كال) المشعوذ من البوابة الشمالية، لم يره أغلبهم من قبل ولكن لا يوجد جندي ب(ماراد) و(نيبور) لم يسمع عنه وعن قدراته السحرية التي جعلته سببا هاما لانتصار قرينه المخطط (إيرا) والسيد (نينورتا) على المارد (عسق) وجيوشه من قبل في حرب عنيفة تحدثت عنها الرقم الطينية كثيرا وأسهب في وصفها كملحمة هي الأقوى في التاريخ والتي أثبتت بجدارة القائد (إيرا) لقيادة جيوش السيد (نينورتا) أقوى جيوش نظامية بمملكة (سومر) السماوية كلها..

خرج مرتديا رداءً حربيا كاملا مدججا بالدروع، وبرزت عيناه الحمراتان من داخل الخوذة تطلان من وسط السواد الفارغ الذي من المفترض أن يحتوي على وجهه، فقط عينان بدت كل منهما ككرة مضيئة تهيم وتحوم بالفراغ داخل الخوذة، لم يكن يسير على قدميه بل كان يندفع بليونته كالريح للأمام بدون أن تتحرك ساقيه، وكأنه واقف على بساط مسحور يقوده لوجهته، وكان يعقد ذراعيه على صدره ويباعد ما بين ساقيه بتحفر، شقّ اندفاعه صفوف الجنود الذين كانوا متمركزين على أهبة الاستعداد خارج المدينة أمام الأسوار مباشرة كما تم الاتفاق عليه سلفا، والتوت الأعناق كلها تتابع مسيرته نحو المجهول بانبهار ووجل، إذ لم يكن من الشائع رؤية أحد السحرة رؤية قريبة كهذه فما بالهم برؤية المشعوذ شخصيا..

زادت سرعة تحليق (إيرا كال) للأمام فابتعد بسرعة حتى اختفى تماما عن الأنظار.. هذأ (إيرا كال) من سرعته مجددا بعد ابتعاده مسافة عن أسوار مدينة (ماراد) ثم نظر للمرتفعات الماثلة أمامه عن اليمين واليسار، كانت الجبال والتلال تتراعى للبصر في كل الأرجاء مقلّصة من إمكانية المرور للأمام وحصره في عدد قليل من الطرق الضيقة الملتوية، لم يكن هذا جيدا للاستكشاف بالطبع فبمجرد مروره من خلال إحدى هذه الطرق سيكون مكشوبا لأي مراقب خبير كامن خلف التلال.. نظر (إيرا كال) يمينا حيث الطريق لمدينة (أراك) بالشرق، ثم نظر يسارا حيث الطريق لمدينتي (بابل) و(بورسيبا) غربا.. يمم وجهه شطر الشمال للأمام حيث يبدأ طريق مدينة (كيش) الحربية.. فكّر مليا أي الطرق يجب أن يبدأ بها.. تتشابه كل الطرق في وعورة تضاريسها وسهولة كشف تحركاته، ولكن التحرك نحو الشرق يجبره على مواجهة نهر (دجلة) قبل مروره بمدينة (أراك) بينما التحرك غربا سيجعله يقابل أي من مدينتي (بورسيبا) أو (بابل) قبل أن يرى نهر (الفرات).. أمّا عن التحرك شمالا فسيجعله يقترب من حدود مدينة (كيش) الحربية وهو ما قد يصبح خطيرا في مرحلة ما لأن السيد (زابابا) لا يتهاون في تأمين حدود مدينته مما قد يؤدي لصدام غير مرغوب به مع دفاعات المدينة بقيادة السيد المحارب الرهيب (نينازو) مروض التنين في حال اقترب أكثر من اللازم.. هداه تفكيره للبدء بالاتجاه شرقا حيث

يمكنه تمشيط مساحة واسعة من الأرض بدون أي خوف من الاقتراب من حدود أي مدينة، وستكون حدوده هي ضفة نهر (دجلة) والتي ينتهي عندها مشوار بحثه شرقا ليعود بعدها ليتجه غربا ليكمل مسحه للمنطقة وقد قام بالفعل بتأمين ظهره جهة الشرق أثناء اكتشافه للشمال والغرب..

نظر للشرق.. رفع يديه ببطء مباعدا ما بين أصابعهما متجها نحو التجويف بداخل الخوذة الذي من المفترض أن تتواجد به رأسه.. تحركت الأصابع بداخل الخوذة لتقبض كل يد على كرة حمراء من كرتي العينين ضاغطة إياها برفق.. فاخفت تدريجيا كيانه المادي بردائه الحربي، ولم يتبق سوى كينونته كمشعوذ والتي لم تكن سوى كتلة سوداء بحجم قبضة اليد.. تموجت الكتلة السوداء بمرونة قبل أن تنطلق كالصاروخ شرقا..

لو أمكننا أن نحلّ محلّ كينونته ونرى عبر عينيه ونسمع بأذنيه ونشعر بحواسه، سنستطيع أن نسمع حفيف الرمال الناعمة واصطدامها بأجزاء التلال الصلبة من مسافات عدة فراسخ وكأنها بجانب أذاننا بعدة أمتار فقط.. سنرى كل جبل وكل مرتفع وقد أصبح شفافا بحيث يمكنك أن ترى ما خلفه بسلاسة وكان الرمال استحالت زجاجا شديد الشفافية ونقاء.. قطعت كينونة المشعوذ المسافات بمنتهى السرعة والكفاءة في البحث.. مالت يمينا ويسارا.. ارتقت لما فوق قمم الجبال ثم هبطت لتلامس رمال السهول الواسعة.. اخترقت عواصفا من رمال وبددت سكون الفيافي والقفار.. وجدت عددا من الواحات المتناثرة والتي لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة، كان اثنان منها مأهولا ببضعة أشخاص سماويين بؤساء أشبه بالبدو من البشر، يكتفون بخيامهم كسكن وبنوقهم كوسيلة معيشة وترحال.. تسلل لحاسة سمعه الخارقة صوت خرير ماء نهر (دجلة) فعلم أنه قد أنهى مهمته بهذه المنطقة وجاءت النتيجة سلبية تماما.. فلا يوجد ما يخص المارد (عسق) أو حلفاءه ويهدد سلامة (ماراد) بهذه المنطقة..

أعاد (إيرا كال) الكرّة ولكن في الاتجاه المضاد.. انسلّ بكينونته السوداء الانسيابية ليتحرك غربا.. تسللت لذاكرته أحداث بعينها.. تقارع سيوف وصلصلة التحامات لدروع.. صيحات حماسية تخالطها صيحات زعر وألم.. أطراف تتناثر ورؤوس تتدحرج.. كثيب مهيب من تراب يجعل الرؤية مشوشة.. القائد (إيرا) يخرج من قلب جيوشه ليواجه المتحدي العملاق المارد (عسق).. السيد (نينورتا) يحارب بنفسه ويجندل المئات من جنود جيش (عسق) السماوي مصدرا مئات الصواعق المهلكة.. نزال شديد القوة يجري بين (إيرا) وبين (عسق).. يتميز (إيرا) بسرعه وخفته ودقة ضربا سيفه.. يقابله (عسق) ببطء نسبي ولكن كانت الضربة منه لو اصابت هدفها تكون مؤثرة.. تفادى (إيرا) عدة ضربات بمهارة ونجح في إصابة (عسق) بعدة جروح.. تحملتها بنية (عسق) القوية الضخمة واستكمل النزال بهمة حتى حانت أمامه ثغرة أثناء كّر وفرّ (إيرا) المتواصل.. لطمه بيمناه في جنبه فأطار درعه ثم هوى بقبضته على وجه (إيرا)

فأسقطه أرضا برأس يعاني من ارتجاج لا يرى ولا يسمع.. كان حينها المشعوذ **(إيرا كال)** قد انفصل عن جسد قرينه وانسالت كينونته تواجه ثلاثة من السحرة بجيش **(عسق)** كانوا قد أصابوا جيش **(نينورتا)** بقوة وكادوا يفنوه عن آخره بتعويذات سحرية مهلكة.. واجههم المشعوذ بكينونته ونجح في صدّ جميع تعويذاتهم ونال بالفعل من اثنين منهم وأطاح بهما خارج المعركة.. وصلته استغاثة من قرينه فسارع بترك معركته مع الساحر الأخير وعاجل **(عسق)** بأن انقض عليه وشلّ أطرافه الأربعة تاركا إياه يزمجر بحنق لفترة كانت كافية ل**(إيرا)** ليتعافى من ارتجاج المخ الذي أصابه ويقف على قدميه مبتسما بشراسة وهو يعاود الانقضاض القوي على غريمه الذي أفلته المشعوذ من قبضته مكملا صراعه مع الساحر الأخير الذي كان قد بدأ يعيث الفساد بجيوش **(نينورتا)** بالفعل..

اخترقت كينونة المشعوذ الجبال حتى بدأت تكتشف أجزاءً باتجه الغرب.. تفادت الكينونة الاتجاه نحو الشمال وأكملت مسيرتها باتجاه **(بورسيبا)** و**(بابل)**.. أصبحت الجبال أقل ارتفاعا والتلال أكثر انبساطا.. وقلّ تركيب الصخور في المرتفعات لتصبح رملية أكثر.. يوجد سماويون هنا وهناك على استحياء ولكن جلّهم من البدو الرحّالة.. واجه قافلتين من حمير تحمل محاصيل ومعادن تتجهان من الغرب نحو الشرق.. ألقى نظرة فاحصة على رجال القافلة من تجار وعبيد، شدّ انتباهه حركة تحت الأرض الرملية التي تسير عليها الحمير.. لا بد من تحذيرهم فهم على وشك اجتياز منطقة رمال متحركة فيما يبدو.. أبطأت الكينونة من سرعة سيرها ليتجسد في شكله البشري المسربل بالرداء الحربي حتى يستطيع التحدث إليهم وتحذيرهم مما هو قادم.. كان هذا عندما انشقت الأرض تحته بالفعل وبرزت أطراف لعدة ذيول سوداء اللون كانت موجهة للسماء بصقّت بسائل أسود كالفقار اتجه نحو جسد **(إيرا كال)** كزخات من مطر منافٍ للطبيعة في الاتجاه من أسفل لأعلى.. تفاجأ **(إيرا كال)** بعد أن استوعب الكمين الذي كان قد وقع فيه بالفعل.. فمن يبحث هو عنه كان ينتظره هنا تحت الأرض متخفيا أسفل قافلة عملت كطعم لاجتذابه للتوقف والتخلي عن كينونته..

أصابته قطع السائل الأسود ذراعي **(إيرا كال)** وكبّلتها.. حاول المشعوذ التحوّل لكينونته ولكنه لم يستطع ثني ذراعيه والوصول بيديه لكرتي العينين للقيام بالتحوّل.. خصمه يعلم جيدا نقاط قوته ويهاجمها.. برزت أجساد ورؤوس الذيول التي أفرزت السائل الأسود السحري ليستقر فوق الرمال بضعة من عقارب سوداء ضخمة.. زمجر **(إيرا كال)** غاضبا وهو يحاول عبثا التصرف لإتمام التحوّل لكينونته.. الآن هو بدون أية قدرات سحرية مجرد جسد مادي فيزيائي طبيعي ويمكن بسهولة القضاء عليه بواسطة أي سماوي عادي وليس بالضرورة أحد الأسياد.. يا لها من خطة غاية في البساطة ولكنها فعّالة لدرجة مميتة..

ارتجت الأرض أسفله ثم رأى طبقة الرمال الصفراء تنهار وتتساقط مسفرةً عن قلعة ضخمة حجرية تواجدت بالكامل تحت سطح الأرض وكانت قمم أبراجها تصل لمستوى ما تحت الأرض بقليل.. امتلأت الأبراج بمئات من السماويين المسلحين، في حين انفصلت عن القلعة نفسها صخرتان صغيرتي الحجم دائرتي الشكل، استقر على سطح كل منهما أحد الأسياد السماوية.. **(عسق) المارد و(إيشارا) سيدة العقارب.. وكان (عسق) يقهقه بشدة وهو يقول شامتا:**

- لم أكن أعتقدك ساحرا ضعيفا هكذا.. هل لابد لك من التحول لهيئتك السحرية لتبرز قواك السحرية.. قديم الطراز جدا أيها المشعوذ!

تجاهله **(إيرا كال)** تماما وهو يركّز كل نظره على السيدة **(إيشارا)** والتي كانت مكفنه تماما بالأقمشة البيضاء ولم يبرز من جسدها سوى أطراف يديها الطويلتين.. وكان يغمغم بغضب:

- سيدة الصحاري.. هذا يفسر وجود العقارب..

لا يمكن وصف ما سرى بجسد **(إيرا كال)** من سخط وإحساس غير متنامي بالهزيمة.. هذا هو المكان السري الذي كان **(عسق)** يختبئ فيه.. مدينة كاملة بقلعة مدججة بالجنود تحت الرمال.. وهذه هي حليفة **(عسق)** والتي استطاعت خداعه وجعله يقترب من القافلة بحسن نيّة بهيئته غير المؤثرة سحريا.. هي تعلم جيدا نقاط ضعفه ونقاط قوته كما يعلم هو نقاطها القوية والضعيفة، ولكن تميزت هي عنه بعنصر المفاجأة والذي جعله لها أسيرا.. لم يكن قلقا من الموت.. إنه قلق من ما هو أكثر وأشد من الموت خطرا على نتيجة هذه الحرب..

ارتقت الصخرتان الحاملتان ل**(إيشارا)** و**(عسق)**، اقتربت **(إيشارا)** أكثر من **(إيرا كال)** حتى كاد جسدها المغطى بالأقمشة البيضاء يلمس جسده، وهو يسمع صوتها المكتوم يأتي إليه متحديا:

- كنت أحتاج كينونتك بشدة أيها المشعوذ.. ستجعلني لا أقهر..



إشارا

لم يردّ (إيرا كال) وهو يدري حقّ اليقين أن الأخطر آتٍ.. ذلك المارد أحرق وقد استغلته سيدة العقارب والصحاري فقط لعلمها بأن صراعه مع (نينورتا) و(إيرا) سيأتي به هو -المشعوذ- شخصيا لقلب المعركة وهو ما كانت تنتظره بشدة منذ دهور.. عالم السحرة بين الأسياد يعلم كل فرد منهم كل الأفراد الآخرين جيدا بإمكاناته مواضع قوته وضعفه.. وإعجاب (إيشارا) بكينونة المشعوذ ورغبتها في الاستيلاء عليها لا تخفى على أحد، وقد جاءت الفرصة الآن على طبق من ذهب حقا.. هناك قوة تحكّمها في قطيع من العقارب العملاقة الوحشية، الذين كما يفيدونها كجنود متمرسين وقت الحرب يعملون كعمّال ومهندسين ومعماريين وقت السّلم لبناء أسراب من المدن تحت الصحراء لا يعلم أحدٌ كم عددها ولا أين تتواجد كلها.. الآن ترفع (إيشارا) ذراعيها لينحسر جزء من القماش الأبيض عن ذراعين بلون الثلج، امتدت أصابع اليدين ذوات الأظفار السوداء الطويلة داخل خوذة رأس (إيرا كال) لتقبض بقوة على كرتي العينين.. أطلق المشعوذ صرخة غضب عاتية وهي تعصر الكرّتين.. تذبذبت الأقمشة البيضاء المدثرة لجسدها لوهلة قبل أن تختفي تماما مع جسدها ويتبقى فقط كتلة تدور حول نفسها من دخان أبيض أشبه بسحابة صغيرة، إنها كينونتها الجديدة التي ظلت تدور للحظات قبل أن تختفي ليعود الجسد المكفن بالبياض مع صوت (إيشارا) القوي بالمكان الذي امتزج بضحكات (عسق) الظاهرة:

- أمتلك كينونتاك الآن.. لا.. أمتلك كينونتي وليست كينونتاك.. أنت لم تعد سوى كيان سماوي كعامة الناس بدون أية قدرات سحرية.. أما أنا فلقد أضفت الآن فقط لقبًا جديدًا لي يظهر إمكاناتي السحرية الجديدة.. لقد أصبح بإمكانني التنقل بين الأماكن بسهولة ورؤية ما يبعد عشرات الفراسخ وأنا بموضعي.. أصبحت الآن سيدة الصحاري وسيدة العقارب و.. والمشعوذة!

صمت (إيرا كال) مقهورا وقد توقف عقله عن التفكير تماما، ولم يلتفت حتى للمارد (عسق) وهو يسأل (إيشارا) بتثفّ:

- هل لي أن أقتله الآن؟

ردت عليه بصرامة:

- لا قتل.. اتركه يعود لقرينه ولسيده (نينورتا) ليعلما ما سيواجهانه.. ولا تخف شيئا فلا يوجد لي نذّ الآن بالمملكة السماوية كلها.. ما سيقصّه عليهما سيفيدنا أكثر من ألف جندي في التأثير سلبا على معنوياتهما ومعنويات جنودهما..

سألها بقلق:

- وماذا لو أفصح لهم عن مكان تمرکزنا بهذه المدينة تحت الرمال؟

أجابته باستعلاء:

- دعه يقص لهم ما رآه.. يقص لهم عن مدينة العقارب والتي بها جيوشنا وقلعتنا الحصينة والتي تقع بشكل استثنائي تحت الرمال.. ولكن هل سيستطيع وصف مكانها بالفعل وسط الكثبان الرملية المتطابقة؟ ألا تعلم بأنه أثناء استكشافه شرقاً قد مرّ بالفعل على ثلاثة من مدني السفلية دون أن يدري أو تشعر بها كينونته؟! لا تقلق أيها المارد ولا تحمل همّ شيئاً ودع التخطيط لي ولا تفكر سوى بنزالك القادم ضد (إيرا) والذي لا بد وأن ينتهي نهاية مخالفة للنهاية السابقة..

لم يرق الأمر ل(عسق) ولكنه اضطر لإبداء الاستحسان وهو يزمجر قائلاً:

- هذا جيد.. فالحرب قادمة على كل حال وسيموت قرينه بحدّ سيفي..

ثم صاح ب(إيرا كال):

- انصرف الآن قبل أن يغير أحدنا رأيه..

وأضافت (إيشارا) وقد صارت تقهقه:

- سيراً على قدميك مسافة الصحراء كلها حتى مدينة (ماراد) أيها المشعوذ السابق.. ولتكن أمنيتك أن تصل سليماً!

15-سيد الأشكال

(أور) السماوية..

تجمع كل أهل (أور) حول المعبد الرئيسي.. مزيج الهمهمات والهمسات اختفى وسط الصباح والجلبة الناجمة عن حركات خطوات لا تتوقف.. خطوات العامة الذين جذب بعضهم صوت انفجار كرة (كالييوم) السحرية، وجذب البعض الآخر أضواء الانفجار وسيل الأتربة الذي ملأ المنطقة التي تواجه مدخل المعبد.. توقفت الأبصار عند ذلك الصف من الجنود الذي منعهم من الاقتراب ملوحين لهم بالدروع أن يبتعدوا من المكان، ولكن لم يزداهم هذا إلا إصراراً على التجمهر.. تناقلت الألسن خبر معركة ضارية بداخل قلب المعبد.. قال قائل بأن الكاهن الأكبر مصاب.. أضاف ثانٍ همساً بما هو أشد وأكثر خطورة.. تحدثت امرأة عن رؤيتها للنسر حامي الكاهن وهو يسقط ميتاً بداخل قلب المعبد.. رأى أحد التجار اثنين من رجال الكاهن يجران شخصاً -على الأرجح جاسوساً- من قدميه ويحبسانه بداخل المعبد بعد أن أصابه الكاهن الأكبر بسحره.. تضاربت الأقوال ولكن اتفقت كلها على أن هناك ثمة شيئاً يحدث بالداخل، وتصميم الجنود على منعهم من الوقوف أمام مدخل المعبد يؤيد هذا الخبر بشدة..

كان تصميم مدينة (أور) السماوية يختلف عن تصميم مثيلاتها البشرية في وجود معبد السيد (سين) الأسطواني خلف المعبد مباشرةً وفوق تلة متوسطة الارتفاع من التراب المتحجر.. مجرد معلم يقصّ فترة ما قبل حكم الكاهن الأكبر عندما كان السيد (سين) هو حاكم هذه المدينة قبل أن يخرج عليه أهلها متظاهرين راغبين في أن يحكمهم الكاهن الأعلى بعد أن ساءت الأمور الاقتصادية بالبلدة رغم مواردها الوفيرة.. وبفضل شعبية الكاهن الأكبر ووعوده للشعب بوضع خطط واضحة وشفافة للاستفادة من إمكانات البلدة.. وكذلك وقوف السيد (أداد) لجانب الكاهن الأكبر وتلويحه بالتدخل في حالة إبداء (سين) الرفض بالقوة.. اضطر (سين) للانسحاب بصمت متوعداً الكاهن الأكبر بالانتقام منه يوماً ما..

بداخل قلب المعبد كان قائد جيوش (أور) يتميز من الغيظ.. ينظر بعدم تصديق لجثتي الكاهن الأكبر ونسره الطازجتين ويقلب كفا على كفا، لسان حاله يقول ما الذي حدث هنا في قلب المعبد؟ كيف تمكن شخص ما من تجاوز الكاهن الأكبر بسحره ثم القيام باغتياله وكذلك التخلص من نسره الحامي؟ ثم كيف تمكن من الفرار مختفياً بهذه السهولة والسرعة أيضاً؟ والسؤال الأهم ما الذي ينبغي عليه أن يفعله الآن؟ الشعب على أبواب المعبد ولن يهدئهم إلا رؤيتهم لكاهنهم الأكبر في أتم صحة يطمئنهم بكلماته ويعيدهم لمنازلهم وحياتهم السابقة.. أما الآن فما عساه أن يفعل في هذه الورطة؟ لن يقتنع أحد بكلماته وسيفهمون من خروجه لهم بمفرده أن مكروها ما قد ألمّ بالكاهن الأكبر.. وهو ما يعني للجميع سقوط دولة (أور)..

وبينما هو يذرع قلب المعبد ذهابا وجيئة ودماغه يكاد ينفجر من التفكير، شعر وكأن أصوات الناس تخفت ببطء حتى كادت أن تنعدم، ومعها دخل عليه أحد جنوده يقول له بانفعال موجز:

- لقد عاد السيد (سين)!

ردد قائد الجيوش بذهول:

- السيد (سين)؟؟

ثم ضغط بأسنانه العليا على شفته السفلى حتى أدماها من الانفعال قائلاً بسخط لا متناهي:

- ومن غيره يخطط لاغتيال كاهننا الأكبر ولكن.. كيف؟!

ثم سارع بالخروج من قلب المعبد ثم المعبد نفسه بخطوات أقرب للعدو، وخلفه أعاد جنوده تجميع أنفسهم في صفوف طولية وتحركوا حوله صانعين دائرة كبيرة لحمايته، استهدف القائد تلك التلة التي يتواجد فوقها معبد (سين) وهو يغمغم بسخط:

- استمرار وجود هذا المعبد كان خطأ فادحاً..

لاحظ وجود أغلب السكان تحت التلة بالفعل، وألقى نظرة ساخطة على النور الساطع الذي كان يشع من الكرة المتربعة فوق قمة المعبد الأسطواني ممثلة قرص القمر علامة السيد (سين) والذي لم يضيء من سنوات عديدة كان حينها (سين) سيداً لأهل (أور).. وهو ما يبدو أنه يحدث مجدداً..

دفع الجنود العامة بغلظة ليفسحوا ممراً آمناً يسير خلاله قائد الجيوش، ولكن لم يكن أي من المتواجدين يولي الجنود أي اهتمام، فقد تركزت كل العيون وشخصت الأبصار نحو ذلك العجوز العملاق ذو اللحية الطويلة والذي كان يهبط بتؤدة من السماء، وتوقف قليلاً أمام قرص القمر المضيء ليخفي نوره للحظات، وكأنه كسوفاً كلياً للقمر، ثم أكمل جسده هبوطه الدرامي حتى استوى فوق التلة أمام باب المعبد.. ينظر للناس بعيون بيضاء تشع نورا نافس نور القمر ذاته..

تقدم القائد الجمع من العامة والجنود، ونظر للعجوز ذي العينين المضيئتين ملياً قبل أن يهمس ببعث لا متناه:

- السيد (سين)!

رفع (سين) يديه وهو يطير هابطاً التلة قاصداً التوجه نحو قائد الجيوش مباشرة، ارتجف الجنود مع مرآهم ل(سين) يقترب، لم يتركوا أماكنهم ولم ينفذوا من حول قائدهم ولكنهم كانوا يعرفون حق المعرفة أنه من العبث الهجوم على أحد الأسياد..

توقف (سين) على مسافة من قائد الجيوش الذي لم يبالِ به وصاح بقوة:

- لن تعود ثانيةً لحكم مدينة (أور).. معبد الكاهن سيظل هو مقر الحكم حتى لو فقد كاهنه الأكبر!

ابتسم له (سين) هذه المرة وهو يقول بصوت رخيم سمعه الجميع وكأنه قام بمضاعفة حدة صوته:

- أنت تعلن للجميع إذا أنكم قد فقدتم كاهنكم الأعلى!



سین

أغلق القائد فمه غاضبا وقد ارتج عليه، كلامه لم يكن موقفا سواء في المضمون أو التوقيت..
تصاعدت أصوات الاعتراض والدهشة من أفواه العامة.. لقد مات الكاهن الأكبر!

أكمل (سين) منتشيا بما يقوله:

- مات الكاهن وكنت تود إخفاء الأمر عن الشعب.. كنت تود إدارة (أور) بنفسك والاستئثار
بخيراتها لك ولجيشك..

سارع القائد بنفي التهمة مع تلك النظرات المعادية التي لمحها في بعض العيون:

- أنت تكذب فقط لتأليب الشعب.. لا يمكنك أن تحكم (أور) بحبك كذبة ساذجة كهذه.. لا بد أن
يحكم مدينتنا كاهن.. نحن مدينة دينية كمدينة (أور) البشرية ولا ينبغي الإخلال بتوازن ما بين
العالمين..

قال (سين) ببساطة مشيرا خلفه:

- لدينا كاهن بالفعل.. كاهن مدينة (أور) ما زال حيا معافى وجاء الآن ليعلن للناس عن تفاصيل
المؤامرة التي كنت تحيكها ضده لاغتياله وحكم (أور)..

ثار الجمع مع رؤيتهم للكائن الذي ظهر من خلف (سين).. رآه قائد الجيوش على حقيقته بجسد
صغير في حجم أجساد العامة كان مختفيا منذ البداية خلف جسد (سين) العملاق.. نظر له القائد
بدهشة متأملا ملامحه المنقّرة.. لو كان بشرا لوصفه كالقرد ولكنهم لم يروا القرد في عالمهم
السماوي.. وجه أحمر اللون ضخم مقارنةً بالجسد، عيان تحتلان نصف الوجه وفم عريض
ضخم الشفتين، أذنان طويلتان منتصبتان للأعلى، صدر وأطراف مشعرة بجسد أحمر اللون..
وكان ينظر نحو قائد الجيوش ويبتسم باستهزاء..

ولكن ما رآه العامة كان مختلفا تماما، لم يروه قردا أحمر اللون وإنما رأوه كاهنهم الأكبر سليما
معافى ينظر لهم بابتسامة عريضة، فانطلقت صيحات التهليل وصرخات الفرحة ليضج المكان
بضوضاء كلها سعادة.. دمعت

سيد الأشكال (ميرميكال)



العيون ورقصت الخصور وارتفعت الأيدي بحبور.. فرد عليهم الكاهن قائلاً بصوت مرتفع قوي وهو يشير لهم بيديه:

- يا أهل (أور).. لقد توصلت لاتفاقية مع السيد (سين) يتم من خلالها حكم مدينتنا العظيمة بواسطته من خلالي.. سيزيد الخير ويعمّ الرخاء.. لا بد وأن يكون ل(أور) سيد من أسياد السماء.. ثم نظر لقائد الجيوش باحتقار مضيفاً:

- ولا بد من نبذ كل غادر قاتل طماع!

انقلبت الهتافات كلها ضد قائد الجيوش.. حتى جنوده ابتعدوا عنه كما لو كان مجذوماً واتخذوا صف العامة.. كاد القائد يجن وهو يرى القرد الأحمر يضحك بسخرية وهو يشير له باستفزاز.. ألقى نظرة غاضبة على الحشد ثم أعاد النظر للقرد.. ألا ترونه؟ ماذا دهاكم أيها الناس؟ أي سحر أصابكم به وجعلكم ترون حيوانه الكريه وكأنه كاهنكم الأثير؟ يا لها من مؤامرة خبيثة تمكن بها (سين) من إعادة احتلال (أور) والتخلص من كاهنها الأكبر في ضربة واحدة.. ولكن كيف؟ لا زال لا يفهم كيف فعلها السيد الخبيث..

اقترب منه القرد الأحمر ببطء وكلمات (سين) تدوي في الأرجاء:

- وبالرغم من كل هذا فقد سامحك الكاهن الأكبر.. لن يتم حبسك.. فقدت فقط منصبك كقائد لجيوش (أور) ولكنك ستظل حياً معافى.. أيّ تسامح تملك أيها الكاهن العظيم؟!

رأى الجميع كاهنهم الأكبر يقترب من قائد الجيوش فارداً ذراعيه بترحاب.. فقد القائد صوابه وحسن تقديره للأمور وسارع بإخراج سيفه من غمده وأثاب نحو الكاهن كما يراه كقرد أحمر مستفز.. تعالت شهقات الناس من صدمة ما يرونه بأعينهم والذي ترجمته عقولهم بأن القائد الخائن يرفض أن يرضى بتجريده من منصبه - رغم كون الكاهن الأكبر كريماً معه - ويريد أن يتم ما لم ينجح في فعله ويقتل الكاهن بيده.. تراجع كاهن (سين).. صاح قائد الجيوش وهو ينوي قتله.. انطلقت الصيحات من الحلق.. اقتلوا الخائن.. انقذوا الكاهن الأكبر.. ارتسمت ابتسامة طفيفة على وجه (سين) وهو يشير نحو قائد الجيوش مغمغماً:

- لكم ما أردتم شعب (أور) العظيم..

تجسد بين أصابع يديه قمر فضي صغير، ظل يدور حول محوره للحظات قبل أن تنبعث منه طاقة هائلة من نور مصدره فحيحاً مرعباً استهدفت جسد قائد الجيوش.. أصابت الأشعة البيضاء شديدة السطوع صدر القائد وألقته للخلف ليسقط على ظهره، وشرارات من لهب تندلع من صدره تحت الدروع التي كانت تسيل وقد أذابتها قوة الطاقة المحرقة، مختلطة بخيوط من دماء اندفعت من تحت لباسه الحربي وغطت قدميه وصارت تقطر على الرمال.. واستلقى شاخصاً ببصره للسماء يُخرج آخر أنفاسه المذهولة للعالم التي كان يغادرها الآن.. بينما كان عقله ما زال يعمل

وبكل طاقته.. فقد تحوّل عقله لجهاز استقبال لأفكار ورؤى قام ببنها كاهن (سين) الساحر وهو يتمتم ساخرا:

- استمتع بالحقيقة في آخر لحظات حياتك!

رأى القائد وهو يحتضر رؤية للسيد (شمش) -سيد (لارسا)- وهو يقف وجها لوجه أمام السيد (سين).. في حين كان الساحر القرد يقف بجوار (شمش) يقول ل(سين) بثقة:

- لن نفقد جنديا واحدا.. ربما سنفقد واحدا أو اثنين على الأكثر في الواقع ولكننا سنمتلك خيرات مدينة (أور) بدون أن يتحرك جيشك قيد أنملة.. سنرسل اثنين من قناصي (لارسا) ليغتالوا الكاهن الأكبر.. سيعلم بالطبع فهو ساحر أريب.. وعندما يتم احتجازهما للاستجواب حينها تبدأ الخطة الرئيسية والتي تعتمد على قدرتي كساحر متشكّل، بل في حقيقة الأمر وبمنتهى التواضع فأنا سيد الأشكال كلها والقادر على التشكل في أي هيئة لأي شخص بكل ذكرياته.. أنا -السيد (ميرميكال)- سأبدأ عملي.. سنجعل القناصين الاثنين يؤمنان حقا بأن جيوش (لارسا) على الأبواب.. نريد هذه الرسالة أن تصل لكاهنهم الأكبر حريبا.. ستصله بمجرد تهديده لأي من الأسيرين.. في نفس اللحظة سأقوم بالتأثير على قدرات الكاهن الأكبر للحظات بحيث يعجز عن استطلاع وجود الجيوش من عدم وجوده.. سيضطرب فهو لا يتوقع مواجهة ساحر بقدرات مثل قدراتي.. سيضطرب للاتصال بقائد جيوشه كأول ما يتبادر لذهنه في حالة احتشاد جيوش (لارسا) على الأبواب.. سيقوم بإرسال نسر الحامي لاستدعائه.. هنا سأدخل في شكل قائد جيوشهم وأقوم باغتيال الكاهن الأكبر مستغلا توقع الكاهن لقدمه، فضلا عن اضطراب الكاهن وفقدانه لجزء من قدراته.. سأقوم بمهمة الاغتيال بسهولة فأنا محارب لا يشق لي غبار ولست مجرد ساحر متشكّل، ثم أسارع بالاختفاء تاركا التهمة تلتصق بقائد الجيوش كقاتل للكاهن الأكبر.. بعدها أظهر في هيئة الكاهن الأكبر معلنا تفاهمه مع السيد (سين) لحكم (أور).. وما سيحدث بعدها من جنون لقائد الجيوش سينكفل بقلب قلوب العامة ومشاعرهم ضده بحيث سيتقبلون التخلص منه كما تقبلوا عودة السيد (سين) بسهولة..

فقد قائد الجيوش وعيه واتصاله بعالم الأحياء لتكون هذه الرؤية هي آخر ما رآه في حياته قبل أن يموت في كمد..

تصايح الجمع.. تراجع الساحر القرد المتشكّل ليقف بجانب سيده الجديد ككاهنه وكاهن (أور) شكلاً.. كان الكل يهتف باسم السيد (سين) الآن إلى جانب هتافات باسم الكاهن الأكبر.. ابتسم لهم (سين) ابتسامة عريضة وهو يهمس في أذن سيد الأشكال السيد (ميرميكال):

- هنيئا لك سيد الأشكال منصب الكاهن الكبير..

رد عليه سيد الأشكال وهو يشير للرجال:
- هنيئاً لنا (أور)..

رَبَّتْ (سين) على ظهره بخفة قائلاً:

- لا تنسَ استبدال كل رجال الكاهن الغابر وقائد الجيوش الأقربين ممن ولاءهم لمدينتهم قد يعيقنا في خطتنا المستقبلية لاقتسام الخيرات بين (أور) وبين (لارسا)..

هزَّ سيد الأشكال رأسه بتفهم وهو يتحرك هابطاً التلة وقد بدأ حشد من رجال الكاهن السابق يركضون نحوه ليصطحبوه للمعبد الرئيسي، قائلاً:

- لا تقلق سيد (سين).. لقد صارت (أور) مدينة السيد (سين).. وكما في السماء سيكون في الأرض أيضاً..

16-النمرود

(بابل) البشرية.. هيكل الإله (مردوخ)..

وقف المنجّم يلهث قبالة مدخل الهيكل يحدق بمهابة للمبنى الذي كان أشبه بقصر، مبنيّ فوق ربوة عالية يكاد ارتفاعها يتجاوز الخمسين متراً، للمدخل طريق ممهد من الأرض تشغله درجات سلم من الآجر تصعد بزاوية حادة تنهك صاعدها.. فوق الهيكل تراصت سبع طوابق لزقورة هي الأضخم على الإطلاق بكل بلاد (بابل)، زقورة تم بناء طوابقها من الآجر ولكن تميزت درجات سلالمها اللولبية بكونها من الأحجار والتي كان وجودها نادراً ب(بابل) ككل.. وكذلك كان الهيكل أسفل الزقورة مبني بالكامل من الحجارة النادرة، مثله كغرفة المعبد البديعة فوق قمة الزقورة بالطابق السابع، كان الهيكل يمثل قاعدة الزقورة وقمة الربوة الترابية، جدرانه تلمع بما تزينت به من قرميد أزرق بديع يعكس أشعة الشمس ويقلل من حدة لهيبها أيضاً على من بداخله، تناثرت حول الهيكل العمدان الضخمة النحاسية التي كانت مُطعمّة بمواد ملونة أشبه بالأحجار الكريمة، تألقت الأفاريز المزينة لقمم العمدان بأحجار فسيفساء زرقاء، بينما من الداخل كانت الجدران مكسوة بألواح من الأخشاب النادرة كالأرز والسرو، وكانت مطعمة بالرخام والمرمر والعقيق الظفري واليماني والذهب.. تزيّن مدخل المعبد وجهاته الأربعة بتماثيل عديدة للإله مردوخ وبعض التماثيل لثيران نحاسية ورؤوس بقر من فضة.. وكان هناك كثير من الذهب الذي يطلي الأروقة والأسقف بالداخل بإسراف..

تنهد المنجّم قبل أن يدلف للهيكل متجاوزاً المدخل المزدان بالتماثيل والعمدان.. كان الهيكل يضج بالحياة من الداخل.. انعطف المنجّم بادئ ذي بدء يمينا ليلج غرفة واسعة تناثرت فيها أجولة لأطعمة طازجة وفواكه يانعة متعددة الأصناف وقطع من لحوم بقر مقطعة بعناية ومغطاة وأكوام من أصواف وأواني فخارية.. كانت هذه الغرفة هي بمثابة مخزن لما يتم توريده للهيكل باستمرار كعطايا وهبات وكذلك ضرائب من الشعب للإله (مردوخ) وممثليه من كهنة.. اعتدل اثنان من العبيد كانا يقومان برص بعض من أجولة التمر والتين التي وردت حديثاً للغرفة لما رأوا المنجّم ثم انتفضا وانحنيا في رهبة تاركين ما بأيديهم من عمل، فأشار لهم المنجّم بصمت ليستأنفا عملهما وهو يقرأ كلمات منقوشة على الجدار تقول: (إن الضأن فداء للحم الأدميين.. افتد حياتك أيها

الإنسان..).. وابتسم عندما تذكر ما يعلمه للناس في الدروس الدينية بأن الآلهة كانت في بادئ الأمر تفضل لحم الأدميين، فلما ارتقت أخلاق الناس لم تجد الآلهة بدا من الاقتناع بلحم الحيوان.. مما شجع الناس على الالتزام بالأخلاق الحميدة وعدم الغوص في طريق الشر وإلا قد تغير الآلهة من رأيها في طعامها الأول الأثير لديها!

غادر الغرفة ومر من خلال رواق واسع مضاء بمشاعل طينية بالأرض والسقف فأحالت ظلمته نهارا، ثم انعطف يمينا ليدخل غرفة ثانية أكثر اتساعا من الأولى منقوش على بابها الخشبي المفتوح (مدرسة الخط والحساب الابتدائية)، ألقى نظرة خاطفة فرأى المعلم جالسا وأمامه عدة صفوف من الأطفال كلُّ ممسكا رقيمه بيده يخط بقلمه رموزه المسمارية، بينما تميز صف أخير بأن أطفاله كانوا ممسكين بأوراق من البردي ويرسمون عليها بريشة مغمورة بالمداد، كانت المدرسة متقدمة بما يكفي لتقوم بتدريس نوعي الكتابة المعروفين وقتها بالعالم القديم، فهز المنجم رأسه استحسانا وكلمات المعلم تنتهي إلى أذنيه وهو يقول: (إن الإنسان في أول خلقه لم يكن يعرف شيئا عن خبز يؤكل أو ثياب تلبس.. فكان الناس يمشون منكبين على وجوههم.. يقتلعون الأعشاب بأفواههم ليقفوا بها كما تقف الأغانم.. ويشربون الماء من حفر بالأرض..) لمح المعلم فهز رأسه محييا بصمت فأشار له المنجم مبتسما.. كانت المدارس الملحقة بالهيكل يعلم فيها الكهنة والمعلمون الخط والحساب ويغرسون في نفوسهم مبادئ الوطنية والصلاح، وكذلك يعدون بعضهم للمهنة العليا مهنة الكتابة.. ولكن كانوا يعلمون أيضا العلوم ويلقنون الأساطير، اتخذ الكهنة من الأساطير سبيلا لتعليم الناس ما يريدونه هم وحكامهم ليتمكنوا من السيطرة عليهم باسم الدين والذي كان الناس يقصدونه بشدة وعلى استعداد تام لأن يهبوا حياتهم للآلهة، بالإضافة لما يهبونه للهيكل من قرابين من مال وطعام وحتى عبيد وزوجات.. فأثرى الكهنة من هذه القرابين وعلا شأنهم حتى أصبحوا أكثر الطبقات مالا وأعظمها قوة بكل بلاد (بابل).. لدرجة أن منهم من كان يتصرف في معظم شؤون الحكم.. ربما ثار عدد من الأحرار في أوقات نادرة ضد ابتزازهم ولكن كانت تقاليد العوام الدينية قد شاخت عبر الأجيال، وتأصلت فيها الأساليب القديمة المتلونة بصبغة الدين المسيطر بواسطة الكهنة الذين كانوا يعاملوا بالتبجيل والتقديس.. فالناس لا يترددون في دفع أغلى الأثمان لكي يعودوا لما خطته لهم

أساطيرهم وورثتها لهم أجدادهم عبر العصور.. فصارت تراثا محفوظا بالعقول لا يقبلون مسّه ولا يجرؤون على تغييره..

نفض المنجم عنه أفكاره وهو يغادر غرفة المدرسة ويعبر صالة فسيحة تم حفر بئر عميق بمنتصفها، كانت الماء تتفجر من أسفله بواسطة مضخات ضخمة لتندفق لأعلى عبر مواسير حجرية كبيرة تنتهي بالطابق السابع الأعلى من الزقورة حيث تتجمع في خزان معدني مستطيل، ثم تخرج منه المياه المخزنة لتبدأ بري الماء لغرفة معبد الإله (مردوخ) بقمة الزقورة ثم تنحدر لتندفع للأسفل بقوة الجاذبية لتعطي كل طابق قسطا من الماء..

تخطاه المنجم لينعطف يسارا فيرى غرفة امتلأت بجوارٍ حسان عرايا كان يقف أمامهم أحد الكهنة يتفحصهم واحدة تلو الأخرى بعيون فارغة من الشهوة، يضرب بعينه في كل جزء من جسدها ويقلبها يمينا ويسارا بيديه كما لو كانت حيوانا أليفا قبل أن يحدد هل تصلح لخدمة الكهنة أم سيتم طردها خارج الهيكل.. وربما فازت أكثرهن جمالا وفتنة بالإقامة لمدة أيام بالغرفة العليا بالقمة حيث يتم خدمة الإله (مردوخ) شخصيا.. وهو شرف لا يعطوه شرف.. لم تكن أي فتاة ترى شيئا من العار في خدمة الهيكل بهذا النحو، بل كان أبوها يفخر بأن يهب جمالها ومفاتها لتخفيف ما يعترى حياة الكاهن المقدسة من ملل.. وكان يحتفل بإدخال ابنته في هذه الخدمة المقدسة ويقرب القرابين في احتفال تنهشه فيها أعين الحاسدين!

أوقف الكاهن عمله وقام بتحية المنجم مبتسما، فاتجه المنجم نحوه فلفتت نظره فتاة ذات جمال يكاد يضيء الغرفة، وجسد كاد يخرج عن اتزانها، فتوقف لوهلة وقد اضطربت أنفاسه قبل أن يقول للكاهن:

- يبدو أنك وجدت مرشحة لخدمة الإله بالقمة..

أوما الكاهن برأسه إيجابا ولم يرد وهو يشير نحوها قائلا:

- بكر لا تشوبها شائبة.. إنه يوم مجيد حقا..

أخرج المنجم أغراضا من جيبه ووضعها أمام الكاهن على رف حجري خلفه، فنظر الكاهن للأغراض بتعجب فسارع المنجم بالقول موضحا:

- أغراض تخلت عنها الملكة فرأيت أنها قد تفيد مرشحتنا الفائزة هذه..

ثم بدأ يشير بأصابعه لكل غرض على حدة:

- هذه مدهنة صغيرة من دهن أزرق مشرب بالخضرة.. هذه دبابيس من ذهب يمكنك رؤية اللازورد على رؤوسها.. هذه مثبنة عليها قشرة من الذهب المخرم ومعها ملعقتها الصغيرة لأخذ الصبغة الحمراء المدهنة.. أما هذه العصا المعدنية فيستعان بها على ملوسة الجلد.. وهذا الملقط يستعمل لتزجيج الحاجبين أو لنزع ما ليس مرغوبا من شعر الجسد.. وهاك بعض الخواتم المصنوعة من أسلاك الذهب ومنها المطعم بفصوص اللازورد.. وهذا عقد من الذهب المنقوش واللازورد..

هز الكاهن رأسه مستحسنا وألقى نظرة خاطفة على حسناء المعبد المختارة قبل أن يقول:

- تستحق هذه الجارية أغراضا ملكية كهذه لتظهر جمالها..

ربت المنجم على كتفه قبل أن يشير له قائلاً:

- استمر في العمل الجيد..

ثم غادر الغرفة وهو يمّني نفسه بليلة مع هذه الحسناء البضة بالفراش البارد الراقد خلف تمثال الإله (مردوخ) بغرفة معبده فوق قمة الزقورة.. هو المنجم أعلى الكهنة رتبةً بالهيكل ويعلم أنه سينال هذه المتعة، ولعدة أيام.. ممثل الإله (مردوخ) بالأرض وله كل ما للإله من حقوق.. انعطف سيره ليدور حول نافورة ضخمة من رخام كانت تضخ الماء ضخا وتنتثره على شكل دائرة كاملة حولها، بعدها وجد جميع الكهنة وقد كانوا متجمعين بداخل غرفة الكهنة بقلب الهيكل، يتهامسون فيما بينهم وقد علا صوت البعض الآخر، لم يكن حديثهم جديا على أغلب الظن وكانوا فقط ينتظرون المنجم لبدء الحديث الرسمي..

لمّا لمحتة الأعين انخفضت الأصوات وتوقف الهمس، اعتدلوا جميعا ليستقبلوه باحترام خافضي رؤوسهم، تحرك ببطء حتى توقف أمام كرسيه على رأس المنضدة المستطيلة وجلس بهدوء فتبعه الجميع على الفور..

تحدثوا وتباحثوا قليلا بشأن بعض مواضيع الهيكل، ثم قال المنجم:

- لقد أصبح لدينا ب(بابل) حامية إلهية جديدة.. الإلهة (إينانا) أصبحت الآن ترعى راعينا العادل الملك (حمورابي)..

تصاعدت صيحات الفرحة وهنا بعضهم بعضا، مؤكدين أن هذا قدرٌ كان لابد منه لملك عظيم مثل (حمورابي) أن يحميه إلهان اثنان عظيمان معا، فأضاف المنجم:

- أبلغوا مهندس الهيكل بأن يتخير مكانا عاليا ليبدأ تصميم معبد فخم يليق بالإلهة (إينانا).. ولكن ليس بعلو هذا الهيكل بالطبع..

أشار أحدهم بأنه سيتولى هذه المهمة، فأراد المنجم أن يضيف مزيدا من الأوامر الجيدة، ولكنه شعر بالآم حادة برأسه اكتنفته في لحظة وعصفت به، رفع يديه ليمسك جانبي رأسه وقد هجم طنين مؤذي على أذنيه وكاد يمزقهما، نظر له الكهنة بقلق عندما أحنى رأسه ممسكا إياها بيديه معتصرا إياها بقوة، وخُيّل للمنجم أنه سمع صوتا يخبره بالذهاب لغرفته الخاصة بطرف الهيكل، غرفته الأشبه بالمحراب والتي يتأمل فيها النجوم عبر السقف المشرف على السماء مباشرة، ويخط فيها تنبؤاته التي تغير أحيانا سير قرارات الحاكم نفسه.. سأله كاهن إن كانت به علة ففتح عينيه مبتسما بإنهاك رادا بأن عليه أن ينصرف الآن لمحرابه لأمر ضروري خطر على باله، طمأنهم على حاله قبل أن يسارع بمغادرة الحجرة بخطوات مسرعة متجها نحو محرابه مجيبا ذلك الداعي الذي أرسل رسالته لعقله مباشرة عبر الأثير..

تخطى عدة حجرات بشرود ولم يلاحظ أحدا ممن تعدهم بجسده فقد كان كل تفكيره في هوية هذا الداعي الخارق، ولم تكن تنقصه الفراسة ليعلم أنه ذلك الكيان معلم السحر القادم من السماء..

وصل لنهاية الهيكل حيث يجثم محرابه، وقف عند الباب ينظر للحجرة الواسعة التي تتأثرت الرُّقْم في أركانها في فوضى محببة للنظر، جدرانها أرضيتها تلونت بحجر من لونين أحمر وأزرق من الفسيفساء.. بلا سقف فكانت أشعة الشمس ترفع درجة حرارة الحجرة لدرجة عالية أثناء ساعات النهار، ولكن لم يكن المنجم ليشتك لأنه لم يكن يستخدمها إلا ليلا دائما.. وكانت هذه المرة من المرات النادرة التي تطأ قدماه فيها أرضها أثناء وجود الشمس.. جلس القرفصاء أرضا بوسط الحجرة كما اعتاد ثم أغمض عينيه وجهد نفسه عقليا لتلقي الاتصال الخارق للعادة.. لم تكن مرتته الأولى ولم تكن

أجواء التخاطر العقلي هذه جديدة عليه، اعتاد أن يكون هو المستقبل لما تنقله له الآلهة من رسائل وأوامر، رسائل كانت غالبا تأتي في هيئة أحلام، ونادرا ما كانت تأتي نهارا.. لهذا كانت هذه المرة مختلفة.. لتوقيتها وكذلك لعنف تأثيرها عليه بدنيا، فما زال يشعر وكأن رأسه ستنفجر من شدة الألم الناجم عن اتصال ذلك الشيء به..

مغمض العينين بدأ يشعر بالظلام يحل على محرابه، ذلك الظلام الذي تراه طاغيا على الوجود نفسه، شعر بثقل على صدره وصعوبة بالتنفس فاضطر لفتح عينيه ونوبة هلع تجاهد لتعلن عن نفسها، رأى أول ما رأى محرابه مظلما ولكن بشكل يسمح له برؤية الجدران والأرض وجسده، كان مقبضا أكثر منه مظلما، رفع رأسه متأملا كتلة من السواد كانت تغطي منفذ أشعة الشمس بشكل شبه كامل، تلفت يمينا ويسارا وقد شعر من خلال حاسة قد تطورت لديه بأنه ليس وحيدا بالمحراب.. ضيق عينيه محاولا مضاعفة تركيزه العقلي فصدمه صوت أجش كرية تغلغل في ثنايا وتلافيف مخه ليقول:

- لا تحتاج لأن تبذل مجهودا أيها المنجم.. بإمكانني أن أصل لك في لحظة..

ارتج على المنجم لوهلة، فرغم حدوث اتصال بينه وبين عديد من الآلهة وأكثرهم الإله (مردوخ) من قبل، ولكن لم يسبق أن كان اتصالا بمثل هذا الوضوح، وبمثل هذه العدوانية التي تطل عبر نبراته.. لكنه سرعان ما تمالك نفسه وشد قامته وهو جالس ليقول بهدوء:

- أرحب باتصالك.. ودعني أحمّن أنك أنت الكيان السحري الذي اتصل بي في أحلامي سابقا..

شعر المنجم بالغضب يسري عبر الأثير والصوت يصيح غاضبا:

- أنا لست بساحر.. أنت ساحر بمقاييسكم.. تجلب خوف الناس بتخويفهم من قوى الطبيعة كالشمس والمطر والزوابع الرعدية.. أما أنا فإني بقادر على ضبط قوى الآلهة غير المنظورة لكم.. ولي سلطة على آلهة الشر السبعة التي تجلب الوباء وسحب العواصف والفوضى لأرضكم..

ارتجف المنجم لما يسمعه وكل ما استطاع فعله هو أن ردد برعب:

- سبعة آلهة!

اكتسب صوت الكيان نبرة مزدوجة وهو يقول بصوت بدا رنانا:

- تلك الإلهة السبعة الشريرة المتعاملة مع الموت بلا خوف.. تلك الإلهة السبع الشريرة المندفعة كالسيل.. سبع آلهة بالأرض العريضة.. سبع آلهة لصوص.. سبع آلهة ليل.. سبع آلهة شر.. سبعة آلهة شياطين شريرة.. سبع شياطين طغيان شريرة.. سبعة بالسماء وسبعة بالأرض.. في المحيط العميق هي سبعة.. شريرة هي.. شريرة هي.. سبع هي.. سبع هي..

ثم اندمج صوت كعاصفة تزوم للنبرة المزدوجة وهو يكمل وسط دعر المنجم:

- إنها تزحف كالحية على بطونها.. تننن الحجرة كالفئران.. تنبح كرهط من الكلاب.. شعر المنجم بتيار عاصف يلف الحجرة ويضرب جسده بقوة فيسقطه على ظهره، وهو يسمع الصوت ينهي كلماته:

- هذه السبع هي رسل الشرير (أنو) التي تحمل الكآبة والتطير والخراب من مدينة لأخرى..

ارتبك عقل المنجم وقد بدأ يعود للعمل مجددا مع خفوت الذعر الذي كان يعتريه، وردد بدون فهم:

- الإله (أنو) هو من يتسبب بدمار الأرض؟ هل هو الشرير حقا؟

سكنت الريح العاصفة وعاد الصوت المزدوج الرنان يقول:

- لن ينجح في حمايتكم منه ومن شره سوى الإله الرحيم الجبار (مردوخ)..

هز المنجم رأسه بسرعة مؤيدا وهو يقول:

- مفهوم.. الإله العظيم (مردوخ) هو سيد كل آلهة (بابل) وهو حامي راعينا العادل (حمورابي).. وجلّ الهبات والقرايين مستقرها النهائي بهيكله هنا لنجعله راضٍ عنا باستمرار..

تضاعفت حدة صوت محدثه وهو يقول:

- سأعلمك أصول السحر السماوي.. سحر لن يفهمه أحد ولن يجاريك فيه أحد..
ستستخدمه فيما يفيد إلهك (مردوخ) وتمرره عبر الأجيال فقط لمن يفهم ولمن يستحق..
سأعطيك أسراراً ستقيم وتُسقط امبراطوريات.. ستنشئ وتمحق ديانات.. تحيي
وتميت.. تقرب وتعزل.. تخلق النار من العدم وتنتهي أعتى الأعاصير.. ستري المستقبل
على صفحة مياه بركة رقراقة.. ستشفي المرضى بقوة الرجم السماوي وتطرد شياطين
البدن بسحر غصن الطرفاء المقدسة.. ستصنع التمام الحامية وتفك العقد المؤذية..
ستتعلم كيفية استخدام الأعشاب السحرية المهلكة وكذلك كيفية وضع الترياق لسمها..
ستتعلم التلفظ بكلمات لن يفهمها غيرك.. كلمات تحرك الجبال وتغير مسار الأنهار
وتكثف السحب وتعتصر ماءها.. كلمات تجعل أقوى الرجال يتخشب أمامك كطفل
مذعور..

برقت عينا المنجم بطمع مما يسمعه، وسال لعابه عندما استوعب أنه المختار لتعلم
سحر السماء دوناً عن غيره.. فسجد من فوره ودموعه تتقاطر على وجنتيه وهو يقول
بامتنان جارف:

- سيدي ساكون لك نعم التلميذ ولن أخيب ظنك أبداً..
جاءه صوت كالرعد يهتف:

- لن تكون تلميذاً.. لن تكون سوى عبد لي.. وكذلك كل من ستعلمه هذه الأسرار.. كلكم
ستكونون عبيداً لي أيها البشر.. عبيداً ل(النمرود)..

شعر المنجم بالأرض تميد به وكاد يفرغ ما بجوفه عبر حلقه، وشعر بعمود من نار
يكوي صدره من فرط انفعاله، قام بتمرغ وجهه أكثر بالأرض إمعاناً في الإذلال
صائحاً:

- أنا عبدك ورهن إشارتك..

تركه (النمرود) قليلاً ساجداً مرتجفاً.. بكى المنجم بحرقة بكاء شديداً وصل لحد
النشيج.. عاد صوت (النمرود) يقول له أمراً:

- غدا تذهب لبقعة بعينها ملاصقة لقصر (حمورابي) سأزرعها بذاكرتك الفانية..
اضرب الأرض بيديك ينفجر من تحتها ينبوع من ماء مقدس محرّم عليك أو على أي

من البشر الشرب منه وإلا نال مَنِّي ما يستحق.. قم ببناء مقام ثلاثي القوائم من الذهب فوقه.. له مذبح من ذهب.. اجلب أجمل فتاة ب(بابل) كلها واجعلها على رأس هذا المقام.. اهرق الدماء الغزيرة على المذبح الذهبي.. وعندما يشبع المذبح من الدماء ستنتطق حينها الفتاة.. الفتاة التي ستكون وسيطة بيني وبينك أمام كل المريرين.. وسيكون الغرض منه فقط هو التذلل للإله (مردوخ) بالقرابين والهدايا وطلب ما يُرجى من المسائل الدنيوية.. وستكون مقر إقامتك هناك دائما أبد الدهر حتى مماتك..

اتسعت عينا المنجم موقنا أن حياته قد تغيرت للأبد منذ هذه اللحظة، وازدرد لعابه شاعرا بكتلة صلبة تتحرك عبر حلقة وهو يسأل بخضوع:

- وأين إذا سأتعلم السحر السماوي إن ظلت ملازما لذلك المقام؟

أجابه (النمرود) باستهانة:

- ستصبح الأرض أرحب مما كانت عليه عندما كنت تراها بعينين غافلتين عن أسرارها..

اكتفى (النمرود) بهذا القول الغامض قبل أن يختفي وجوده تماما من المحراب، وبدأت خيوط من أشعة الشمس تنساب من السقف بخجل لتصيب جسد المنجم، فقام يمسح دموعه التي بللت وجهه ولحيته وقد ارتسمت نظرة غريبة بعينيه، وبدا أشبه بالمجذوب وابتسامة عريضة تتكون على شفثيه ببطء..

17-الصواعق والنار

(الوركاء) السماوية..

توقف كلاً من (زابابا) -سيد مدينة (كيش) السماوية- و(نينازو) أشهر مقاتلي جيش (كيش)- أمام تماثيل الثيران التي تتكسد أمام مدخل قصر (أنو)، يرتدي كل منهما كامل لباسه العسكري ودروعه كعادتهما طيلة الوقت بحيث لم يظهر من جسدي كل منهما إلا عيناه من خلال الخوذة العسكرية المزينة بزوج القرون الملتفة.. كان قد جاءهما الاستدعاء كما جاء لغيرهما من أسياد (سومر) السماوية لقبول دعوة السيد الأكبر (أنو).. كان الخبر مفاجئاً بادئ ذي بدء.. السيد المنعزل منذ أبد الدهر يخرج عن صمته ويبدأ في دعوة الجميع لإجراء حديث منفرد مع كل سيد من الأسياد على حدة.. بدأ ب(إنليل) و(إينانا).. ومع خروجهما وتناقل الحديث على لسانيهما فهَمَّ السماويون بأن (أنو) يدّعي بأنه رسول من قِبَل مهندس الكون الأعظم.. كان الكلام غامضاً ويقبل عدة تأويلات أبسطها أن السيد الكبير (أنو) قد جنّ من طيلة انعزاله وصار يخلق القصص ويخلط الحقائق ببنات أفكاره الخيالية ورجباته.. ورغم غرابة ما قيل من (أنو) ولكن أعلن (إنليل) و(إينانا) إيمانهما المطلق بما قاله وبدأ الاثنان بالفعل في توصيل رسالته لسماوي (الوركاء) - مدينة (أنو) و(إينانا)- و(نيبور) -مدينة (إنليل)-.. ومن المتوقع أن يدعم نسل سلالة (أنو) أسياد الصواعق جدهما مهما بلغ من شطط..

ثم كان لقاء (أنو) مع السيد (شمش) وقائد جيوشه (بونيني) والذي كانت نتيجته تختلف تماماً عن لقاء سابقه الاثنين (إنليل) و(إينانا).. لم يقتنعا بما قاله ووصفاه بالمجنون ورفضاً تماماً الانضمام للمؤمنين بدعوته، وعادا لمدينتهما (لارسا) ليبدأ الاثنان في إطلاق الرسائل المحمّلة بالسخرية عن سيدهم الأكبر المجنون..

ولما جاء دور سيد مدينة (كيش) (زابابا) في المقابلة الثالثة مع (أنو) لم يكن يفكر في صدق قوله بخصوص وجود مهندس للكون.. كانت هناك أشياء أكثر أهمية وأشدّ خطورة في كلام (أنو) من وجهة نظره.. ولم يكن يدري بأن (نينازو) لديه أيضاً أفكاره الخاصة به والتي يتكتم عليها بداخله..

أطال (زابابا) النظر لنقش النجمة الثمانية بمدخل القصر وهو يقول باستهانة:

- سيد جهات العالم الثمانية! أشك بهذا..

توقف (نينازو) بجانب (زابابا)، كانت نظرتة خاطفة للنجمة الثمانية، نظر بدقة أكثر للتماثيل المتناثرة للثيران البيضاء، ثم قال ل(زابابا) بعد فترة صمت:

- يبدو أن (أنو) هذا سينال لقب سيد الكلام بعد ما بَدَرَ منه مؤخرًا..

أدار (زابابا) رأسه نحوه وهو يقول محذرا:

- حاذر مما تتفوه به.. إنه أقدم الأسياد وهذا يعني أنه أكثرنا قوة وخبرة..

هز (نينازو) كتفيه باستهانة وهو يقول:

- رَفَضَ دعوته من قبلنا (شمش) وأمعن بعدها في السخرية منه ووصفه بالمجنون، ولم يُصَبْ بشرٍ على الإطلاق.. هل هذا الرسول الأقدم متسامح لهذا الحدّ أم هو مجرد عجوز أنهكته السنين وأصبح مجرد أسطورة زائفة للقوة؟!

نظر (زابابا) بعيدا للأفق حيث تنعكس أشعة الشمس على مياه نهر (الفرات) وقال وهو يتأمل:

- لا تنسَ أن (شمش) لم يسخر منه إلا بعد أن غادر القصر و(الوركاء) كلها واستقر بقلعته ب(لارسا)..

- جبان ليس إلا..

- ربما حكيم بما يكفي..

انتابت (نينازو) عصبية مفاجئة وهو يقول:

- أي حكمة تلك التي تقول أن (شمش) يملكها؟ انظر حولك جيدا وقل لي هل ترى أي حراس أو وسائل دفاع عن النفس؟ لأنني لا أرى أي شيء قط يدلّ على هذا مما لا يعني إلا أن سيد الأسياد الأقدم تنتابه بعض الأفكار المجنونة الممزوجة بثقة مبالغ بها في نفسه تجعله يتخلى عن حرصه في حماية نفسه..

هزّ (زابابا) رأسه قائلاً:

- أوافقك في أغلب ما تقوله ولكني لا أنصحك بقوله في حضرته..

ضاقت عينا (نينازو) بمكر وهو يقول:

- لا تقلق.. سأفعل ما هو أكثر من الكلام لأثبت لك وجهة نظري..

حذره (زابابا) قائلاً:

- عزيزي (نينازو).. لا تقم بأي فعل هجومي بداخل القصر.. لا تجرّنا لحرب لا طائل منها ضد (إنليل) و(نينورتا) سيدا الصواعق وجيوشهما لمجرد طيش انتابك لإثبات أن السيد (أنو) ضعيف ومجنون..

- ولكنه بالفعل ضعيف ومجنون!

قال (زابابا):

- لو كان هو كذلك — وإن كنت أشك بهذا- فإن (إنليل) ليس بضعيف.. ولا تنسَ الشائعات التي تدور حول امتلاك (إينانا) هالات إلهية من بشر متفردين.. ما زالت أحد أفراد الأسرة..

لوح له (نينازو) قائلاً:

- أمرهما لا يهمني.. لن يغامر أي منهما بالتدخل بل وربما سيتغير رأيهما بخصوص وجود مهندس الكون هذا من عدمه لو تم إنهاء وجود (أنو) بالحياة..

تحرك (زابابا) ليدخل القصر وهو يقول ل(نينازو):

- أرجوك لا تقم بأي فعل احمق ودعنا ننتهي من ترهاته بأقصى سرعة فلدينا ما هو أهم من هذه التفاهات..

تبعه (نينازو) والأفكار الشريرة لا تفارق عقله.. بينما كان (زابابا) يفند بعقله ما قاله (نينازو) من كلمات والتي لاقت استحساناً سريعاً منه.. صحيح أن تفكير (نينازو) كمحارب لا يشق له غبار محب للحروب والسيطرة- كان يغلب عليه الاستهانة بالأعداء، ولكن قوته لا يمكن التقليل منها كأحد أقوى الأسياد بطشاً إن لم يكن أقواهم، مما يعزز من وجوده بمدينة (كيش) ويساهم بمساندة آرائه لأنه يتمكن بقوته الغاشمة من فرض رأيه.. خاصةً ما يتعلق بشن الحروب والتي يكون له الدور الأساسي في النصر فيها، هو ووحشه الأعظم المروّض (موشوسو).. أحد قدماء الأسياد والذي ندرَ أن يوجد مثيل له في بلاد (سومر) السماوية كلها.. ولكن رغم كل هذا كان تفكير (زابابا) يأخذ جانب آخر يرى أنه أشد خطورة وأهمية.. تفكير بخصوص شيء قد تناقلته الألسن عن مقابلة (أنو) مع (إنليل) و(إينانا).. وهذا الشيء — إن صحّ- سيكون (زابابا) هو أول المؤيدين لفكرة (نينازو) في اغتيال (أنو) وإعادة تغيير خريطة (سومر) السماوية ليصبح اسمها مملكة (كيش) السماوية.. ويصبح هو - (زابابا)- سيد الأسياد الأوحده.. ويصبح ل(كيش) الكلمة الأولى والأخيرة بين كل المدن بأسيادها..

وجد الاثنان نفسيهما ببهو القصر الفسيح.. تعلّق نظر (زابابا) بجسد (أنو) الجالس على ارتفاع بين الأعمدة الأربع، كان (أنو) منفصلاً عن الوجود وكأنه ليس بعالمهم.. ضجت مشاعر (زابابا) بكراهية طاغية يشوبها شيء من الحسد.. ها هو سيد الأسياد يرقد أمامه.. اللقب الذي طالما حلم بنيله منذ أن وجد نفسه سيداً ب(سومر) السماوية.. كان يظن دائماً بأن السيد (أنو) كائن ليس له مثيل.. سيقبض على سلطانه على الأسياد بقبضة من حديد ويبرز قوته الغاشمة ليبسط ذراع السيطرة على المملكة بأسرها بعنصر الإرهاب.. هذا هو ما يجب أن يكون عليه سيد الأسياد كما

يؤمن (زابابا).. ولكنه فوجئ بأن (أنو) لا يظهر للعلن مطلقا.. ندر من رآه شخصيا أو تعامل معه.. ولولا بأس ابنه (إنليل) الذي أهله لتولي زمام مهام نائب (أنو) لصار في الأمور أموراً أخرى مختلفة، ولأصبحت أطماعه هو - (زابابا) - في سرقة المنصب أكثر سهولة ويُمكن صبغها بشيء من الشرعية.. ولكن ها هو الآن (أنو) يتفوه بما لا يمكن وصفه إلا بالترهات.. ترهات فقط لأنها تتيح الفرصة لغيره بأن يشكك في كفاءة عقله وبالتالي القفز على أكتافه والمطالبة بمنصبه، خاصةً وأن ابنه والقائم بأمره في الحكم (إنليل) شاركه الإيمان بهذه الترهات.. فما هي الفرصة قد حانت له ليطمع في منصب السيد الأول.. يعضد أطماعه وجود محارب أسطوري كـ (نينازو) بجانبه..

أما عن (نينازو) فقد كان يجيل النظر حوله.. اثنا عشر تمثالا لثيران بيضاء تأخذ أوضاعا أشبه بالوضع الدفاعي.. تحركت غريزة المحارب بداخله والتي لا تغفو وهلة تخبره بأن هذه الثيران ليست كمثيلاتها عند باب القصر.. هذه الثيران تحرس (أنو) بطريقة أو بأخرى.. في النهاية ليس (أنو) هذا أحمقا كما كان يظن.. هذه الثيران هي خط دفاع متخفي.. ربما لن يستطيع أحد غيره أن يلاحظ هذا، ولكن عينان خبيرتان كعينيه رأت الخطر، وحواس مشحونة على الدوام لتوقع الأخطار كحواسه شعرت بالأمر جليا وكأنه يراه رأي العين.. ولكنه لا يهاب النزال بل يطرب له قلبه ويسعى للقاءه بعزيمة لا تخور.. ولهذا لم يقلق لشعوره اليقين بوجود حراس لـ (أنو) مهما بلغ عددهم.. وبدأ بالفعل في التفكير في الخطوة التالية - والتي ستكون عدائية للغاية - ولكنه أراد أن يسمع كلام (أنو) سيد الأسياد - أولا..

توقفت خطوات (زابابا) قُرب أحد الأعمدة الأربعة في حين توقف (نينازو) خلفه تماما.. رفع (زابابا) رأسه ليحديق بالجسد الضخم الراقد على ارتفاع في وضع تأمل وانفصال عن الوجود.. لم يلفظ (زابابا) بكلمة وكذلك (نينازو).. ظل الوضع كما هو عليه من صمت طاع لفترة طويلة لم يقم أحد من الثلاثة بخرقه.. قبل أن يتحرك (أنو) ويدور بجسده وهو ينخفض ببطء فاردا ساقيه بمرونة لا تتناسب مع تقدم العمر الذي توحى به تغضنات وجهه العديدة والعميقة.. استوى على الأرض واقفا بين الأعمدة وهو ينظر لزائريه المدججين بالدروع واللباس الحربي قائلا بهدوء:

- أهلا بسيد (كيش)..

رد عليه (زابابا) وغضب مكتوم قد انتابه لأن (أنو) لم يذكر اسمه مما أشعره بالإهانة المتعمدة:

- أهلا بسيد الأسياد..

لم يبال (نينازو) بتجاهل (أنو) له وكأنه لم يراه، بل تجاهله هو الآخر بالفعل ولم يُدر حتى وجهه لينظر نحوه، اكتفى فقط بتأمل تماثيل الثيران باهتمام وإن ظل ذهنه بكامل تركيزه مع حديث (أنو) و(زابابا)..

ابتدر (أنو) النقاش قائلاً:

- لعله قد تبادر إليك ما تواتر ب(سومر) السماوية -بين العامة قبل الأسياد- من لقاءاتي مع الأسياد السابقين لك وما قيل فيها بخصوص رسالة الإله الواحد الأحد الأعظم.. فهل وصلتكم الرسالة بشكل كامل أم انتابها بعض الغموض أو المغالطات؟

شعر (زابابا) بالدهشة تغمره.. طريقة عجيبة لبدء الحوار.. وكان (أنو) لا يهتم بأن يعطيه الرسالة كاملة.. أو -والأشد خطورة- وكأنه يعلم بأنه لن يهتم بكلامه فأراد الإيجاز.. ولكنه سارع بالرد وقد تمالك نفسه:

- أعتقد أنها قد وصلتني بشكل كافٍ..

سأله (أنو) وهو يقترب منه ببطء:

- وهل ردك جاهز لتسمعني إياه؟

شد (زابابا) قامته راداً:

- ليس الآن أيها السيد (أنو).. ربما قليلاً من الوقت لتدبر الأمر برمته سيكون أفضل لإعطائك رداً يكون على قدر المقام..

توقف (أنو) وقد تغضنت تجاعيد وجهه بشدة وهو يقول له:

- ولكن لا بد من رأي مبدئي يا حاكم (كيش).. أليس كذلك؟

(أنو) يدفعه دفعا لأمر من اثنين.. إما الإذعان له -ولو صورياً- أو الاشتباك معه والمبادرة بإظهار العداء.. يبدو أنه تعلم من ما فعله معه (شمش) وقد بدأ أسلوبه الجديد معه هو.. ومن الآن يبدو وأن هذا الأسلوب سيتم اتباعه مع من سيتبعه من الأسياد.. نظر لوجه (أنو) فوجده يطلّ عليه محققاً بعينين مهيمنتين.. شعر (زابابا) للحظة بأنه قد قلل من قدر (أنو)، فها هو أمامه وقد حاصره حصاراً شديداً لا يجدي معه إلا إظهار ما بداخله حقيقةً.. ولو أذعن له الآن -ولو صورياً- لن يستطيع احترام نفسه أبد الدهر.. فمن يظن نفسه أحقّ بكونه سيد الأسياد لن يتصرف كالجناء ويضطر للكذب.. فماذا هو بفاعلٍ إذا؟!!

خرج من أزمته بأن سأل (أنو) ببرود مثير:

- هل صحيح ما قلته لمن قبلنا من الأسياد بأنه لم يعد عالمنا السماوي مرتبطاً بعالم البشر الأدنى؟

نظر له (أنو) متعجباً من السؤال وتوقيته قبل أن يجيبه:

- نعم هذا صحيح.. هل تهرب من سؤالي يا سيد مدينة (كيش)؟

تنهّد (زابابا) بارتياح بصوت مسموع فاعتبر (نينازو) هذا ضوءاً أخضراً له لفعل ما يريد وما يعرفه (زابابا) من قبل، فتدخل في الحوار بينهما قائلاً مقاطعاً بلهجة حادة:

- أنا لذي رأي مبدئي قد كوّنته فور أن وطئت قدماي أرض مدينتك هذه أيها السيد..

نظر كلا من (أنو) و(زابابا) نحوه بدهشة خالطها شيء من غضب عند (أنو)، ولكن لم يستطع أي منهما استكمال مشاعره عندما تحرك (نينازو) بسرعة البرق مستلاً سيفه معقوف الطرف من غمده مطوّحاً به صوب أقرب تمثال لثور له، محطماً إياه لقطع صغيرة من أحجار بيضاء تناثرت في المكان لتفترش الأرض حوله في شكل دائرة كبيرة، وأجزاء من الأحجار تتطاير لتلتصق بأطراف رداءه العسكري..

وفي لحظة لا أكثر انقلب الحال بقصر السيد (أنو) لساحة قتال شديدة العنف..

نطقت عينا (أنو) بغضب لا متناهٍ وهو يباعد ما بين يديه مستدعياً بعقله باقي الثيران البيضاء حراسه الشخصيين (الأناتوكي) ليتجسّدوا في الحال.. استوعب (زابابا) بادرة (نينازو) العدائية بسرعة، فما دام قد بدأ المعركة علناً فليده الخطة المناسبة والقدرة على النصر، حتى لو على سيد الأسياد نفسه.. فما يعلمه عن (نينازو) يقينا أنه قد يكون مندفعاً بشدة ولكنه ليس بمتهور.. استل سيفه المعقوف بسرعة وانقض مباشرةً ضارباً بسيفه رأس (أنو).. تحولت التماثيل كلها لثيران حية ناصعة البياض، يطلق كل منها خوارجاً فاتححت أصواتهم جميعاً في صوت واحد مهيب زلزل القصر.. لم يبال (نينازو) وهو يثب نحو أقرب الثيران منه ليفصل عنقه عن جسده بضربة سيف سريعة فاصلة..

شعر (زابابا) بالسيف يرتد عن جسد (أنو) نحوه ثانيةً مع شرارة من نور ساطع تصيب السيف وتدفع جسده للسقوط أرضاً على ظهره.. رفع رأسه بذهول ليرى (أنو) وقد خلع عنه ما يرتديه من أسمال بحركة واحدة ليظهر جسده العضلي شديد التناسق وقد تزين بدروع ذهبية لامعة عند الذراعين والساقين، بينما تحوّل شعره الغزير المجدول الطويل لشرارات مضيئة ماثلت تلك الشرارات التي انبعثت من عينيه.. وكان يحرك يديه لتبعث من بين أصابعه شرارات فضية محدودة ظلّ يتلاعب بهما بأطراف أصابعه وهو يردد بصوت هادر:

- هل تجرؤ أيها الحقيير؟ تريد اغتيالني في مسقط داري؟ سأجعل منك عبرة لكل الأسياد..

انقض ثور هائج على (نينازو) فراوغه بوثة جانبية قبل أن يطعنه بسيفه أثناء اندفاعه بأسفل بطنه.. فانقلب الثور على جانبه وقد تدلت أحشائه من بطنه.. أخفض ثور ثانٍ رأسه وهجم على (نينازو) عازماً نطحه بقرنيه الضخمين.. هذا (نينازو) حذوه وانخفض برأسه.. أطلق الثور خوارجاً رهيباً قابله (نينازو) بزمجرة شبه حيوانية.. قابل نطحه الثور بأخرى مثلها فارتج الثور

من قوة اندفاع **(نينازو)** ومال للخلف، فعاجله **(نينازو)** بضربة بطرف سيفه المعقوف نحر بها عنقه.. ثم أدار سيفه حول محوره ناظرا للثيران الثمانية المتبقية بتحدٍ..

أطلق **(أنو)** سيلا من الصواعق من بين يديه استهدفت كلها جسد **(زابابا)** وهو يطلق صيحات غاضبة كهزيم الرعد.. تحرك **(زابابا)** بسرعة ورشاقة ليتفادى ما يمكنه أن يتفاداه.. تفادى أغلبها وإن نجحت صاعقة أو اثنتين في إصابته فحرقت جزءا من دروعه.. قام **(أنو)** بضم قبضتيه فتكونت دائرة ضخمة من شررات كثيرة بين يديه أضاءت وجهه بلون فضي متراقص وهو يبتسم بشراسة قائلا بلهجة يوحي بها بأن النهاية صارت قاب قوسين أو أدنى:

- هل كنت تظن نفسك نذاً لسيد السماء؟

تفرقت الثيران لأربعة فرق.. كل فرقة تكونت من زوج من الثيران.. تحرك زوج يمينا وزوج يسارا.. نمت لزوجين منهم أجنحة بيضاء ضخمة حلقا بها فوق **(نينازو)**.. راقب **(نينازو)** بطرف عينه **(أنو)** وقد تحول لمقاتل في عنفوان شبابه جسديا يطلق الصواعق القاتلة من بين يديه.. ثم نظر سريعا للثيران التي تهجم عليه.. اثنان من اليمين واثنان من اليسار وأربعة من السماء.. لم تظهر على وجهه بادرة انفعال واحدة.. تحرك بسرعة خارقة واثنا نحو الزوج المهاجم من اليمين فقابل انقضاضتهما بوثبة هائلة تجاوزهما بها، وثبة دار فيها جسده رأسيا بحيث صارت رأسه بالأسفل وساقاه بالأعلى للحظة، هوى خلالها بسيفه ليشق جانب عنق أحد الثورين المندفعين نحوه، قبل أن يعود اتزانته وترتفع رأسه وتخضع ساقاه.. حطت قدماه على ظهر الثور الثاني من زوج الثورين المهاجمين له من جهة اليمين، فاستغلها كنقطة ارتكاز جديدة اكتسب منها قوة اندفاع جديدة وهو يقفز وكأنه يطير نحو الثيران المهاجمة له من الجو.. استهدف أحدهم فأمسك جناحيه بيسراه وهو يفصل رأسه عن عنقه بسيفه.. ثم دار بجسده في حركة سريعة بارعة ليركل ثورا ثانيا بقدميه معا فيدفعه ليصطدم بزملائه ويسقطوا الثلاثة أرضا.. تبعهم **(نينازو)** وهو يسقط أرضا ماسكا بمقبض سيفه بقوة متوجها نحو أحد الثيران الساقطة لتوها ليدق عنقه على الفور بضربة سيف عنيفة.. ورفع رأسه لتبرز عيناه الغاضبتان تحديقان في الثيران الخمس المتبقية..

أطلق **(أنو)** صاعقة مهولة من بين يديه فسارع **(زابابا)** بالإمساك بدرعه الذي كان معلقا بظهره ووضعها أمام جسده وهو ينحني ليتوقع خلفه.. تلقى الدرع الصاعقة وشتتها في كل اتجاه.. اندفع جسد **(زابابا)** للخلف ارتداديا مع قوة الضربة وهو يرى سيلا من الصواعق الشاردة قد تولد من الاحتكاك بدرعه وصار يطير بكل مكان بقاعة القصر.. توقف **(أنو)** ينظر نحو الدرع مليا قبل أن يقول مضيقا ما بين حاجبيه:

- لكل سيد ميزة تجعله كفوا للقبه.. لم أكن أرّ فيك ما يؤهلك لتصير سيذا ولكني أرى الآن أسلحتك - درعك ودروع جسديك- تصد صاعقتي بدون أن تتفتت كما يجب لأي معدن موجود

بمملكتي تلامسه صواعقي المهلكة.. أنت لست بسيد أصلي يا سيد (كيش).. أنت لست سوى سارق.. تسرق المعادن النادرة بمملكتنا من أرض البشر والتي لها قوة سحرية بعالمنا لتسلح بها وتحارب بني جنسك.. لقد سرقت الحديد السحري من أرض البشر وطوّعته لتصنع دروعك..

انقض (زابابا) على (أنو) شاهرا سيفه ودرعه قائلا بهمس:

- تتحدث كثيرا!

هو (زابابا) بيمينه بسيفه.. صنع (أنو) صاعقة بأصابعه على شكل سيف تلقى بها ضربة السيف.. عاجله (زابابا) بضربة بسنّ الدرع ببساره أصابت ذقنه إصابة مباشرة ودفعت رأسه للخلف.. فراجع (أنو) خطوتين وقد انقبضت كل عضلات جسده وقد أصابه سخط هائل وهو يتحسس ذقنه التي كانت تنز دماءً فضية.. دماء لم يكن يظن يوما أنه سيراها بعينه.. قاطع (زابابا) أفكاره وهو يعيد الكرة ويهاجم بضربتين متتاليتين من سيفه ودرعه.. حرّك (أنو) مجموعة سيوف صنعها بأصابعه من الصواعق صدّ بها ضربات (زابابا) القوية، ثم فرد أصابعه لتندفع كل الصواعق نحو (زابابا).. تراجع الأخير بسرعة وحنكة ليتقي شر الصواعق بدرعه، ثم وضع سيفه أرضا بسرعة وهو يُخرج من نطاقه عدة خناجر ماضية ويرميها بسرعة ومهارة رام لتتطلق كلها صوب (أنو) كأموج قاتلة من ذلك المعدن الأرضي-الحديد- الذي بإمكانه صدّ صواعق (أنو) واختراق جسده المنيع أيضا.. كان (أنو) نفسه يهدر بالصياح وهو يطلق إعصارا من صواعقه يشنت بها الخناجر المهاجمة:

- أيها المحتال.. جلّ ما يمكنك إنجازه بفخر هو خدشي!

ألقي (نينازو) نظرة أخرى سريعة نحو نزال (أنو) و(زابابا).. تكافتت الثيران الخمس المتبقية وقد أيقنت من مدى خطورة هذا المحارب، ورأت ان التفرق لن يفلح إلا في زيادة عدد ضحاياها.. ضربت الثيران بقوائمها الأرض وهي تخور بعنف في استعداد لهجوم قوي كاسح وأخير.. تراجع (نينازو) قليلا ليسمح للثيران بالهجوم.. التقط درعه بسرعة بيميناه ودفعه بقوة خارقة ليواجه به ضربات الثيران كلها ويصدها بقوة ساعده وعضلات جسده.. أتت عضلات ظهره وهو يزمجر بخشونة ويدفع أجساد الثيران المتدافعة على درعه ليدفعها جميعا للخلف.. ثم رمى درعه وانقض على الثيران التي كانت تتدافع فيما بينها لتعتدل ففصل رؤوس ثلاث منهم بثلاث ضربات متتالية بسرعة البرق قبل أن ينطحه رابع في جنبه.. تحامل (نينازو) على نفسه وأمسك رأس الثور الناطح من قرنيه قبل أن يدير الرأس لأقصى اليمين فيرتفع صوت تحطم فقراته العنقية ويخور هاويا جثة هامة.. ثم قابل انقضاة الثور الأخير بأن مال جانبا وطوّح بسيفه فقطع قائمته الأماميتين بضربة واحدة.. وبينما كان الثور يجاهد للوقوف بقائمتيه السليميتين

الخلفتين عاجله **(نينازو)** بأن دفع بطرف سيفه المعقوف من ذقنه ليبرز الطرف من أعلى رأسه بين قرنيه وقد جحظت عيناه اللتان فارقنا الحياة.. الثور الأخير..

طار جسد **(أنو)** عاليا وقد تحول جسده بالكامل لكتلة فضية من عضلات وشعر متطاير.. رفع ذراعيه عاليا وشبكة معقدة من شرارات تحتل ما بين يديه ثم تمتد لتحل سقف القصر كله.. لقد حوّل **(أنو)** السقف لسماء خاصة به صارت مصدرا محتملا لعدد لا نهائي من الصواعق.. وانبعثت الشرارات الفضية من عينيه وهو يصيح في **(زابابا)** بصوت بدا أشبه بصوت الرعد:
- هل يمكن لأسلحتك أن تصد هذا!؟!

أضاء السقف كله بلون فضي مهيب.. انعكس اللون الفضي ليكسي دروع ورداء **(زابابا)** وحتى لون عينيه.. فرفع **(زابابا)** درعه رغم علمه بعدم جدواه متسائلا عن احتمال خطأ قرار الهجوم على **(أنو)** بقصره..

تناهى لسمعه بغتة صياح **(نينازو)** الهادر:

-**(موشوسو)**!

لمعت عينا **(زابابا)**.. نيران هائلة اخترقت فتحة السقف التي بين الأعمدة الأربعة وهوت مباشرة على جسد **(أنو)**.. حاول **(أنو)** ضم قبضتيه صانعا ستارا من الصواعق يقيه النيران الخلفية الغادرة المتسللة من الأعلى وهو يلتفت بجسده وعينيه نحو السماء بذهول محققا في زوج من العينين المشقوقتين طوليا توسطتا وجه تنين بجسد أرقط أخضر اللون مغطى بالحرارشف، يملك قائمتي أسد أمامتين وقائمتي نسر خلفيتين، وزوج ضخم من الأجنحة.. التنين **(موشوسو)**.. أحد الأسياد القديمة والتي عاصرها **(أنو)** منذ قديم الزمن إبان حرب الأسياد الدموية وحاربه من قبل.. سيد من نوع فريد لا يوجد سواه بهذا الزمن.. الوحش الذي لا يوجد له مثيل بالكون والذي يُقال أن المحارب **(نينازو)** قد روّضه وجعله خادما له ولكن لم يره أحد قطّ وظن الجميع أنها محض خيالات قد رسمتها العقول المبهورة بقوة وشدة المحارب **(نينازو)**.. حتى هذه اللحظة!

قاومت صواعق **(أنو)** نيران الوحش **(موشوسو)**.. صياح **(أنو)** الخشن يقابله خوار أجش من **(موشوسو)**.. زاد بريق عيني **(موشوسو)** المشقوقتين طوليا والشبيهتين بعيني حرباء عملاقة وهو يزيد من نفث نيرانه التي أذابت أحجار السقف والجدران.. قابله **(أنو)** بمزيد من الصواعق حتى صار الوضع لا يمكن احتمالها بساحة الحرب الصغيرة هذه.. شرارات فضية مهلكة تتطاير بكل مكان محدثة أزيزا تمازج مع صوت أجيح النيران المستعرة.. صاح **(أنو)** بكل قوته وعزمه:

- لن يهزمني سيد حتى لو كان يطلق النيران!

أناه صوت (نينازو) من خلفه يصيح وسط المعمة المستمرة:

- اعذرنى يا سيد الأسياد.. التنين ليس سوى تمويه!

وقبل أن تصل الكلمات كلها لسمع (أنو) كان يشعر بالسيفين وقد اخترقا ظهره من الجانبين.. سيفان معقوفاً الطرف صنعا من حديد أرضي فتاك.. سيفاً (زابابا) و(نينازو) اللذان استغلا ظهر (أنو) المكشوف وذنه المشغول كلياً بمفاجئة ظهور التنين نافث النيران.. لينتهي المشهد ب(أنو) وقد تقوس ظهره وبرز طرفا السيفين من جانبي صدره.. فخبأ اللون الفضي من عينيه وعاد للونه الطبيعي.. وبدأت الشرارات الفضية تقل من شعره ودروعه ويديه، وتخاضل ستار الصواعق فدفعته نيران (موشوسو) واتجهت نحو جسد (أنو)

التنين (موشوسو)



لتحرقه وسط أتون مستعر من نيران ولهب، وقد جعلت النيران **(أنو)** يصيح بألم رهيب لثوانٍ قبل أن يذوي صوته ويتهاك هيكله ويهوي جسده قطعة متفحمة لا روح فيها..

انتصب كلا من **(زابابا)** و**(نينازو)** كجبلين شامخين ينظران للجثة المتفحمة وهي تتساقط كورقة شجر لا حول لها ولا قوة، اصطدمت الجثة برفق بالأرض التي كانت قد بدأت حجارتها بالذوبان من شدة ارتفاع درجة الحرارة بالقصر كله، انفصلت عن الجثة قطع مهترئة من اللحم المشوي.. اقترب منها **(نينازو)** بهدوء وهو يركلها بقدمه مرددا باستهزاء:

- رماد سيد الأسياد!

قال له **(زابابا)** وهو يشد على ذراعه بقوة:

- لم يكن خصما سهلا أبدا لا داعٍ من التقليل منه بعد موته..

نظر له **(نينازو)** باستهزاء فأكمل بصرامة:

- ولا تنسَ أنه لولا امتلاكك لوحش لا مثيل له لما استطعنا أن ننال منه معًا..

ابتعد عنه **(نينازو)** وهو يقول ساخرا:

- ومن استطاع ترويض هذا الوحش؟!!

نظر **(زابابا)** للأعلى حيث وقف التنين الرهيب **(موشوسو)** يخلق بجناحيه فوق قمة القصر الذي احترق أغلب سقفه وصار يقطر رمادا ممتزجا بالحجارة على الأرض.. لاحظ وجود إصابات عديدة بجسده نال أغلبها من جناحيه.. وما زالت حتى الآن شرارات فضية تتراقص هنا وهناك معلنةً أنه كانت هناك قوة عاتية من السماء يوما ما تحت سقف هذا القصر.. تنهّد **(زابابا)** مع رؤياه للشرارات الواهنة، وقال ل**(نينازو)** يلومه:

- لقد كان استدعاؤك **(موشوسو)** لمدينة **(الوركاء)** خطرا كبيرا.. خطرا عليه لا اضطراره لا ختراق أسوار المدينة المدججة بالأسلحة والرماة..

قال **(نينازو)**:

- اخترقها بسهولة.. ولا داعٍ لأن أرى بعيني ما أعرف يقينا أنني سأراه الآن من أسوار وأبراج محترقة وجثث متفحمة لجنود بأسلحتهم فوق الأسوار..

أشار **(زابابا)** لجناحيه وقد عَجَّ كلاهما بفتحات وجروح نافذة وهو يقول:

- ليس بلا ثمن..

- سيتعافى بسرعة وسهولة.. لا تنسَ أنه أحد الأسياد..

صمت (زابابا) قليلا فسأله (نينازو):

- ماذا سنفعل الآن؟ لقد قتلنا (أنو).. وأثار اقتحام (موشوسو) جميع جيوش المدينة.. لا ريب في أنها على أبواب القصر الآن.. ولا أعتقد أن (إينانا) لم تسمع بالخبر وقصرها ملاصق لهذا القصر..

قال (زابابا) مجيبا:

- لا تفلق من جيوش المدينة فهم بدون (إنليل) كجسد بلا رأس.. لا يستطيعون أخذ خطوة بدون وجوده.. كما أن وجود (موشوسو) وما فعله بأسوارهم في لحظات سيجعلهم يفكرون ألف مرة قبل اقتحام القصر.. (إينانا) أيضا لن تفعل شيئا دون الرجوع ل(إنليل)..

ردد (نينازو) بكره:

- إذا ف(إنليل) هو من ننتظره الآن؟

أمسكه (زابابا) من كتفه وقال له ناظرا في عينيه:

- عزيزي (نينازو).. كنت على علم بكل ما كنت تنتويه من عنف للإجهاز على (أنو).. وكان بإمكانني منعك أو على الأقل تحذيرك.. أنت محارب هو الأقوى مملكتنا السماوية ولكن كان ينقصك معرفة شيء مهم وهو ما جعلني أتريث قبل الشروع في الإطاحة ب(أنو).. كان بإمكاننا اغتيال (أنو) منذ زمن أو على الأقل المحاولة ولكن ما منعنا من هذا دوماً هو الارتباط العجيب بين عالمنا السماوي وعالم البشر.. ما الفائدة من السيطرة على عالم محكوم عليه بأن يختل توازنه في أية لحظة نتيجة تصرف أحد البشر الأدنى؟ ولماذا سنتكبد عناء المحافظة على استقرار عالمين في حالة سيطرنا على أحدهما؟ يبدو الأمر وكأنك ستكون حاكما لعالم ومعلم لتلاميذ جهلة من عالم ثانٍ بالإكراه حفاظا على عالمك.. وهذا ما لم يروقني قط.. وهذا ما جذبني بشدة في كل ما قاله (أنو) للأسياذ من قبلنا.. لقد زال الارتباط وأصبح بإمكاننا صنع عالمنا الجديد بدون الأخذ في الاعتبار ذلك العالم الأدنى..

قال (نينازو):

- أتفق معك.. ولكن لي خطط لعالم البشر ستعجبك للغاية يا سيدي..

قال له (زابابا):

- استغل تلك الكائنات الأدنى كما تريد.. ولكن الأولوية الآن لبدء الحرب للسيطرة على عالمنا السماوي.. (إنليل) و(نينورتا) و(إينانا) لن يقفوا مكتوفي الأيدي..
ثم أشار له قائلاً:

- ولنترك (الوركاء) الآن ونعود لمدينتنا بعد أن منحنا أهل (الوركاء) ذكرى مفزعة لن ينسوها ما حيوا وستجعلهم يرتجفون عند بدء الحرب المواجهة ضدنا.. قصر سيد الأسياد تفوح منه رائحة الشواء وبداخله جثة محترقة لصاحب القصر..
برقت عينا (نينازو) بظفر قائلاً:

- هيا يا سيد الأسياد الجديد.. السيد (زابابا) سيد مدينة (كيش) عاصمة (سومر) السماوية الجديدة..

18- ما بعد الاغتيال

(نيبور) السماوية.. أقصى شمال القسم الشمالي..

بأعلى الزقورة الحجرية شاهقة الارتفاع وحيث استقر معبد السيد (إنليل)، وفي حجرة جانبية مخصصة كان (إنليل) نفسه جالسا القرفصاء متربعا على الأرض الحجرية الملساء، ممسكا كئارته بيده اليسرى وقد تراقصت أصابع يمينه على الأوتار لتنتج عزفا جميلا ينافس طيور (سومر) السماوية والبشرية أيضا.. كان مغمض العينين وقد اندمج بكل حواسه في العزف.. تتطاير أطراف أصابعه على الأوتار فتتحرك شفتاه كالمسحور فتتلامسا لوهلة ثم تنفرجا عن آخرهما لوهلة أخرى.. تنقبض ملامح وجهه لتُسفر عن تكشيرة حادة ما تلبث أن تنمحي بفعل ابتسامة عريضة بفم مغلق الشفتين.. يتمايل يمينا ويسارا وكأنه يرقص مع اللحن الشجي الحالم.. توقف عن العزف لحظة وهو يكمل اللحن بدندنة ذات نَسَقٍ معين بصوت مسموع فيفتح عينيه هنيهة قبل أن يكمل إغلاقهما وتعاود أصابعه العزف.. إنها غرفته الخاصة التي يهرب فيها من هموم عالمه ويتحرر من جسده ويتحول لروح خفيفة تنهل من ألحان ملائكية من كئارته التي يجيد العزف عليها منذ نعومة أظافره كما تعلم من أساتذة الموسيقى وأتقن تعلمه وصار يعزف بعينين مغلقتين وكأنه يرى مكان الأوتار بعقله وحواسه وليس بنظره..

(الوركاء) السماوية.. معبد (إينانا)..

انتبهت (إينانا) لصوت صيحات يأتي من بعيد.. كانت جالسة بشرفتها الملكية تتأمل صفحة الماء الساكنة وقد شردت تماما ولم تعد تفكر في أي شيء.. حتى انتزعتها من شرودها الخاوي الممتع تلك الأصوات التي بدت أشبه بأصوات استغاثات وآلام.. نظرت جيدا أمامها لترى قصر السيد (أنو) شامخا كجبل راسخ.. ألفت النظر يمينا ويسارا فرأت جميع الأسوار البيضاء وبوابات (إينانا) الزرقاء على حالها بدون سوء.. تعجبت بشدة وهي تتساءل ما الذي يحدث بمدينة (الوركاء) الآن؟ سمعت صدى دق خطوات (نينشوبور) المسرعة خلفها قبل أن يتوقف الصوت ويحل محله صوتها المنزعج يستأذنها في ولوج الشرفة فأذنت لها (إينانا) لتندفع (نينشوبور) تعدو بانزعاج وهي تسأل ملكتها:

- هل أنت بخير أيتها السيدة (إينانا)؟

أومأت (إينانا) برأسها إيجابا بدون أن تنطق فوضعت (نينشوبور) يمينها على صدرها وهي تتنفس الصعداء متممة:

- كنت قلقة بشدة..

ثم نظرت حولها في كل الأرجاء وأصوات صيحات الرجال تتصاعد وتترايد حدة وقد بدأت تمتزج بأصوات انهيارات وسقوط أحجار بكثافة، وبدأت تلوح في الأفق أدخنة بيضاء وأخرى سوداء مصدرها خلف قصر (أنو)، وصل الحكيم (ماندانو) في نفس اللحظة و(إينانا) تتساءل بصوت مسموع:

- لو حدث هجوم على مدينة (الوركاء) سيكون من الشمال أو الشرق وسيمر على قصري أولا.. لماذا تأتي الأصوات وكذلك ينبعث الدخان من جهة الغرب خلف قصر السيد (أنو)؟

استأذن الحكيم (ماندانو) في الدخول قبل أن يدخل ناظرا بقلق للدخان المتزايد من خلف القصر وهو يردد بدهشة:

- من الذي يجرؤ على الهجوم على مدينة سيد الأسياد!؟

أشارت له (إينانا) بتسليم نحو أطراف الدخان التي بدأت تغزو السماء وهي تقول بمرارة:

- لقد حدث الهجوم بالفعل أيها الحكيم..

تدخلت (نينشوبور) متسائلة:

- وأين جيوش المدينة؟

أجابها الحكيم (ماندانو):

- تتمركز أغلب القوات بالأسوار الشمالية والشرقية حيث يُتوقع أن تأتي أية جيوش غازية.. بينما تضعف الحراسة غربا حيث لا توجد إلا صحاري ويمكن بسهولة كشف أي هجوم من مسافة بعيدة جدا والتصدي له بسهولة وأيضا استنفار باقي القوات لهذه الجهة..

ثم أضاف ودهشته تتزايد:

- لا يمكن لأي جيش أن يخترق أسوارنا الغربية بمثل هذه السرعة والكفاءة..

قالت (إينانا) بغیظ:

- أصوات الانفجارات وكذلك سحب الدخان قد وصلت القصر الآن.. مهما كان هذا الجيش فهو على أبواب قصر السيد (أنو) الآن..

قالت (نينشوبور) مندفعة وكأنها تذكرت الآن فقط أمرا شديد الأهمية:

- اليوم هو موعد مقابلة السيد (أنو) مع سيدي مدينة (كيش).. هذا يعني أنهما في خطر أيضا..

نظرت لها (إينانا) قائلة بعصبية:

- أو قد يكونا هما المديران لما يحدث..

ردد (ماندانو) بتفكير عميق:

- ولكن كيف؟ كيف نجحوا في اختراق الأسوار الغربية بمثل هذه السرعة والقوة؟!!

تراجع الثلاثة بحركة واحدة مفاجئة لما برز أطراف جناحين ضخمين بلون أخضر وقد انبعثت ألسنة من نيران ولهب من بينهما وامتدت لداخل القصر، صاحت (إينانا) بذعر:

- ما هذا أيها الحكيم؟

راقب (ماندانو) بخوف شديد طرفي الجناحين الخافقين باستمرار حول ألسنة اللهب وهو يقول ببطء:

- إنه سيد وحشي.. أحد الأسياد القدماء الوحشية التي نسمع عن وجودها كأساطير خرافية..

قالت (إينانا) بسرعة صائحة:

- يجب أن نتدخل بسرعة لإنقاذ السيد (أنو)..

قال الحكيم (ماندانو) ولهجته لا توحى بأن فزعه يسيطر عليه:

- هناك أقاويل بين السماويين عن أن هناك بين الأسياد من نجح في ترويض بعضا من الأسياد الآخرين المتمثلين في هيئة وحشية حيوانية.. عدد تلك الأسياد الوحشية المروّضة يمكن عدّه على أصابع اليد الواحدة.. أحدهم يُدعى (موشوسو) وهو من يقال أن أحد أسياد (كيش) قد هزمه وسخره لخدمته..

سألته (نينشوبور) وهي ترتجف:

- وكيف يبدو هذا الوحش؟

نظر (ماندانو) بقلق للنيران المتصاعدة وهو يغمغم:

- يقال أنه تنين أرقط عملاق ينفث النيران من منخريه! هكذا وصفته كتب الأقدمين.. ولو كان الأمر كهذا فلن تتجح أسوارنا ولا جنودنا في رده.. أملنا الوحيد للنجاة هو سرعة الهرب قبل أن يمتد الهجوم علينا ونحتمي بالسيد (إنليل) بمدينة (نيبور)..

سألته (إينانا) بأمل:

- وماذا عن حارس غابات (الوركاء) الوحش (خومبابا)؟ أليس هو أيضا سيد وحشيّ؟

هز (ماندانو) رأسه بحزن مجيبا:

- رغم قوته ولكن يظل (خومبابا) أحد الأسياد الوحشية غير المروّضة.. لا يطيع أمرا ولا يتحرك بدون رغبته وليس له ولاء لأحد.. هو فقط يعيش بالغابات ويقتل كل من يقترب منه..

قالت (إينانا) متفكرة:

- لهذا أتى الهجوم من الغرب ليتجنب الاحتكاك به..

توقف صوت النيران وزادت كثافة الأبخرة السوداء لحد كبير.. ثم فجأة ارتفع الوحش (موشوسو) طائرا للأعلى ليرى الثلاثة بأعين مذعورة التنين المهلك بحجمه العملاق وجناحيه المفردتين لعنان السماء، واستطاعوا أن يروا سيدين يرتديان رداءً عسكريا كاملا يمتطيان ظهره.. تتم (ماندانو) بكرهٍ بالغ:

- إنهما (زابابا) سيد (كيش) والمحارب (نينازو) مروّض الوحش (موشوسو)..

تحرك قطيع الأسود المتوحشة الذهبية الرابض أمام بوابة قصر (إينانا) وقد برزت له أجنحة ليتوقف تماما أمام الشرفة الملكية ليحمي سيدته (إينانا) التي سألت (ماندانو) بتوتر وهي ترى التنين وراكبيه وقد توقفوا فوق قصر السيد (أنو):

- هل هذا هو الوقت المناسب لاستخدام الهالات الإلهية؟ لدي اثنتان..

أشار لها **(ماندانو)** بالتحلي بالصبر وهو يركز بصره على المشهد الذي لم يصفه له أحد من قبل.. المشهد الذي يظن أنه سيكتبه للأجيال القادمة متمنيا عدم اتهامه بالإغراق في الخيال.. حيث تجسد أحد الأسياد الوحشية المروّضة بالعالم السماوي.. قبضت **(إينانا)** على حافة الشرفة المزينة بالفسيفساء الملون- بقوة وقد اطمأنت نسبيا بوقوف قطيع الأسود لحمايتها.. أمسكت **(نينشوبور)** بكتفي **(إينانا)** وهي لا تدري هل هي تحميها أم تستمد منها مزيدا من الاطمئنان.. في تلك اللحظة ألقى عليهم **(زابابا)** و**(نينازو)** نظرة مباشرة قبل أن ينعطف التنين غربا ويحلق بسرعة تاركا المكان مطلقا زئيرا مرعبا سمعه كل سكان مدينة **(الوركاء)**..

(نيبور) السماوية..

توقف **(إنليل)** عن العزف لما دخلت عليه **(إينانا)** كالعاصفة المنطلقة من عقالها، وضع كئنا رته جانبا وهو يتراجع للخلف قليلا ليأخذ شهيقا عميقا وهو يرى **(إينانا)** تقف أمامه ودموعها لا تتوقف عن الانهمار على وجنتيه وهي تردد:
- لقد قتلوه..

أخذها **(إنليل)** بين يديه وقلق عامر يعتريه وهو يسألها برفق:

- ماذا حدث يا ابنتي؟

أجابته وسط دموعها:

- اغتالوا السيد **(أنو)**!

نظر لها **(إنليل)** بدهشة متعاطمة وهو يكرر وكأنه لم يسمع جيدا:

- اغتالوا من؟!

احتضنته **(إينانا)** بقوة وهي تبكي، فربّت **(إنليل)** على ظهرها برقة وقد انفجر بركان هائل من غضب بداخله بعد أن استوعب الخبر، كان يشعر بابنته **(إينانا)** التي لم تكن يوما تهتم بأمر **(أنو)** بل على النقيض من الآن لم تكن ترى فيه إلا السيد المتخاذل الذي يهرب من أعباء الحكم ويلقي بها كلها على كاهل ابنه **(إنليل)**.. ولكن بعد أن أظهر أمر رسالته وأنه رسول من الله الواحد الأحد، وأن تأمّله لم يكن إلا لمحاولة التقرب من الخالق ومعرفة الحقيقة، وهو ما كافأه عليه الخالق بأن أرسل إليه وحيا ليبلغ الرسالة لكل الأسياد وعوام **(سومر)** السماوية.. حينها بدأت **(إينانا)** تشعر به وتحترمه وتستجيب لرسالته بدون نقاش.. بل ورأت فيه رمزا للسيد الذي يرتقي

فوق الجميع والذي ألقى على كاهله حملٌ هو أكبر بكثير من حمل حُكم (سومر) السماوية.. والآن حدث المحذور وكان نتيجة جهره بالرسالة هو أن تم اغتياله..

مسح على شعرها وهو يحاول كتمان مشاعره ويسألها بهدوء يخفي بداخله سيلا من الانفعالات:

- من الذي فعلها؟ وكيف؟

استرسلت وقد بدأت تهدأ قليلا:

- لقد جاء بأحد الأسياد الوحشية المروّضة.. تنين هائل تسلل من الصحراء الغربية ودمّر الاسوار الغربية للمدينة وأسقط جنودها ثم أحال قصر السيد لنيران مستعرة قبل أن يفرّ بسيديه..

كرر سؤاله بشيء من الحدة:

- من هما؟

أجابته على الفور:

- سيد مدينة (كيش).. السيد (زابابا) ومعه المحارب (نينازو) مروّض التنين..

جزّ (إنليل) على أسنانه غضبا.. كانت مدينة (كيش) تقع شمال مدينته مدينة (نيبور).. بينما تقع مدينة السيد (أنو) مدينة (الوركاء) بالجنوب.. لقد قطع القاتلان مسافة طويلة من شمال المملكة لجنوبها لتنفيذ هذه المهمة.. مهمة سترفع من اسميهما كثيرا بالمملكة كونهما استطاعا اغتيال سيد الأسياد بمدينته بعقر داره وبقلب قصره.. الخطوة القادمة لهما الآن بالتأكيد هو إعلان مدينة (كيش) عاصمة للمملكة وبدء شن الحروب على كل من يرفض الاعتراف بهذا.. وسيغترفان من خيرات المدن السماوية كلها.. الوضع خطير ويحتاج للاتصال ب(نينورتا) بشكل عاجل وبدء حشد الجيوش والاستعداد للهجوم قبل الدفاع..

قاطعت (إينانا) حبل أفكاره وهي تسأله وقد هدأت بشكل شبه كامل:

- لماذا لم يهاجم سيد (كيش) سكان المدينة؟ ولماذا لم يدفع الوحش لحرق باقي الأسوار والدفاعات؟

تنهد (إنليل) وهو يجيب:

- يحتاج المدينة سليمة فهذا سيفيده أكثر بكثير من إبادة أغلب أهلها.. يحتاجهم أحياء ولكن مذعورين فيذعنوا لأوامره المستقبلية ويعطونه وهم صاغرون ما يطلبه من ثمرات ومواشي وأصواف.. ويشاركون في تكوين جيشه لو أراد يوما ما..

ثم صمت قليلا وقد تنبه لشيء ما وأضاف:

- وربما خشيا أن يقترب وحشهما من البوابة الشرقية فيستفز الوحش (خومبابا) وحينها تدور معركة ستكون لحد كبير متكافئة بين وحشهما المروّض ووحش غابات (الوركاء) غير المروّض..

تمتتم (إينانا):

- هذا رأي الحكيم (ماندانو) أيضا..

هز رأسه نافضا ما علق بذهنه من أفكار سلبية.. واعتدل بحركة سريعة نشيطة وهو يقول ل(إينانا):

- لديك هنا معبدك ومكتبك.. يمكنك الاستقرار بأي منهما.. وكذلك يمكنك بالطبع المكوث بقصري إن أردت.. اعتبريه منزلك الثاني..

شدت قامتها وقد نفضت عنها كل الخوف الماضي وقد طلّت نظرات القوة والتحدي مجددا من عينيها قائلة:

- أشكرك يا أبي.. سأستقر مؤقتا بمعبدي بالقسم الجنوبي..

صمت لحظة.. وهو يسألها باهتمام:

- ما زلت تتابعين الملك البشري (حمورابي)؟

- أيامه قاربت على النفاد ولكنه يملك هالة إلهية بالتأكيد..

قال لها باهتمام متزايد:

- اهتمي بهالته هو ونسله.. اجمعي أكبر عدد ممكن من الهالات المقدسة.. سنحتاجها كثيرا في الحرب القادمة..

أومأت برأسها موافقة إياه، ثم تحركت لتغادر الغرفة لكنها توقف مترددة لوهلة وقد أعطت ظهرها ل(إنليل) ثم قالت بدون أن تنظر نحوه:

- سننتقم له..

صحح لها قائلا:

- سننتقم له!

تتهدت بارتياح قبل أن تفرد زوجًا من الأجنحة وتغادر المكان محلقة نحو معبدها بالجنوب..

بدا وجه **(إنليل)** مربدا بشكل واضح وهو يتجاوز غرفات معبده بخطى متعجلة، الأمر خطير ولا يحتمل التهاون، مدينته -مدينة **(نيبور)**- ليست محصنة بما يكفي لمواجهة هجوم من سيد **(كيش)** **(زابابا)** ومحاربه **(نينازو)** والوحش المصاحب له، لا بد من الاعتماد على جيوش **(نينورتا)** ووجوده الشخصي لتأمين المدينة، لا يعلم هل سيلجأ حاكم **(كيش)** للهجوم الآن أم سيتريث قليلا ولكنه يعلم جيدا أنه كلما مر الوقت كلما زاد استعداد دفاعات مدينة **(نيبور)** مما سيجعل **(زابابا)** يعجل بالهجوم.. من يدري ربما كان ل**(زابابا)** خطط أخرى ولكن في كل الأحوال الاحتياط واجب.. خرج **(إنليل)** من بوابة معبده الواقعة على قلب الزقورة شاهقة الارتفاع، ألقى نظرة من علو على مدينته العظيمة.. مياه النهر المتفرع من **(دجلة)** المترقرة كخط متعرج على مد البصر.. الأراضي الخضراء التي تحيط بالنهر من الجانبين ويرتاح البصر من إمعان النظر إليها.. عشرات المعابد الحجرية والمنازل الفخمة للكهنة حوله تنتشر على شكل دوائر مركزها الزقورة التي يرتقي قمته الآن.. مدّ نظره لأقصى الجنوب ما بعد الأراضي الخضراء والنهر فلم يستطيع أن يرى سوى قمة المكتبة العظيمة وما خلفها من أسوار عالية.. مدينة مقدسة صممت فقط لأغراض سلمية هي أقرب لمدينة للتأمل وليس لصد الهجمات وإطلاقها.. ربما لهذا أقام **(نينورتا)** بها وجعل معبده بها رغم اتصاله بالجيوش التي تستقر كلها بمدينته الرئيسية **(ماراد)**، فكان **(نينورتا)** يقيم ب**(نيبور)** جاعلا لقائده جيوشه **(إيرا)** مستقرا دائما بمدينة **(ماراد)**..

أشار **(إنليل)** للسحب المواجهة له فتحركت بناءً على رغبته لتستقر بين قدميه فتحرك ووقف فوقها، ثم جعلها تتحرك به لتنقله على الفور لمعبد **(نينورتا)** بالجنوب.. طارت السحابة وتزايدت سرعتها تدريجيا حتى صارت كالعاصفة وتعبر بسرعة فوق المعابد ثم منازل الكهنة ثم منازل البسطاء، عبرت بعدها الأراضي الخضراء قبل أن تحلق فوق مياه النهر الرقراقة، ثم عادت لتطير فوق الأراضي الخضراء الجنوبية.. ظهرت قمة المكتبة ثم ظهرت المكتبة بكامل شكلها نصف الدائري وقد أخفت من ضخامتها جزءا كبيرا من معبد **(إينانا)** خلفها، أكملت السحابة اتجاهها جنوبا وسط صفوف المنازل حتى ظهر المعبد الأسود العظيم ل**(نينورتا)** يقابل المصب النهري الضخم، فخفضت السحابة من سرعة طيرانها وهي تتوقف ببطء أمام الباب الرئيسي للمعبد.. ترجل **(إنليل)** من السحابة لتثبت قدماه على الأرض الحجرية.. خطا خطوتين حتى توقف أمام نحت ضخم لدرع دائري بداخله يرقد سيف مائل تطل ذبابته للأرض، رمز **(نينورتا)** وجيوشه، فحدثته نفسه بأنه قد حان وقت اختبار **(نينورتا)** وجيوشه كما لم يحدث من قبل.. وجد حارسين مدججين بالأسلحة على مدخل المعبد شاهري سيفيهما، لما رأى كل منهما **(إنليل)** خفضا سيفيهما وخفضا بصرهما احتراما وأحدهما يقول بصوت منخفض:

- السيد **(إنليل)**.. السيد **(نينورتا)** ليس هنا..

سأله (إنليل):

- هل هو ب (ماراد)؟

أوما الحارس برأسه إيجابا وهو يجيب:

- نعم يا سيدي..

تذكر (إنليل) الآن ما قاله له (أنو) في آخر لقاء جمعهما معا عندما جاء ذكر (نينورتا) فقال (أنو) بأنه سيكون مشغولا هذه الفترة ولن يأتي، لقد كان (أنو) يعلم، ولكنه يحتاج (نينورتا) بشدة الآن، أولى الحارسين ظهره وهو يستدعي سحابة جديدة أمرا إياها بنقله بسرعة لمدينة (ماراد)..

انتقل (إنليل) بسرعة متجها للغرب نحو بوابة (إينانا)، عبرها بسرعة ليلمح على الفور أسوار (ماراد) شديدة الارتفاع والتحصين بأبراجها الشامخة المملوئة بالجنود والرماة.. عبر من بوابتها الشرقية ملوحا لمن رأوه من جنود، ورأى بوضوح صف من الجنود متأهبا بمحاذاة السور خارج المدينة فأيقن أن (نينورتا) على شفا خوض حرب وشيكة.. وهذا ما لم يكن يتوقعه أو يتمناه في توقيت مثل هذا..

طارت السحابة لارتفاع عال حتى تصل لقمة الزقورة التي يجثم معبد (نينورتا) على قمته، ثم حطت أمام المعبد فنزل منها (إنليل) مسرعا وهو يهرول ليدخل المعبد عبر فراغ يتوسط دائرة ضخمة منقوشة من الحجارة تمثل درع (نينورتا) وسيفه المائل للأسفل، أفسح له حراس المعبد الطريق باحترام فانطلق يعبر الممر الطويل المفضي لقلب المعبد حيث كان (نينورتا) جالسا مع (إيرا) يتناقشان في أمور الحرب القادمة..

بمجرد أن لمح (نينورتا) يدخل والغضب يكاد يثب من عينيه تراجع خطوة للخلف بدون أن ينطق متوقعا الأسوأ، بينما انحنى (إيرا) انحناء خفيفة له متمتما:

- أهلا بالسيد (إنليل)..

حرك (إنليل) رأسه ليرد تحيته ثم التفت نحو (نينورتا) قائلا بلهجة هادئة لا توحى بمحتواها المزلل:

- لقد اغتال (زابابا) السيد (أنو) بقصره..

19-حقيقة الخديعة

(أور) السماوية..

جلس الكاهن الأعلى يتربع الرمال الصفراء بقلب معبده، كان يعطي أحد كهنة معبده –(معبد (أور)- بعض التعليمات الجديدة بخصوص كيفية توزيع ما يتم تحصيله من ضرائب من سكان (أور) للمعبد، والتي اقتضت تصدير نسبة بسيطة لمدينة (لارسا) بحجة اتفاقية تجارية جديدة، بالطبع لم تكن هناك اتفاقيات ولكنها كانت فقط بداية العهد الجديد من تحكم (لارسا) ب(أور) من خلال المعبد.. رسم الكاهن ابتسامة دبلوماسية على شفثيه عندما دلف كاهن ثان منحنيا برهبة، أشار له الكاهن الأعلى بالاعتدال والتحدث فقال له:

- أتحدث نيابةً عن كل كاهني معبد (أور).. أتقدم ببالغ تهنتي لسيادتكم للنجاة من ذلك الحادث الأثيم.. وأتمنى أن يكون الحال بالمعبد قد عاد لسابق عهده بعد الفوضى العارمة التي اجتاحت قلب المعبد..

هز الكاهن الأعلى رأسه بامتنان قائلاً:

- أحسنت صنعاً.. جزيل الشكر لكم..

صمت الكاهن لحظة قبل أن يقول بتردد سائلاً:

- نريد فقط من سيادتكم معرفة الطريقة التي ستدار بها أمور (أور) السياسية بعد تغير الحال..
وأكمل بتلعثم:

- أعني بعد عودة السيد (سين)..

أشار له الكاهن الأعلى ليعفيه من مزيد من الحرج قائلاً:

- لا عليك.. لا عليكم جميعاً.. الوضع جديد ومربك نوعاً ما.. ولكن لا بد من فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية.. لا بد من أن يتفرغ كلُّ لما هو موجود من أجله.. المعبد فقط من أجل تحقيق التوازن بين عالمنا وعالم البشر.. هذا هو شغل الكاهن الأعلى الشاغل بما تمتع به من قدرات سحرية.. بالإضافة لتجميع الضرائب والهبات الموجهة للمعبد وتوزيعها على غير القادرين وتصدير ما يفيض عن الحاجة، وذلك عن طريقكم –الكهنة- بعد العودة إلي.. ما عدا ذلك من أمور سياسية وعلاقات خارجية وقيادات الجيش سيعود لمعبد السيد (سين).. كفانا اختلاط بين الإدارتين ولنكتف بعملنا..

هز الكاهن رأسه عدة مرات موافقا، وتردد لحظة قبل أن يقول بدون أن يرفع عينيه ليواجه الكاهن الأعلى:

- وهل سيظل مهندس المعبد بمنصبه بعد ما حدث يا سيدي؟

أجابه الكاهن الأعلى على الفور:

- يقال على الفور.. له مسؤولية مباشرة بعد ما حدث.. ولولا قدراتي السحرية التي مكنتني من كشف عملية الاغتيال لكن هو من سيلام على مقتلي..

اتسعت عينا الكاهن بفرع وهو يتراجع للخلف متمتما بذعر:

- أمر سيدي.. سأحرص على إبلاغه الأمر بنفسي..

صاح به الكاهن الأعلى موجها راحة يمينه للأمام:

- لا أريد مزيدا من الزوار لليوم سوى في حالات الطوارئ القصوى.. تول أنت أمر المعبد ككبير للكهنة..

لم يبدو على وجه الكاهن الذي ترقى للتو وصار كبيرا للكهنة أي علامات تفيد بهجته بما حدث وبدا وكأن كل همه هو مغادرة قلب المعبد، لم يتعجب الكاهن الأعلى مما حدث وتابعه بعينيه حتى غادر، ثم أشار بأصابع يديه للباب الصغير المفضي لغرفة قلب المعبد التي يكمن بها فتكون حاجز أسود شديد القتامة منع تماما من الخارج من رؤية ما يحدث بالداخل، ثم تنفس الكاهن الصعداء وهو يتخلى عن تشكله الخارجي ليعود لشكله الأصلي كقرد أحمر مشعر قصير، **(ميرميكال)** أو سيد الأشكال.. الساحر الأريب الذي بإمكانه اتخاذ أي شكل أراد لأي كائن، بالإضافة لقوة سحر لا يستهان بها جعلته ندا لكاهن الأعلى ل**(أور)** ومكنته من شل قدراته السحرية لفترة وجيزة كانت كافية للإطاحة به، وكذلك كان يمتلك قدرات قتالية كمحارب لا يشق له غبار كما ظهر بقلب المعبد..

كان خطة **(شمش)** الماكرة قد بدأت للتو.. صار يتحكم بالمعبد وخيراته عن طريق سيد الأشكال.. بالإضافة لكسب ولاء سكان **(أور)** وجعلهم يدينون بالطاعة للسيد **(سين)** والذي صار الآن يملك جيش **(أور)** ويستطيع تحريكه كيفما شاء، بما لا يتعارض مع مصالح **(لارسا)** بالتأكيد.. بإيجاز أصبحت **(أور)** مجرد تابع ل**(لارسا)**.. تم الاحتلال والغزو الناعم بدون خسائر تُذكر في الأرواح.. ولو كان العالم السماوي عادلا بما يكفي لتم نصب تمثال ل**(كاليوم)**، المحارب الوحيد الذي خسرت **(لارسا)** في هذه الحرب ذات طابع الخديعة بشكل أساسي..

قام (ميرميكال) بصنع كرة مضيئة بحركة من أصابع يديه، ثم نفخ فيها فتجسد وجه (سين) متغضن الملامح من خلالها بشكل ثلاثي الأبعاد وكأنه موجود معه بالغرفة، ابتسم (سين) بقسوة وهو يقول:

- أخيرا انتهت زيارتك يا سيد الأشكال..

ابتسم وجه القرد فبدا أكثر بشاعةً وهو يقول:

- اعذرني أيها السيد فما زلت أحاول إعادة تنظيم أمور المعبد بما يصب في مصلحتنا ومصلحة السيد (شمش)..

اقترب وجه (سين) أكثر وهو يقول:

- لا تقلق وارسل ل(شمش) كل ما يريده فخيرات (أور) لا تنضب..

- بدأت بالفعل تكوين خط إمداد تجاري من (أور) ل(لارسا).. لا بد وأن السيد (شمش) يتناول الآن ما لذ وطاب من فواكه (أور) التي لا مثيل لها بعالمنا السماوي كله..

- بالتأكيد.. ولكن ما أظن أنه يقوم به بالفعل هو بعيد كل البعد عن الدعة والراحة..

قال (ميرميكال) بخبث:

- لا بد وأنه في اجتماع مغلق الآن مع السيد (بونيني) يفكران في كيفية اختراق (إيريدو).. واستدرك بسخرية:

- وكلاهما يتناولان فاكهة (أور) بالطبع!

تجاهل (سين) محاولة (ميرميكال) الفاشلة للمزاح وقال بصرامة:

- كان احتلال (أور) سلميا سهلا بالخديعة.. ولكن (إيريدو) تختلف..

قال (ميرميكال) بشراسة:

- السيد (إنكي) حكيم بما يكفي ليصعب خداعه.. ومتمرس بالسحر المائي لدرجة غير مسبوقه.. لا أستبعد أن يكتفي السيد (شمش) ب(أور) كمكسب لا يستهان به..

أطلق (سين) ضحكة ساخرة وهو يقول:

- (شمش) الذي أعرفه لن يتوقف قبل أن يسود جنوب العالم السماوي بأكمله.. لقد بدأ بالفعل و(أور) ليست إلا البداية..

صمت (ميرميكال) وقد تخلى عن سخريته المعتادة قبل أن يقول شاردا:

- ولكن أي عدوان منه على (إريدو) وسيدها (إنكي) يعني تدخلنا في هذه الحرب بلا شك..

سأله (سين) مستهزئاً:

- هل تخاف (إنكي)؟ كما كنت تخشى كاهن (أور) الأعلى من قبله رغم أنك هزمته في لحظات بمنتهى السهولة..

سارع (ميرميكال):

- لا بالطبع لا أخاف (إنكي) ولكني لا أقلل من قدراته، كما أنني لم أخشى الكاهن الأعلى الغابر قبله وإنما فقط قمت بتقييمه كما ينبغي، أكبر خدمة من الممكن أن أقدمها لخصمي هي أن أقلل من شأنه وأفترض تفوقي المسبق، ستكون هذه هي الخطوة الأولى نحو هزيمتي، الكاهن الأعلى لم يكن خصماً هيناً قط، ولو أتاحت له فرصة اكتشاف المخطط في منتصفه لما نجوت أنا، ولما نجحت أنت في أن تصبح سيد (أور).. لا توجد حرب سهلة بكل المقاييس ولكن توجد حرب تم الانتصار بها بسبب حسن الاستعداد وبراعة دراسة الخصم بمواطن قوته وضعفه..

لوح له (سين) بيدٍ ظهرت واضحة أمام وجهه بضجر وهو يقول له:

- لا تشغل بالك الآن بالماضي أو المستقبل.. استمتع بمكسب اليوم على الأقل..

أوماً له (ميرميكال) برأسه مؤمناً قبل أن يحرك أصابعه فتتلاشى كرة الاتصال السحرية على الفور، وإن ظلّ مطرقة يفكر بعمق في كيفية النيل من (إنكي) وسحره المائي إن حدثت الحرب بينهما بالفعل..

في هذه اللحظة وبمكان مخفي تحت الأرض غير بعيد عن المعبد كان كبير الكهنة الذي قد ترقى للتو من (ميرميكال) يقول بعصبية مواجهها ثلاثة من الكهنة:

- إنه ليس هو.. أقسم على هذا..

قال له أحدهم:

- أتفق معك على أنه أصبح مختلفاً في طباعه ولكن لا تنس أنه قد نجا لتوه من محاولة اغتيال كادت تودي بحياته..

أضاف ثانٍ متضامناً مع رأي رئيس الكهنة:

- وماذا عن إبعاد أغلب الكهنة من خاصته عن المعبد ومنهم من نقسم على أن ولاءه يستحيل أن يكون لغير (أور)؟

قال رئيس الكهنة بشرود:

- ربما لهذا السبب تم إغفأؤهم من الخدمة..

قال الكاهن الثالث:

- ما تقوله خطير ويحتاج لإثبات قوي..

رد عليه كبير الكهنة بسرعة:

- عندي الدليل..

نظر له الثلاثة بتعجب فأضاف:

- لقد استفسرت منه منذ قليل عن مصير مهندس المعبد فأخبرني بضرورة إقالته..

اتسعت عينا الكهنة جميعا وأحدهم يهتف:

- غير معقول.. لا يوجد مهندس للمعبد والكاهن الأعلى بنفسه هو من قام بتصميمه..

صمت الثلاثة صمتا كان وطؤه شديدا عليهم، الأفكار تتواثب بعقل كل منهم كشرارات حارقة ألهبتهأ، إنه ليس بالكاهن الأعلى بلا شك، لقد كان قائد الجيش على حق، والآن تم استبعاده وغرس جاسوس محل الكاهن الأعلى..

قال أحدهم بكلمات ترتجف:

- هل تدرون ما معنى هذا؟

نظر له الباقيون بتساؤل فأكمل:

- أن كل هذا ما هو إلا تخطيط من السيد (سين) لاسترداد مدينته القديمة..

غمغم ثانٍ:

- وقد نجح في هذا بالفعل..

- والأسوأ أنه كسب ولاء العامة جميعا.. ماذا سنفعل الآن؟ أي حركة قد نخطوها ستجعلنا خونة في نظر أهل (أور).. وسيرونا كما رأوا قائد الجيوش المسكين..

غمغم رئيس الكهنة:

- هذا بافتراض أننا سننجو من بطش الجاسوس المتشكل في هيئة الكاهن الأعلى.. لا بد أنه ساحر وقوته شديدة لتمكنه من إتقان خدعة كبيرة مثل هذه بسهولة هكذا وبسرعة..

ثم تجول رئيس الكهنة بعينه بين أعينهم جميعا قبل أن يرتسم تعبير إصرار على وجهه وقال
عازما على أمر ما:

- لا بد للجوء لأحد من الأسياد خارج أسوار (أور)..

تطلع سيد الأشكال - وهو جالس بغرفته بقلب المعبد- لوجه رئيس الكهنة الذي كان يطل عليه
من داخل كرتة السحرية المضيئة، ثم حرك أصابعه لتختفي الكرة وتضيع معها ملامح وجه
الكاهن، وابتسم ابتسامة عريضة مما حدث، لقد نجح الطعم الذي ألقاه لرئيس الكهنة وهو آخر من
كان يشك بأنه سينبش خلفه بعد أن أزاح أغلب الكهنة، الآن نجح في تتبع خطاه بمجرد خروجه
من المعبد وقد أيقن أنه لا بد وأنه سيتوجه لملاقاة من تبقى من كهنة موالين للكاهن الأصلي وما
زالت تنخر الشكوك دواخلهم بخصوص مؤامرة اغتيال الكاهن المزعومة، الآن وقد علم من هم
جميعا بإمكانه سحقهم جميعا، ويا لهم من سذج إذ اعتقدوا أنه بإمكان أي فرد تحت سماء (أور)
أن يكون بمعزل عن عيون وأذان سيد الأشكال، ولكن الحكمة الآن تقتضي منه التأنى والتريث
لحين معرفة السيد المقصود في هذا الحوار والذي لم يفصح أي منهم عن اسمه وكأنه شيء
معروف ضمنا ولا يحتاج لأن يُذكر، ولكن هناك سبب آخر وهو معرفتهم بمدى خطورة ذكر
معلومة كهذه حتى لو كانوا بمنزل آمن.. لذا سينتظرون وينتظر هو معهم.. لا ضير من كسب
الوقت لمعرفة معلومة قد تكون أثمن بكثير مما سيكسبه لو قطع أعناقهم جميعا.. فأطماعه خبيثة
ونكية، لا تعرف حدا ولا تقف عند أحد حتى لو كان من الأسياد..

20-من أجل (إينانا)

ما أنتِ إلا موقد سرعان ما تخدم ناره بالبرد..
أنتِ باب لا ينجح في صدّ ريح عاصفة..
أنتِ قصرٌ يتحكم بداخله الأبطال..
أنتِ بئرٌ تبتلع غطاءها..
أنتِ حفنةٌ قيرٍ تبلل صاحبها..
أنتِ حذاءٌ تقرص قدم منتعلها..
فأيّ من عشاقك أحببت للأبد؟
وأيّ من رعائك طاب لك على الدوام؟

(مما قاله (جلجامش) ل(إينانا) بالنص السومري لملحمة (جلجامش)..)

(الوركاء) السماوية..

(لقد رأيت الملك (حمورابي) ميتاً!)

شهقت (نينشوبور) عندما سمعت ما تلفظ به الحكيم (ماندانو).. كان الحكيم جالسا على الأرض واضعا رأسه بين كفيه ونظرة أسي تطل من عينيه، بينما وقفت (نينشوبور) أمامه وقد شلتها المفاجأة.. فقد كان الحكيم يولي أهمية متابعة (حمورابي) كل اهتمامه، وهذا يعني أنه أصبح مرتبطا به لدرجة تجعل أحلامه التي يراه فيها نبوءات لا تخطئ.. كما رأى (سرجون الأكادي) من قبل وأشار ل(إنليل) برأيه في احتمالية أن يكون من أصحاب الهالة الإلهية، أصبح الآن مكلفا بمتابعة (حمورابي) لاقتناص هالته المحتملة بواسطة سيده (إينانا)، ولكن أين هي (إينانا) الآن؟ لقد اتجهت من فورها بعد اغتيال (أنو) وتدمير جزء كبير من أسوار المدينة باتجاه الشمال نحو (نيبور) مدينة (إنليل) لإخباره بالجريمة البشعة التي حدثت.. لا يعلم أي منهما متى ستعود أو هل ستعود أم ستسقر هناك مؤقتا، لا بد من أن تعلم (إينانا) وإلا ضاعت فرصة سيندر أن تتكرر قبل مئات من السنين..

سألت (نينشوبور) بقلق:

- كيف سنخبرها؟

أجاب الحكيم (ماندانو) هازا كتفيه بدون علم:

- لا أدري حقا كيف أفعلها.. أنت تعلمين أنا من طبقة الأنوار وهي تعلق العامة من السماويين والبشر ولكني لا أزال لست من الأسياد لأتمكن من طي المسافات بطرق خارقة كما يفعلون.. تفردي فقط هو في قدرتي على تتبع أي من البشر بعقلي ورؤيته بمنامي رؤية حقيقية.. وقدرتي على إرسال رسائل الأسياد لعقله سواء نائما أو مستيقظا.. وهذا ما جعل السيدين (إنليل) و(إينانا) يوكلاني بمهمة تتبع الهالات الإلهية..

سألته (نينشوبور) بنفاد صبر:

- ماذا سنفعل إذا؟

قال مفكرا:

- لا يمكننا الاعتماد على أي من أسياد المدن القريبة.. لا أستطيع الجزم بأنه لن يطمع في الهالة الإلهية لنفسه.. خاصةً وأن أقرب الأسياد من مدينة (الوركاء) هو سيد مدينة (لارسا) السيد (شمش) وهو ليس بمن تجمعه بنا أية صلة سواء طيبة أو عداوة.. ولكن شخصيته الطموحة للحكم ونزعتة للسيطرة لا تخفيان على سماوي..

سألته (نينشوبور) بلهفة:

- وماذا عن مدينة (إريدو)؟ ليست بعيدة..

رد الحكيم:

- السيد (إنكي).. حسنا لنفكر قليلا.. هو عادل بما يكفي وليس ممن يقومون بالغزوات على جيرانهم منذ القدم.. يملك ب(إريدو) جيشا قويا ولكن للمحافظة على سلام وازدهار مدينته وشعبه وليس للغزو.. ولكن..

حك رأسه بسبابته بحيرة مضيافا:

- ولكني لا أدري حقا تأثير معرفة وجود قوة خارقة كهذه على أي سيد مهما كان..

انهارت (نينشوبور) لتخر جالسة بجانبه وهي تقول بيأس:

- هل ضاعت الفرصة على السيدة (إينانا) إذا؟

صمت الحكيم وبدأ يفكر بعمق، تابعت (نينشوبور) صمته وشرود بصره بأمل، كانت تؤمن به وبحكمته والتي جعلت سيدة مثل (إينانا) تجعله ساعدا أيمن لها وتعطيه أفضلية الرأي والمشورة، لطالما وجد حلا لكل ما واجهته (إينانا) من معضلات، وتأمل أن يستطيع في إيجاد حل وبشكل سريع لهذه المشكلة..

نطق الحكيم بعد حين يقول وكأنه يتحدث مع نفسه:

- لقد تحدث السيد (أنو) قبل مماته وقال أنه لم يعد هناك اتصال بين عالمنا وبين عالم البشر..

أومأت (نينشوبور) برأسها موافقةً إياه بصمت، فأكمل رغم أنه لم يكن يحدثها:

- وسمعت السيدة (إينانا) طرفا من حديث بين (حمورابي) ومنجم (بابل) بخصوص سرقة سحر سماوي للأرض..

ثم نظر نحو (نينشوبور) فجأة وهو يسألها:

- أتذكرين ذلك اللص الذي كان يسرق أغراضا من الأرض؟

استرجعت (نينشوبور) بذاكرتها شابا قصير القامة طويل الشعر سريع الحركة رشيق، كان قد استطاع النفاذ من الحاجز بين العالمين وسرقة بعض الأغراض النادرة من الأرض غير متوافرة بالعالم السماوي مما كاد يخرب التوازن بين العالمين لولا أن تم اكتشاف تسلله أثناء عودته وتم إعادة ما سرقه وسُجن هنا ب(الوركاء).. كم كان هذا اللص غيبا لظنه أنه سيفلت من السيد الموكل بمراقبة الحاجز ما بين العالمين، الثعبان الخفي (ماشيلاما)، والذي يقف حارسا طيلة حياته عند مخرج عالما السماوي سواء لمن يتجه لعالم البشر أو للعالم السفلي.. كان هذا اللص بارعا بما يكفي لتمكنه من الخروج بدون أن يلاحظه الحارس (ماشيلاما)، ولكن كشفه ما سرقه من أغراض أثناء عودته فقبض عليه الثعبان وكاد يقتله لولا عطف السيدة (إينانا) عليه وإشفاقها من مصيره وطلبها بان يُسجن كأسير حرب بدلا من أن يُقتل.. فهذا هو الآن حيا يرزق بسبب (إينانا) ولكن.. لماذا يسأل عنه الحكيم (مائدانو)؟

أجابت الحكيم بحذر:

- أتذكره جيدا.. اسمه (زاموك).. لقد حضرت حواراه القصير مع السيدة (إينانا) بعد جلبه مسلسلا بواسطة الثعبان (ماشيلاما).. لم يفصح لها عن سر تمكنه من التسلل في غفلة من الثعبان الحارس معتذرا للسيدة بأنه لو ذكر السر لهلك على الفور..

قال لها الحكيم:

- سنجعله يسرق لنا غرضا من الأرض.. بل وسنساعد في اجتياز الثعبان (ماشيلاما) أثناء عودته..

ثم قام ونشاط مبالغت يدب بأوصاله، و بدون أن يخبر (نينشوبور) أي تفاصيل قال بحماس:

- هيا لنتجه لسجن (الوركاء)..

وأمام حجرة السجين (زاموك) ذات الجدران الثلاث الحجرية والبوابة ذات القضبان المعدنية، وبعد أن فتح لهم حارس البوابة وتراجع للخلف قليلا لحماية الزائرين من أي تصرف هجومي غادر من السجين، كان (زاموك) متكئا على كتلة من صوف بدت مهترئة من كثرة وطول الاستعمال، التقطت أنفه مزيج من عطر (نيشوبور) وبخور الحكيم (ماندانو) قبل أن يراهما، فلما وقعت عيناه عليهما بهيئتهما المترفة لمعت بإثارة شاعرا بشيء جلل قادم إليه، فقام من فورهِ مصدرا في وجهيهما ابتسامة واسعة أظهرت أسنان صفراء قدرة، فألقى عليه الحكيم نظرة سريعة، وقال له ملمحا لامتلاء جسده ومشيرا لكتلة الصوف:

- تلاقي معاملة حسنة هنا..

انحنى (زاموك) بشكل درامي للغاية فبدا أقصر مما هو قصير بالفعل، وقال مطأطئ الرأس بخضوع:

- الفضل لذلك يرجع لفضل السيدة (إينانا).. لم تكتفِ بإنقاذ حياتي فقط وإنما قامت بتوصية تجعلني لا أعامل كاسير حرب بالفعل..

ثم اعتدل بطء مضيئا:

- كل ما شعرت به هو أنني مجرد ضيف وتم إحسان استقباله..

قال له الحكيم مباشرة:

- وقد حان الآن وقت رد الجميل لسيدتك..

انتبه (زاموك) بكل حواسه وهو يقول:

- كلي رهن إشارة سيدتي (إينانا).. ولكن..

تردد وهلة ثم أضاف بانكسار:

- ما الذي قد يفيد السيدة من لص مسكين مثلي!؟

غمغم الحكيم بغموض:

- الكثير..

ثم اقترب منه ومال بشفتيه نحو أذنه هامسا حتى لا يسمعه الحارس:

- نريد منك سرقة شيء من الأرض..

سأله (زاموك) بدهشة:

- أرض البشر؟!!

حدق الحكيم إليه بعينين لائمتين لما تفوه به بصوت مرتفع أثار انتباه الحارس، فاحمر وجه (زاموك) خجلا وقال بتلعثم:

- اعذرنى يا سيدي.. انعزالي عن الناس أفقدني حسي الاجتماعي وحذري..

قال الحكيم بصرامة:

- أتمنى ألا تكون قد فقدت حسك كلص.. سنحتاجه كثيرا..

شد (زاموك) قامته القصيرة باعتداد فبدت هيئته مضحكة وهو يقول:

- سيدي.. كان بإمكانى الهرب منذ البداية ولكنى أقمت احتراما لفضل السيدة (إينانا) علي..

تدخلت (نينشوبور) في الحوار لأول مرة مقاطعة إياه بسخرية:

- احتراما لسيدتك أم أن لصا مثلك لن يجد مأوى فيه طعام وشراب مجانيان كهذه الحجرة؟!!

خفض (زاموك) نظره ولم يعلق، فسارعت (نينشوبور) بتوجيه الكلام للحارس بلهجة أمرة قائلة وهي تخرج رقيما طينيا صغيرا جافا من ملابسها يتألق بأسفله الختم الأسطواني الخاص بالسيدة (إينانا):

- أمر العفو عن السجين ممهورا بختم السيدة (إينانا)..

رفض الحارس التقاط الرقيم قائلا باحترام بالغ:

- لا أحتاج أوراق رسمية لتسليمك السجين سيدتي (نينشوبور) وسيدي الحكيم.. وجودكما يكفي..

شكره الحكيم على حكمته وحسن قوله وفعله، ثم اقتاد (نينشوبور) و(زاموك) خارجا من مقر تجمع أسرى الحرب الأشبه بسجن صغير ولكن نظيف.. تجاوزوا حزام الحراس المحيط بالسجن و(زاموك) يقول بانفعال:

- اشكرا سيدتي (إينانا) بالنيابة عني.. سأعطيكم معلومات تفيدكم عن قصورات شديدة بنظم الحراسة كنت سأستعملها للهروب من المكان بسهولة لو أردت..

أشار له الحكيم بالتروي والصمت وهو يسرع في خطواته، تتبعه (نينشوبور) ثم (زاموك)، لم يتجه الحكيم لقصر (إينانا) وإنما اتجه مباشرةً لقصر (أنو) الذي كانت ما تزال النيران تنهش سقفه، كانت ثلة من الجنود قد أحاطت بالقصر كالسوار في إجراء احترازي لأي تطور عنيف جديد قد ينشأ، فتوقف الحكيم عندما لمحهم متمتما:

- بهذه السرعة!

ثم انعطف ليأخذ مساراً جديداً وخلفه تابعاه يجدان في تتبعه، عبر عدة بيوت خاصة بالكهنة قبل أن يتوقف عند منزل بعينه وهو يأخذ أنفاساً متتالية بإرهاق من كثرة ما سار على قدميه، فقالت له (نينشوبور):

- أنا أعلم هذا المنزل.. إنه منزلك..

قال الحكيم ودقات قلبه بدأت تنتظم:

- نعم.. ولكني نادراً ما أتواجد به.. نذرت كل حياتي لخدمة سيدتي (إينانا) بقصرها..

ثم أشار لحديقة متوسطة الحجم غناء وهو يقول لهما:

- ولكني أرسل من يهتم بأشجار الحديقة يومياً.. سنجلس هناك ونتحدث..

سبقهما.. تبعته (نينشوبور) وهي حتى هذه اللحظة لا تفهم ما الغرض من إخراج اللص (زاموك) من سجنه.. بينما لم يكن يشعر (زاموك) سوى بمتعة أخذ أنفاس الحرية وهو يمتع عينيه بألوان الأشجار والأزهار اللامعة التي لم ير مثلها منذ سنين.. تربع الحكيم بمنصف الحديقة فحذا كلا من (نينشوبور) و(زاموك) حذوه وجلسا أمامه.. فأخذ نفساً عميقاً قبل أن يسأل (زاموك):

- لعلك تسأل نفسك ما السبب في هذا الكرم الشديد الذي دفع السيدة (إينانا) لتحريرك؟

أوماً (زاموك) برأسه إيجابا بصمت بينما ردت (نينشوبور) نفسها قائلة:

- أنا أيضا أريدى أن أسأل نفس السؤال..

استرسل الحكيم قائلا:

- حسنا.. لدينا معضلة.. هناك رسالة شديدة الأهمية لابد أن تصل للسيدة (إينانا) خلال بضعة ساعات على الأكثر.. السيدة الآن بمدينة (نيبور).. وهذه الرسالة من السرية لدرجة أنه لا يمكننا أن نأمن عليها أي شخص حتى لو كان أحد الأسياد..

سأل (زاموك) بحذر:

- وما علاقة هذا بي أو بسرقة شيء من أرض البشر؟

أجابه الحكيم وقد تعلقت به أيضا أنظار (نينشوبور) الآن:

- تختلف أرض البشر عن أرضنا بوفرة الحيوانات والطيور والزواحف بشكل واضح.. لديهم أجناس من الحيوانات لا نعلم نحن هنا حتى بوجودها..

- تريد سرقة حيوان من أرض البشر؟!

- بل طائرا!

- لا أفهمك..

قام الحكيم بالتقاط غصن رفيع ملقي على الأرض بجانبه ثم رسم به طائرا مميزا وهو يقول له:

- هذا الطائر يستخدمه البشر في إرسال الرسائل لبعضهم البعض عبر المسافات البعيدة.. مسافات قد تحتاج أيام وشهور لعبورها بالحمير أو البغال.. لعلمهم لم يطورا حاسته هذه بتدريبات كافية ولكنهم لا يعلمون حتى الآن حدود قدراته.. أنا اخترقت عقل أحدها ورأيت كيف يمكنها رسم خريطة بعقلها للمكان المتجه إليها ثم تخترق المسافات وكأنها تسير عبر خطوط مرسومة سلفا في الطبيعة بناءً على ما تم رسمه بعقلها.. وهكذا لو أمكننا رسم اتجاه المرسل إليه بعقل هذا الطائر سنستطيع ربط الرسالة السرية الخطيرة بقدمه وترك السيدة (إينانا) تفضها وتقرأها بمستقرها هناك..

سأله (زاموك) رافعا حاجبيه:

- وأنت تستطيع يا سيدي فعل هذا..

ابتسم الحكيم قائلا بغموض:

- بإمكانني اختراق عقله ورسم خريطة يتجه فيها إلى (نيبور) رأسا.. هذا سهل وربما أسهل مما اعتدت أن أفعله مع البشر لبساطة عقله.. ولكن ما لا يمكنني فعله هو جلب هذا الطائر نفسه لعالمنا السماوي..

ثم ثبت نظره عليه ليرى رد فعله، بينما قالت (نينشوبور) بانبهار:

- لقد وجدت حلا بالفعل أيها الحكيم..

عاد الحكيم ليقول بلهجة ذات معنى وهو يراقب تردد (زاموك):

- لن يصبح حلا إلا لو امتلكننا هذا الطائر بأسرع وقت ممكن.. ما زالت أمامه رحلة سفر جوية ستستغرق وقتا..

قال (زاموك) بحزم:

- سأفعلها من أجل سيدتي (إينانا).. ولكن..

عاد مرة أخرى لتردده الصامت قبل أن يبتزه قائلا:

- ولكني لم أنجح في المرة السابقة..

قال له الحكيم:

- لقد نجحت في الذهاب وفشلت أثناء العودة.. هل ما زال بإمكانك إصلاح هذه الهفوة التي مكّنت الثعبان الحارس (ماشيمالا) من إمساكك؟

رد (زاموك) خافضا رأسه للأرض:

- من المحتمل بدرجة كبيرة أن أنجح ولكني سأحتاج لشخص آخر معي..

ردد الحكيم بدهشة:

- شخص آخر؟

ثم قال بشيء من العصبية متسائلاً:

- من أين يمكننا الإتيان بشخص يملك مهارات توازرك بمثل هذه السرعة؟ وكيف لنا بالوقت ونحن نصارعه حرفياً؟ ناهيك عن اختراقنا لحاجز السرية المطلوب..

قال (زاموك) على الفور:

- لن نحتاج للوقت ولن نعبت ببند السرية..

سألته (نينشوبور) بنفاد صبر:

- وكيف يمكن الجمع بين هذا وذاك؟!

نظر لها مباشرة قائلاً:

- الشخص موجود..

رأت (نينشوبور) كلا من (زاموك) والحكيم يثبتان نظرهما عليها فمال رأسها للخلف بعصبية وهي تستنكر:

- هذا مستحيل.. لو رأيت هذا السيد (ماشيمالا) سأخرّ صعقا وسأفسد عليك خطتك..

سارع (زاموك) بالقول:

- لا تقلقي يا سيدتي الجميلة -اسمحي لي بهذا الوصف لأنه يليق بك- فكل ما ستفعلينه هو أشياء بسيطة للغاية لن تتضمن صراعا أو خطرا..

نظرت (نينشوبور) نحو الحكيم والرفض يملأ محياها الجميل، فرد عليها الحكيم بنظرة كلها تصميم فهمت منها أنه يوافق (زاموك) في فكرته، فقالت بيأس:

- حتى أنت أيها الحكيم..

قال الحكيم موجه حديثه ل(زاموك) بصرامة:

- لا داع لقول أنه ليس من المقبول للسيدة (إينانا) -ولي بكل تأكيد- أن تتعرض وصيفتها لأي أذى..

تأمل (زاموك) ملامح وجه (نينشوبور) بجرأة لمدة ثوان قبل أن يطرق أرضا قائلاً:

- لا تقلق يا سيدي سأحرص على سلامة سيدتي الجميلة أكثر من حرصى على نفسي..
- لم تطمئن (نينشوبور) رغم ما قاله (زاموك) وقالت وهي تنفخ بضيق:
- لا أعترض من أجل مصلحة سيدتي ولكني لا زلت أراها خطوة غير صحيحة..
- اعتدل (زاموك) مبتسما وقد دب نشاط مفاجئ بجسده ومد يده نحو (نينشوبور) قائلاً:
- ما دمنا لا نملك الوقت قلنتحرك الآن!
- نظرت (نينشوبور) نحو يده الممدودة بخوف، فطمأنها الحكيم بلمسة من يده على كتفها مرتباً بأبوة وهو يهز رأسه مشجعاً إياها قائلاً:
- من أجل السيدة (إينانا)..
- شردت (نينشوبور) وذاكرتها تستدعي ملامح وجه (إينانا) في مختلف المواقف، شعرت بحب جارف يعترئها نحوها ممتزجاً بحنين مبالغت لرؤياها، فمدت يدها لتتشابك أصابعها مع أصابع اللص (زاموك) وهي تردد بهمس:
- من أجل (إينانا)..

21- اتفاق مع الشيطان

شد المنجم قامته المسربله بعباءة مقلمة بلونين أرجواني وأبيض، رافعا رأسه التي ارتقت قبعة مخروطية فوقها، مستندا على الرمال الصفراء بعصا خشبية ناعمة رأسها متقوس منقوش عليه صولجان ملتوي الطرف، سقط خيط من الظلال على وجهه نشأ من أحد العمدان الثلاث المقيمة للهيكल البدائي الذي توسطه مذبح حجري قصير كانت تتناثر عليه مياه فائرة من نبع جوفي تترقق مياهه لتفيض على الرمال على الجانبين، وسمع الهمس المنبعث كالفحيح في عقله بصوت (النمرود):

- يمم شطرك يمينا صوب تلك التلة المرتفعة..

نظر المنجم كما أمره (النمرود) فسمع الصوت يكمل:

- بعد أن يتم سفك دماء القربان على المذبح ستتجه نحو ذلك المرتفع.. ستردد صلاة سأقوم بتلقينك إياها ستكون تحفظها عن ظهر الغيب فيما بعد.. سترفع عصاك وتقوم بتقسيم السماء بواسطتها لأربعة أقسام.. ستركز على كل قسم على حدة بصمت ونظرات مسيطرة تجعل الجمهور المهيب المنتظر لا يجرؤ حتى على التنفس.. تنتظر ظهور طيرٍ ما ملاحظا بدقة موقع ظهوره والخط الذي يرسمه المسار القادم منه واتجاه تحليقه للأعلى أم الأسفل حتى النقطة التي يختفي فيها.. ثم تقوم بتلاوة النبوءة بشيرا كانت أم نذيرا على الحشد المحشود.. في البداية سأكون أنا من ألقنك النبوءة وفقا لتحركات الطير ولكنك ستصبح خبيرا في الأمر مع الوقت وستستطيع ترجمة علامات الطير بالسماء بمفردك.. إذا بسطت النسور أجنحتها فهذا فال ازدهار.. تغيير الغرائيق لمسارها وتفقهرها علامة شؤم ومحنة.. كذلك نتف الغربان لريشها نذير عظيم.. السنونو فال سوء والنحيل فال خير.. ثم عليك أن تعود لنبع الماء بعد استقبالك للفال وتلتقط بعضا منه براحة يدك وتصلي عليه لثبقي النذير ثابتا بفعل قوة ماء النبع المقدس..

هز المنجم رأسه بانفعال منتظرا المزيد فأضاف (النمرود):

- سيأتيك المرضى فتقوم بإخراج الشياطين المتلبسين لأجسادهم والمسببة لأمرضهم.. سأعلمك الكلمات السحرية والتعزيمات والصلوات التي تمكّنك من استحضار مساعدة

الآلهة الكبيرة للسيطرة على الشيطان بالدخان أو البخار.. سيكون هناك قرابين شتى من عسل أو بلح أو ثوم أو ذرة أو طلع النخل وجلد الماشية وأصوافها والأحجار الكريمة.. قرابين يجري إتلافها حرقا بالنار لتدمير الشيطان.. ستحرق كثيرا من البخور.. سأعلمك أسماء جميع الشياطين التي ستواجهها.. سيكون هناك تعاويذ ورُقَى وتماثيل من الشمع أو الصلصال وربما قطع من شعر المريض أو بقايا من قلامات أظافره.. ستقوم بقولبة الشمع ليبدو كالشيطان ثم تقوم بتعذيبه بغرز الأشواك أو المسامير أو إذابته بالنار.. أو تقولب التمثال ليبدو كالمريض وتغري الشيطان بتعازيم سحرية ليترك جسد المريض ويحل بهذا التمثال، ثم تحرقه.. سأعطيك حجر نيزكي سماوي له قوة رجم للشياطين ستعطيه للمريض كحجاب.. لو صادفك شيطانا ممن يعيشون بالأشجار ستطردهم بقوة نبتة الطرفاء المقدسة والتي تنتصر عليه حتى لو استخدمت غصنا صغيرا بشرط أن تقطعه من النبتة بمديّة فضية.. ماء النبع المقدس يطرد الشياطين المائية.. ستصرف لمخالطين المصابين تعاويذ من طين يعلقونها على أبواب مساكنهم تقيهم للأمراض ومما هو أشد شرا من الأمراض والشياطين ألا وهو اللامة.. العين المصيبة الحاسدة.. سيمكنك الذهاب بالصداع وشفاء التهاب العينين باستخدام الحبل المعقد.. حبل ثنائي أو ثلاثي ثلاثي اللفات معقود فيه عدة عقد.. عليك أن تعرف أن الدم المراق حديثا يبهج الشياطين ويجذبهم جذب السكر للنمل.. يمكنك طردهم باستخدام روائح معينة.. وعلى النقيض سأعلمك صنع تعاويذ الحب من أدمغة الهداهد وعظام الضفادع.. سيأتي لك الملوك من شتى بقاع الأض لتخبرهم بفألهم ونذيرهم.. بما يستحب فعله وما هو محرم عليهم فعله.. ستصنع التمام الحامية من رؤوس العقيق الأحمر.. ستعلم العامة كيف تقوم بتسمير أشباح الموتى.. فكل قتيل له روح قد تعود للأرض لو لم يتم تسميرها.. لذا يجب دق مسمار لم يتم استخدامه من قبل في موقع جريمة القتل.. وعلى نفس الغرار ستعلمهم أن دق مسمار بالحائط وسط الإصابة بالصداع الشديد يُذهب بالألم..

شعر المنجم بلعابه يسيل لتحل اللفظة محل الخوف الغابر تجاه (النمرود) وتعليماته..
وسأله برجاء:

- عمر قد لا يكفي لتعلم مثل هذه الأمور..

جاءه الرد على هيئة رسوم مرئية رآها تتشكل أمامه كرسوم لحروف مسمارية ثلاثية الأبعاد وأمره **(النمرود)** عقليا بالقراءة، فازدرد المنجم لعابه بحذر جاهلا ما الذي سيحدث عند قراءة الحروف ثم أخذ شهيقا عميقا قرأ بعده ببطء تلك الحروف.. لم تكن تمثل كلمات مترابطة أو مفهومة.. مجرد حروف تم تركيبها لتكوّن كلمات لا معنى لها.. شعر بصوته يتردد بعقله كرطانة أجنبية لا يفهمها ولكنه يشعر بها.. تشوشت الصورة أمامه.. أصبحت الرمال شفافة ورأى بذعر كائنات عجيبة تزحف بأسفلها.. مزيج من أفاع وتماسيح وعقارب وزواحف أخرى لم يرها من قبل.. رفع رأسه للسماء برعب فأصبح السحاب كرات عملاقة كفقاقيع من ماء امتلأت بحيوانات وطيور عملاقة من لا يعلم وما لا يعلم.. مدّ بصره للأمام فرأى أسماك ومخلوقات بزعانف تطل واثبة من مياه النهر القريبة لتحلّق فوق الماء وقد اكتسب وجهها مزيج من ملامح بشرية وحيوانية مخيفة.. أغلق المنجم عينيه كاتما نفسه وشعور عجيب من عدم راحة امتزج بغثيان ألهب معدته بالحمض الحارق فكاد أن يفرغ ما بجوفه.. فجاءه صوت **(النمرود)** يقول:

- رحلات كهذه ترسل لها أعداءك بين مخلوقات خيالية ستصيبهم وتصيب كل من يتجرأ عليك بالجنون.. فقط اقرأ عليه هذه الكلمات أو على أي مشروب أو مأكّل يدخل جوفه..

تمتم المنجم رغما عنه:

- إنه عمل الشياطين!

تجاهل **(النمرود)** تعليقه وأكمل:

- سأعلمك سحر (المصريين).. ستحفظ كتاب الموتى الخاص بهم وتجيد سحرهم المتميز.. ستقوم بشحن التماثيل بالسحر بتلاوة الطقوس الشفهية عليها لتجعلها فعالة.. تماثيل حارسة تدفع شر الشياطين.. وتماثيل لحيوانات تتحول بكلمات السحر لكائنات تنبض بالحياة.. وتماثيل للأعداء يُصَبّ عليها عصارة بعض الأعشاب فتصيبه بسيل لا ينتهي من الكوابيس إلا بالجنون.. ستتعلم صنع القلائد والتمايم المصنوعة من حبل معقود سبع مرات معلق بالأعناق للحماية.. سأعلمك كيف تلفظ اسم الشيطان ثم تبخر

المنخري المصاب بالقار فيتم طرد روح الشيطان الشريرة المتلبسة.. ستري النجوم من خلال (الأوروسكوب) المصري..

ثم أكمل بلهجة مختلفة:

- وسأزرع معك نواة لسحر ليس له مثيل سيحتاج قرونا وقرونا ليتزرع ويصبح له قواعد ومريدين.. سيكون سحرا يضح بالأضاحي والقرابين.. ستكثر به الدماء وسيتعين عليك مشاطرة الأرواح طعامها لتصبح شريكا لها.. ستكثر من التبخير وإضاءة الشموع.. ستحتفظ دائما معك بمدية ذات مقبض أسود.. سيكون لديك مكتبة كاملة من سلطانيات زجاجية تحوي أشربة سحرية.. سأعطيك سر الاسماء الغامضة التي تمكّنك من التواصل مع الأرواح.. ستستخدم بلورة سحرية لاستحضارها.. ستفهم أن قوة التعزيمات تتضاعف بالتكرار.. ستستخدم لغة مختلفة يختلف فيها ترتيب الحروف وجمعها عن اللغة المعتادة.. ستري ارتباط بعض الأرقام بالسحر وستعرف أن بعض الأرقام مقدسة.. فرقم أربعة مقدس لتطابقه من فصول السنة وعناصر الخلق الأربعة.. العدد خمسة مقدس ويدفع السموم فالحواس خمسة.. العدد سبعة مفعم بالجلالة فالأيام والكواكب والألوان سبعة..

ثم أضاف:

- كل هذا سيسير جنبا إلى جنب مع تلقينك كامل علل الجسد التي لها علاج مادي من مخلوط أعشاب وسوائل سحرية.. فعليك أيضا أن تكون طبيبا باطنيا حاذقا، وإن اقتضت الحاجة أن تنسب العلة الجسدية لعمل الشياطين فافعل هذا بشرط أن تستطيع التفرقة بينهما فلا تتخدع بما تخدع به العامة واجعلهم يسرعون بمرضاهم إليك.. كن أنت ساحر القبيلة الشافي المعافي..

لمعت عينا المنجم من هول ما يسمعه فعاد (النمرود) لسيرة أمثلة السحر:

- ستتعلم كيف تصنع المحبة بتمثال مزيج شمع وصمغ وزفت لكلب وتكتب عليه كلمات القوة ثم تضعه تحت نُصْب ثلاثي القوائم.. فإن فشل فبطريقة تمثالين متجاورين للاله المرجو وللشخص المطلوب للحب.. مع طريقة أخرى لا تخيب باستخدام خصلات من شعر الشخص المراد ملفوفة حول حية سامة مميتة ثم تجمع مع أوراق نبات السرو الجنائزي المقتلعة من فوق قبر ثم حرق المخلوط مع ريش البوم الصيَّاح وبعض

الأعشاب المختلفة.. إذا وضعت عش صغار (السنونو) بصندوق ودُفن فلدى نبشه بعد أيام ستجد أن بعض الصغار نفق ومناقيه مغلقة والبعض الآخر نفق كما لو كان يلفظ أنفاسه.. ستستخدم هذه الأخيرة لإثارة الحب بينما الأولى للعكس.. كما ستتعلم كيف تفرق بين المرء وزوجه.. سأعلمك رجم الغيب بواسطة الماء والمرأة.. وأيضاً بواسطة الشعلة المضيفة حول أوعية ممتلئة بالماء.. سيقوم الملوك باستدعائك في الحروب لمداواة جروح محاربينهم ولإلقاء تعاويذ مهلكة على أعدائهم.. سيكون بإمكانك شلّ أطراف وحواس وتفكير من تشاء وجعله يبوح بأدق أسرارهم.. ستكون قادراً على صنع نوم سحري بأنغام قيثارة.. وكذلك بواسطة أعشاب النوم التي لن يعرف سرها غيرك.. ستري المستقبل من خلال مرآة مصقولة من النحاس عبر غمامة من الدخان..

ثم صمت الصوت قليلاً ليعود مكماً بقوة:

- ستنمي قوة ملاحظتك لأبعد الحدود.. فعندما تغادر الوحوش الجبال والطيور أوكارها فهذا ينذر بشتاء قارس.. نقيق الضفادع يسبق الطاعون.. نعيب البوم بالقرب من منزل به مريض ينبئ بقرب تماثله للشفاء..

هز المنجم رأسه عدة مرات ورعشة لا تتوقف تسري بكل جسده، بدأ يفهم ما الذي يعده هذا (النمرود) ليحوله إليه، لن يكون مجرد ساحر أو كاهن أو عراف أو حتى طبيب، لن يكون مزيجاً من كل هذا فقط، بل سيكون أشبه بالرعيّل الأول لجيل كامل سيتوارث هذه المعرفة المحرمة على مر الأجيال، جيل سينقله لكل جيل يليه وربما يجد جيل ما من يضيف إليه، وربما -خطر على باله الآن فقط- جاء كائن آخر مثل (النمرود) وأضاف لإرثه المزيد..

سأل المنجم بحروف تقطر وجلاً:

- هل يوجد من يملك هذه المعرفة بين البشر غيري؟

أتاه الرد بشكل غير مباشر:

- أتجول بالأرض منذ عصور.. أقمت حيناً بالشرق وسيظنون يتذكرونني دوماً باسم (زوروستر) أو (زرادشت).. منهم من سيجعلني نبياً مرسلًا ومنهم من سينعتني بالساحر الناري.. حلت بأحد ملوككم حيناً من الدهر.. سأجلس معك بعض الدهر ثم

أخلق للغرب.. زمنكم سريع للغاية أيها البشر مقارنةً بزمنا ويجب أن أستغل هذا.. لن يلاحظ وجودي أحد إذ أنني أتنقل بين صفحات التاريخ بعدة أوجه وشخصيات.. وإن بدأت معك أنت أيها البشري أول خطواتي الصريحة والواضحة والمعلنة لنقل السحر وليس سرا كما فعلت من قبل..

صمت المنجم وهلة مترددا قبل أن يسأله:

- لا يبدو سحرك وكأنه خرج من نفس مشكاة سحر قدماء الكهنة العتيق.. هل ينتمي سحرك لسحر السيمين الهابطين من السماء واللذان قاما بتحدي قدماء الكهنة هؤلاء وعلموا العوام السحر المضاد؟

ردّ عليه الصوت راجفا:

- لا يوجد نذ لسحري بالأرض ولا بالسماء.. هل تفهم هذا؟

ثم أضاف بهدوء مثير:

- لكل ميزة تأتي تبعات.. ولكل نقاط قوة لابد من اتفاقية.. سأعطيك كل ما يجعلك أقوى البشر بلا منازع وأجّد شبابك حتى حين أقوم أنا بتحديد.. كل هذا مقابل نشر عبادة الإله (مردوخ) لكل البلاد والعباد.. لا أريد شبرا بأرضكم الحقيرة إلا ويكون فيها معبد أو هيكل يُذكر فيه اسم سيد الآلهة (مردوخ)..

وبينما كان المنجم يؤمن موافقا بهزة من رأسه كان (النمرود) يضيف بنبرة مهددة جمدت الدم بعروق المنجم:

- ولا داع لتذكيرك بأن فشلك في تنفيذ الشق الخاص بك يعني بطلان الاتفاقية وحرمانك من قوتك وشبابك وحياتك نفسها..

همهم المنجم بكلمات مبهمة فعاد (النمرود) يقول وكأنه يستكمل استرساله بعد بتره:

- سأجعلك قادرا على خلق المراهم السامة فقط بمزج بعض الأعشاب مع الدهن البشري.. ومراهم أخرى تسبب الهذيان وأخرى تسكن الآلام.. ستستطيع إصابة من تريد بسبات طويل أو ذهول دائم فقط بلمسة من المرهم لطرف إصبعه.. وسيكون لديك الترياق المضاد لكل من هذه المراهم السحرية..

ثم أضاف:

- أما عن الرجم بالغيب فستستخدم عصا الصفصاف وشجرة الطرفاء للتنبؤ بالمستقبل.. سأعلمك خلط السهام وهي طريقة سيحبها الملوك خاصة لقراءة الغيب.. سأضيف لما تعلم من قراءة الأحشاء والأكباد لتعرف ما لا يعرفه غيرك.. سنتقل للقرون استخدام القداح.. ستقرأ الحاضر والمستقبل على سطح بللورة من أحجار كريمة رائقة.. وكذلك بالتحديق للماء والحبر السائل.. ستتعلم الضرب بالرمل والتكهن بالحجارة والحلقات الذهبية.. سيكون أعظم ما تتعلمه هو التكهن بالنار بالإضافة لقراءة خطوط الكف.. هناك تنجيم من نوع خاص ستستخدم فيه الديكة.. هناك تنجيم بتفسير الأحلام والرؤى.. صمت (النمرود) طويلا حتى ظنه المنجم قد ذهب، ثم ارتجف بعنف مع صيحته التي اخترقت سمعه وعقله:

- أغلق عينيك الآن تراني!

أغمض المنجم عينيه برعب بدون تفكير.. رأى سوادا يغوص في سواد.. ظلام عجيب لم ير له مثيلا من قبل.. ولحظات ثم تخلل الظلام بصيص من ضوء شاحب أضاء على استحياء ليظهر ما يشبه كائنا جالسا على كرسي.. دقق المنجم النظر أكثر فلمح وجهها شبه حيواني على رأسه قرونا سوداء كالتاج.. ومن مؤخرة عنقه تبرز قرون.. ومن مقدمة رأسه برز قرن وحيد طويل ملتف.. شعر المنجم بالرعب فاضطر لفتح عينيه لتلطم وجهه إضاءة الشمس الساطعة ولكنه لم يغلق عينيه رغم ألمه لخوفه من الظلام الذي رأى فيه قبسا من ملامح وجه سيده (النمرود)..

أنته ضحكة ساخرة بصوت (النمرود) قال له بعدها:

- إذا أردت لقائي شخصيا مرة أخرى سترسم دائرة بنثر الجير حولك ثم ترسم بمداد من دم الحمام اسمي كما سأعلمك كيف تكتبه.. وتضع سبعة تماثيل للاله (مردوخ) على أطراف الدائرة وقم بتبخير نفسك بمزيج الصندل الأحمر وبذور الكتان والمرّ والزعفران.. أتيك من فوري.. ولو لم تكتب اسمي كفتك هذه الدائرة من أي خطر وشر مهما كان..

ثم صاح به:

- انظر لسبابة يملك!

نظر المنجم ليده فبوغت بخاتم ملون يطوق سبابته.. خاتم لم يكن موجودا من قبل..
تحسسه بأصابع يسراه فشعر بمزيج من نحاس وحديد عليهم نقوش بارزة بحروف غير
مفهومة.. وصوت (النمرود) يوضح:

- سيدفع عنك الشر ما دام اتفاقنا ساريا.. ومن حدق إليه قليلا برأ من أي داء.. ومن
أطال النظر إليه هلك من فوره!

ثم قال بلهجة ختامية:

- والآن وقد عرفت مستقبلك معي.. باستطاعتك القبول أو الرفض.. قبورك سيوثق
بقطرات من دمك على خاتمك الحامي.. رفضك سيوثق بقذفك للخاتم للأفق..

لم يتردد المنجم وهلة.. كان قد حسم أمره منذ البداية.. لمعت عيناه بطمع وشهوة وهو
يحك طرف سبابة يسراه بالخاتم ليحدث جرحا صغيرا تقاطرت منه الدماء على الخاتم
بدون أن يشعر بأي ألم مطلقا.. فشرب الخاتم الدماء على الفور وشعر بصرخة
(النمرود) الشرهة تردها الجبال والسموات والأراضين وكل المخلوقات خلفه وقد
أظلمت السماء رغم سطوع الشمس:

- تم الاتفاق!

22-مغامرة بالبرزخ

هو: اتركي حواسك ولا تتكلمي كثيرا.. أصبح أن من يتفرغ لصحبة النساء كمن يدخر الريح!؟

هي: سيدوم إخلاصي لك ولتكن الإلهة (إينانا) شاهدة عليّ.. وسيبقى حبي مشرفا ويكون الخجل نصيب من افتري عليّ..

هو: أصبح ما تقولين؟

هي: أنا متمسكة بك وسأوفق بين مقامينا بالدعاء للآلهة وسأحصل على رضاك كهدية لي للأبد..

هو: سأحيط بك كالسياح وأجعلك محمية بي..

هي: ستصيب الآلهة من يكرهك.. ستأخذه بالأرق وتلقي به في الليل دون معين..

هو: لن أصغى لأحد سواك..

هي: صرت أتحسس مواطن جمالي وفتنتي.. لقد غدت شفتي العليا رطبة والسفلى مرتجفة.. سأعانقك وأقبلك.. وأنداك سأنتصر على من افتري عليّ وأعود سعيدة للبيت.. أقسم لك بالآلهة أقول لك ما اشعر به نحوك.. فحبك يعني عندي الكثير..

هو: إن ملامحك فاتنة كما عهدتهن.. سأقف لجانبك وأسند رأسك عليّ يا من كان اسمك حبيبي وما زال..

(ترجمة نص شعري رومانسي بابلي قديم)

(كنت طفلا لا يحب المكوث ببيته.. قضيت جلّ وقتي بالخارج ما بين اللعب مع أقراني وبين بعض المغامرات الفردية.. خلب لبي منذ نعومة أظفاري تجميع الأشياء النادرة والغامضة.. حلمت -كما حلم جميع أطفال عالمنا- بالعثور على أحد أغراض عالم البشر ذات القوى السحرية بعالمنا.. ولكنه ظل حلما للجميع مستحيل المنال.. باستثناء الطفل (زاموك).. أنا..)

ضجت (نينشوبور) من ثرثرة (زاموك) ولكنها لم تصارحه بهذا، اكتفت بالتظاهر بالإنصات إليه بينما كان يشغل بالها كنه ما ستواجهه من أخطار، وقد أثارها بقدر ما أخافها فكرة أنها ستتواجد بعالم البشر، ليس لثراء عالمهم ولكنه مجرد الانتقال من عالم لآخر، وكأنه خيال وسيصبح واقعا ملموسا ومحسوسا..

أخرجها من أفكارها بعنف هزة بسيطة من يد (زاموك) لكتفها، فارتجفت ناظرة له باستنكار فتراجع بذعر وهو يشير لها قائلاً بانفعال:

- اعذريني يا سيدتي الجميلة ولكني أحدثك ولا أجد منك ردا فظننتك قد شردتني.. ونحن الآن على أبواب مغارة الحرير..

رددت (نينشوبور) بدهشة وهي تلقي النظر أمامها:

- مغارة الحرير!

كان (زاموك) قد قادها عبر دروب معقدة بمنطقة جبلية عند أطراف (الوركاء)، منطقة لم تطأها قدماها من قبل ولا تظن أنها قد مرّت عليها حتى مصادفةً.. رأت أمامها مرتفعا ضخما رمادي اللون أشبه بكُرةٍ ضخمة ويقع أسفله تجويف متوسط الحجم يسمح بمرور شخصين متجاورين يبدو أشبه ببوابة لمغارة داخل المرتفع الكروي.. سألت بتعجب وهي تقترب من البوابة ليبدو قبس من مكنون المغارة في التجلي لها:

- ولماذا سميتها بهذا الاسم؟ مغارة الحرير؟ ما معنى هذا الاسم؟

أشار لها بالتقدم لتعبر البوابة وهو يجيبها:

- إنه اسم لنوع من الأقمشة يتواجد بعالم البشر.. اسبقيني بالدخول وسأفهمك كل شيء.. سيدتي الجميلة..

انحنت (نينشوبور) غريزيا رغم ارتفاع أعلى البوابة الحجرية لتعبر بداخل المغارة وتلاها (زاموك) على الفور، ألقت نظرة سريعة على المكان الذي كان أكثر اتساعا ورحابة مما بدا عليه من الخارج، وكأن المغارة لا تتكون فقط من المرتفع الكروي وإنما تتصل باطنيا بمرتفع آخر مجاور، كانت الأرض شبه ممهدة مما يوضح اعتناء (زاموك) بها، تناثرت بضعة قناديل زيتية على الجدران فلونت المكان بلون أصفر بدد الظلام المفترض وجوده ونشر جوا من الطمأنينة والدفء بداخل هذا المكان المنعزل

المهجور، وبالغت (نينشوبور) في أفكارها وهي تتأمل جدول صغير من الماء يتترقق
بمنتصف المغارة محدثا صوت هدير خفيف محبب للسمع ففكرت في أن هذه المغارة
تصلح كبقعة للاستجمام والراحة النفسية والانعزال عن ضجيج الحياة الخارجي..
وجاءها صوت (زاموك) يقول مستكমা آخ ما قاله خارج المغارة:

- تعلمين بالطبع أن من أبرز اختلافات عالمنا - نحن والبشر- هو وجود بعض المواد
كالمعادن والأقمشة وغيرها بعالمهم والتي غير معروفة بعالمنا.. وقد يمر عمرا
وينقضي لأحدنا دون أن يعلم حتى بوجود أحدها إلا لو امتلكه أحد الأسياد أثناء تجواله
بين العالمين.. هذه المواد عبورها لعالمنا يكسبها قوى سحرية خارقة لا تملكها بعالمها
الأصلي.. هكذا علمت من تجربتي مع مادة الحرير والتي هي بعالمنا لها قدرة سحرية
بينما بعالمهم ليست إلا سترا من البرد أو مظهرا اجتماعيا على الأكتاف..

نجح (زاموك) في جذب انتباهها فسألته بفضول:

- وما القوة السحرية التي يملكها هذا الحرير؟

لم يرد عليها (زاموك) على الفور وإنما اتجه للجدار المقابل، ومدّ يده خلف ثنية من
صخرة ضخمة ليخرج بيده وقد تعلقت بها قطعة من حرير بلون وردي يكاد ينطق
بالحياة، فانسعت عينا (نينشوبور) بانبهار وهي تتطلع لهذه القماشة السحرية القادمة من
عالم آخر، ومدت يدها لتحاول لمسها بأطراف أصابعها وهي تسمع (زاموك) يجيبها
ببطء:

- الحرير هو المادة السحرية التي تجعلك تنتقلين لعالم البشر!

بمجرد تلامس أطراف أصابعها للحرير وإحساسها بمدى نعومته اقشعر جسدها
وارتدت يدها بسرعة وقد جفلت مغممة:

- إنه بارد! ولكنه شديد النعومة..

ابتسم (زاموك) بزهو وهو يقول لها:

- برودته تكمن من موضعه خلف الصخرة والذي جعله بعيدا عن أي دفء.. إنه يأخذ
حرارة الجو المحيط.. ولكن لندعنا من خواصه الظاهرية.. ثم أدار قطعة الحرير بين
يديه وهو يقول:

- لمّا وجدتها علمت منذ أول وهلة بمدى تفردّها.. اعتقدت بوجود قواها الخارقة ولكني لم أعرف كيف أستخدمها.. حتى تمكنت بالصدفة البحتة وبعد عدة محاولات من استكشاف كيفية استغلال قواها السرية..

ثم استطرّد:

- كل ما عليك هو استخدامها كنطاق.. فقط قمت بلفها حول جذعي وبمجرد أن قمت بإحكام عقدة ربطها وجدت نفسي خارج حدود العالم..

سألته بانبهار متزايد:

- صف لي رحلتك..

رقص فؤاده مع مرآه لانفعالها الطفولي فقال بابتسامة عريضة والانفعال يغمره:

- اختفت المغارة وكل ما حولي لأجد نفسي بمكان أشبه بالفراغ التام.. لا أصوات ولا روائح ولا موجودات.. فقط كان هناك سماء دائية بيضاء اللون تعج بحركات كالت موجات.. وما عدا تلك السماء لا يمكنني وصف أي شيء أو أي لون آخر.. وكأنه الخواء المطلق.. فككت عقدة ربطة الحرير لأجد نفسي وقد عدت مجددا للمغارة.. وهكذا فهمت قواعد الانتقال ببساطة.. ربط وفك العقدة.. كثرت انتقالاتي التي بدأت تكتسب طابعا استطلاعيا حاولت فيها سبر أغوار ذلك المكان.. حتى باغتتني ذات يوم طاقة من نور شديد البياض بدا وكأنه الخلاص من هذا التيه الأبدى.. ولكنني فقدته بسهولة ولم أتمكن لأيام بعدها من استعادته ثانية..

سألته (نينشوبور):

- ولكنك لم تنتقل بعد لعالم البشر.. ما تصفه يبدو كبرزخ بين العالمين..

وافقها بهزة من رأسه وهو يقول:

- هذا صحيح.. قضيت بعدها مئات المحاولات فشلت فيها كلها في أن أتعدى ما هو أبعد من ذلك البرزخ للوصول لتلك الطاقة الساطعة.. فكرت بأنها لا بد وأن تكون المخرج المؤدي لعالم البشر.. حتى جائتني الفكرة كالحلم أثناء غفوة بالمغارة.. فسارعت بالانتقال عدة مرات متتالية على مدار أيام متواصلة حتى تيقنت من صحة نظريتي..

تلك التموجات بالسماء هي كالنجوم بعالمنا.. مكانها ثابت ويصلح كنقاط يمكن وصلها ببعضها لصنع علامات تصلح كخريطة للسماء.. وهكذا وعلى مدار فترة طويلة كنت أرسم خريطة سماء البرزخ.. أنتقل وأنقل التموجات الدودية لعقلي ثم أعود للمغارة لأسارع بنقشها.. وهكذا تمكنت بعد مثابرة وجدّ وصبر من رسم خريطة شبه كاملة لسماء البرزخ..

قالها وهو يشير بفخر لنقش على الجدار المواجه لم تستطع (نينشوبور) فهمه قبل أن يقص عليها (زاموك) هذه الحكاية المذهلة، فصفت بيديها كالأطفال وهي تصيح:
- يا لها من خطة.. أدهشتني حقا يا (زاموك)..

تحسس (زاموك) بأطراف أصابعه التعرجات والتموجات اللانهائية على الجدار وهو يشعر بالثمن الذي دفعه من عمره ليخرجها إلى النور، وتطلع بفرحة غامرة لثناء (نينشوبور) شاعرا بأنه ولأول مرة يرى جدوى لكل ما بذله من جهد لصنع هذه الخريطة، وكأنه فقط صنعها من أجل هذه اللحظة.. ثم أكمل بعينين مغمضتين:

- وهكذا تمكنت من تحديد موقع تلك البوابة التي تفضي لعالم البشر كما ظننت وصدق ظني.. تمكنت من حفظ إحدائيات ذلك التوهج بمجرد حدوثه.. ثم توجهت نحوها محلقا كأني أحد الأسياد.. كنت أعطي الأمر لجسدي فيتخلى عن مكانه ليحلق عاليا متجها نحو الاتجاه المطلوب.. وهكذا وجدت نفسي أخترق طاقة الضوء الساطع وأعبر ما بين العالمين..

ثم انبعث بريق من عينيه وهو يكمل و(نينشوبور) تتابعه بكل جوارحها:

- ما أشبه عالمهم بعالمنا.. صدقا ولولا ثقتي بعقلي لظننت أنني انتقلت فقط ببقعة أخرى من عالمنا.. نقلني البرزخ لمدينة (الوركاء) البشرية.. وكأنها نسخة مطابقة لوركائنا.. فقط مبانيهم ومعابدهم أصغر حجما.. ولم أر أو اسمع عن وجود أي من الأسياد بينهم.. وإن كانت أسماء أسيادنا معروفة هناك ويؤلّهونهم ويتبركون بهم.. متّعت حواسي بكل المواد العجيبة التي يملكونها.. سافرت مسيرة أيام وليال حتى أستطيع رؤية ولمس الحديد.. المعدن الذي يقال أنه يجرح الأسياد ويملك القدرة على قتلهم.. جلبت العديد منه.. كذلك جلبت قطع أخرى من الحرير حتى يصبح لدي قطعة بديلة في حال فقدت القطعة الأصلية.. رأيت ولمست وشممت ما لم أره بعالمنا من قبل قطّ ولم أحلم حتى

بوجوده.. شعرت بالغيرة مما يتمتع به هؤلاء البشر ولا يقدرونه أو حتى يشعرون به يومياً..

قاطعته (نينشوبور) هامة:

- ولكنهم قبضوا عليك في النهاية!

امتعض وجه (زاموك) وهو يقول:

- لجهلي بما كنت أخوضه يومياً باستهانة.. عبّر أحد الأسياد ذلك الممر -الذي يمثل سمائي- فتحرّكت معه التمعجات الدودية لتتغير علامات النجوم التي كنت أقتدي بها.. تغيرت السماء.. عدت من إحدى الجولات بالعالم الآخر لأجد نفسي بالبرزخ ثانيةً عوضاً عن العودة مباشرة لعالمنا.. فقد كنت معتاداً أن أجد نفسي بعالمنا بمجرد نزع نطاق الحرير وليس بالبرزخ مرة أخرى.. كنت ببقعة لم أتواجد بها من قبل بهذا الفراغ.. لقد تهت.. حاولت التنقل يمينا ويسارا وللأعلى وللأسفل بلا جدوى.. اختفت سمائي البيضاء ذات الإحداثيات ولم أر حولي إلا الفراغ المطلق.. تهت لساعات أو أيام لا أدري.. حتى الجوع والعطش ليس لهما وجود بهذا البرزخ لحسن حظي.. ولما كلّ متني وكدت أستسلم لمصيري الغامض رأيت على مرمى الأفق بصيصاً من ضوء يشبه ضوء سمائي المفقودة.. لم أكن أدري أنه كان انتقالاً آخر لأحد الأسياد بين العالمين.. سبحت نحو الضوء بكل تصميم وسرعة يحدوني أمل عظيم.. ولما اقتربت فوجئت بثعبان رهيب ينقض عليّ لم أر لعظمته مثيلاً من قبل.. إنه الثعبان الحارس بين العالمين والذي كنت دائماً أتحرك تحت نظره تحت الممر فضي الجدران والذي لم يكن يعلم أبداً بتنقلي تحته يومياً عابراً تلك الثغرة بين العالمين والتي لا تستدعي العبور من داخل الطريق الرسمي المعتاد..

صمتت (نينشوبور) مفكرة وهي تقول وكأنها تحدث نفسها:

- وكيف سنعبّر البرزخ ثانيةً وقد تغيرت هذه الخريطة منذ آخر زيارة لك؟

استعاد (زاموك) حماسه وهو يجيب:

- هنا تبرز خبرة ومعرفة الحكيم (ماندانو).. عندما أخبرته بمخاوفي هذه طمأنني بأن هذه التموجات لها مواقع ثابتة بالفعل.. أوضح لي أنها ليست إلا أفاعي حارسة تحيط

بالممر الذي ينقل الأسياد من وإلى عالمنا.. تتحرك فقط عند عبور أحد الأسياد ليرى تموجاتها الأفعوانية من خلف الجدار العازل فيخشأها ولا يفكر في اجتيازها للبرزخ بأي طريقة كانت.. ثم تعود لسيرتها الأولى بمواقعها الثابتة فور اختفاء السيد.. وحده فقط من يعود من عالم البشر للبرزخ لن يستطيع رؤية هذه الإحداثيات مجددا لحين حدوث انتقال جديد لأحد الأسياد يعيد للبرزخ قواعده سالمة.. تختل القاعدة لمن ينتقل من البرزخ للأرض ثم يحدث انتقال لأحد الأسياد أثناء وجوده بالأرض، حينها لا يعود مباشرة للعالم السماوي، يعود للبرزخ وقد تم طمس جميع تمعجات سمائه حتى حين انتقال جديد..

غمغت (نينشوبور) مستعيدة مشهد التنين المحلق والسيد (زابابا) و(نينازو) يمتطيانه:

- قد لا يخيف هذا كل الأسياد ولكن دعنا من هذا الآن.. لنبدأ الانتقال وكلنا ثقة بما قاله الحكيم..

أشار لها (زاموك) بالاقتراب وهو يقوم بفرد قطعة الحرير بين أصابعه.. اقتربت منه جسديا فجذبها برفق من خصرها من الخلف نحوه لتلتصق به.. ثم أدار قطعة الحرير لتلف حول أسفل ظهرها ثم أكمل لف الحرير ليف خلف ظهره مكوّنا دائرة متصلة ضمت جسديهما بقلبيهما.. أحكم شد الحرير فالتصق الخصران وتماس الصدران.. احمر وجه (نينشوبور) خجلا وهي تلوح بوجهها جانبا حتى لا تلمس وجهه مغممة باعتراض خافت:

- هذا قريب للغاية..

شعر بلمس جسدها البض فاضطربت جوارحه.. وشعر بضربات قلبه تؤلم صدره من سرعة الخفقان.. أجابها هامسا وهو يلهث:

- أعتذر لك يا سيدتي ولكن لا بد لنا من الانتقال سويا كجسد واحد..

رددت بينها وبين نفسها:

- جسد واحد!

- هل أنت جاهزة سيدتي الجميلة؟

شعرت بلفح أنفاسه على عنقها فأجابت بهمس منفعل:

- جاهزة!

شد الرباط الحريري بقوة وأحكم عقده ليحدث الانتقال على الفور..

وخلال جزء من الثانية اختفى جسدهما ليتواجدا بذلك الفراغ بين العالمين.. ورأى (زاموك) (نينشوبور) مغلقة عينيها بخوف وقد تخشب جسدها وتشبثت يديها بظهره بقوة.. فلما اطمانت فتحت عينيها ساحبة يديها بخجل ثم نقلت نظرها حولها بنهم.. الفراغ والخواء والصموت.. لفتت انتباهها السماء البيضاء المضيئة.. ثم اقشعر جسدها مع مرآها لتلك التموجات بكبد السماء والتي أصبحت تعلم يقينا الآن أنها ليست سوى أفاعي عملاقة وحشية.. أرخى (زاموك) ربطة الحريري بحذر ثم فك العقدة من ظهره ليعيد ربطها عند خصر (نينشوبور) من الأمام بينما تسالت يسراه بالتزامن لتلتقط من نطاقه قطعة حرير صغيرة ماضية قام بربطها محل القطعة التي أزالها لتوه من حول جيده وهو يبتسم لها قائلاً ملاحظاً قلقها:

- استمتعي بالفراغ حتى أذهب لأعود لكِ بذلك الطائر السحري.. لا تقلقي سيدتي الجميلة.. لقد أعددت الخطة جيداً..

ثم رنا نحوها باهتمام واضح قائلاً:

- ما يهمني هو ألا تغادري موقعك مطلقاً حتى أستطيع العودة لك..

قالت بعدم فهم:

- ولكن لو مرّ كل شيء على ما يرام وأردت العودة وقمت بنزع نطاقك الحريري ستكون العودة مباشرةً لعالمنا وليس هنا لهذا البرزخ.. لن تأتي إليّ..

قال لها موضحاً:

- هذا ما أتمناه.. حينها سأعيد وضع نطاق الحريري وأعود لكِ من عالمنا وألتقطك من نفس هذه النقطة..

ثم أضاف بلهجة حاول جعلها لا مبالية قدر الإمكان رغم قلقه الكامن:

- ما أخشاه هو مرور أحد الأسياد بين العالمين عبر البرزخ أثناء تواجدي بعالم البشر..
نفس ما حدث في المرة السابقة التي تم كشف أمري فيها.. حينها سأعود لأجد نفسي
تائها بمتاهة البرزخ ثانيةً وليس بعالمنا، أوضح لي الحكيم أن الأمر أشبه بتغيّر يحدث
بعد كل عملية مرور لأحد الأسياد يعطل الآلية المعتادة للعودة من الأرض، سأعود
للبرزخ عوضاً عن عالمنا، ولن تخضع حينها عودتي لعالمنا من البرزخ لنفس القواعد
المعتادة.. لن أعود بمجرد خلع النطاق الحريري لعالمنا كالمفترض.. لن أنجح حتى في
العودة لهذه البقعة التي نقف بها حالياً.. لا بد لي من انتظار عبور أحد الأسياد مصادفةً
مرة أخرى فتعود للسماء سيرتها الأولى وأستطيع التحرك مهتدياً بنجومها الأفغوانية،
وإلا سأضطر للانتظار للأبد بحثاً عن الممر الخفي المظلم.. لا توجد طريقة أخرى
بحسب الحكيم، وهو ما قد يستمر دهوراً ويحمل خطر كشف وجودي بواسطة الثعبان
الحارس كما حدث لي من قبل.. هذا ما أخبرني به الحكيم.. القوانين التي تحكم الممر
الرابط ما بين العالمين ليست سهلة كما كان يبدو لي ويبدو أنه على علم جيد بها بفضل
قراءاته..

- ماذا ستفعل حينئذ؟ وما مصيري؟

أجابها مطمئناً:

- لا تقلقي سيدتي الجميلة.. لو حدث هذا سأكمن بموقعي ثابتاً حتى انتهاء مرور هذا
السيد وعودة الأفاعي لمواقعها المحفوظة.. لن أقع في خطئي السابق وأسارع بالاتجاه
نحو الممر المضيء وأعلن عن وجودي للثعبان الحارس.. سأتحرك متسللاً عن بُعد
مهتدياً بمواقع الأفاعي للعودة لهذه المنطقة التي حفظت موقعها عن ظهر قلب بحسب
تموجات السماء، ستكوني في الانتظار ثم نعود سوياً لعالمنا.. لو فعلت هذا سابقاً لما
جازفت وكشفتني الثعبان الحارس، ولكني لم أكن أعلم ما أخبرني به الحكيم..

ثم أضاف شاردا:

- سنعود سوياً أو يعود أحدنا فقط في حالة حدوث ما لا نتمناه..

قالت بانفعال:

- (زاموك).. لا أرى سببا واضحا لانتقالي معك حتى الآن.. كان بإمكانك إنجاز المهمة كاملة وحدك..

قال لها مهدئا:

- للأسف ليست الأمور واضحة بشكل تام بخصوص كيفية انتقالي وعودتي لعالمنا في حالة تحرك أحد الأسياد وأجبرني على العودة للبرزخ ثانية.. القواعد التي أخبرني بها الحكيم قد لا تكون ثابتة.. قال لي أنها كلها مجرد قراءات نظريات مبنية على مرويات الأقدمين.. المرة الوحيدة التي اختبرت فيها عودتي من البرزخ بعد تيهي كان لدى عودتي لعالمنا عن طريق الثعبان الضخم الحارس أسيرا بطريقته الخاصة.. يمتاز وضعك الآن في إنك لم تنتقلي لعالم البشر بعد وهذا يعني أنه بمجرد خلحك لرباط الحرير سيتم إلغاء الانتقال وستعودين لعالمنا على الفور بدون أية تعقيدات واحتمالات مبنية على نظريات منقوشة على الرُّقْم.. أما أنا فلو كنت سيء الحظ وأجبرتني الظروف للعودة من عالم البشر لهنأ فلا أعلم صحة كل ما نعتمد عليه كمسلّمات.. حينها سأجعل أولوية وجودي وحياتي كلها هي تسليمك الطائر لتعودي به لسيدتك بينما أقوم أنا بإجراء حساباتي الغامضة لعودتي.. واطمئني فعودتي لن تطول فلا يوجد حساب للزمن هنا..

تفهمت (نينشوبور) -بتأثر- تضحية (زاموك) وحرصه على تنفيذ المهمة حتى لو كان مصيره هو غامضا.. فقالت له مخففة:

- ولكنه يبقى احتمالا ضئيلا..

- ولكنه قائم!

ثم تنهد ملوفا لها قائلا بابتسامة باهتة وهو يغادر:

- تمنّ لي الحظ..

قالت له ودموعها تجاهد للخروج من معاقلها:

- عد سالما!

أعطائها ابتسامة أخيرة قبل أن يوليها ظهره ويغادر سابحا نحو الأفق اللامع حيث تكمن البوابة بين العالمين.. فانهمرت دموعها الحبيسة من مآقيها وهي تنظر لجسده المتلاشي وكأنها آخر مرة ستراه وانفعلات شتى تغمرها..

هل هي خائفة عليه؟ هل ينبع خوفها من خوف فشل المهمة على سيدتها (إينانا) أم أنها تعلقت بالفعل بهذا اللص القصير؟ هل ستشتاق إليه؟ أسئلة كثيرة لم تجد لها إجابة شافية.. ووجدت في الخواء عزاءً كافيا ليبدد اضطراب مشاعرها التي لا تعرف حتى الآن أن تترجمها نحو (زاموك).. وإن أطلت بوضوح مشاعر عرفان لما يبذله من مخاطر من أجل السيدة (إينانا).. مخاطر قد تؤدي بحياته نفسها هذه المرة..

كما وصف لها (زاموك) لم تشعر بمرور الوقت.. لم تدر هل طال انتظارها ل(زاموك) أم أنه قد غادرها للتو.. لم تشعر بالملل أو الجوع أو العطش.. لم تشعر بالتعب.. لم تشعر بأي شيء قط سوى اللفة لانتظار طائر سيدتها السحري.. ووجدت نفسها تعدد لنفسها الاحتمالات القائمة.. أفضل الاحتمالات أن تجد (زاموك) وقد عاد لها من عالمها السماوي ليخبرها بأنه قد أعاد الطائر بأمان وسيعيدها الآن معه.. أسوأ الاحتمالات هو أن تتغير خريطة السماء بعبور أحد الأسياد فيجد (زاموك) نفسه وقد عاد للبرزخ بدلا من العالم السماوي، فيضطر للانتظار حتى انتهاء تبعات انتقال هذا السيد الذي أربك حسابات البرزخ، ثم يكمن قدر ما يتطلب الأمر لحدوث انتقال آخر لأحد الأسياد ليعود لها سابحا بالفراغ مسترشدا بأضواء الممر ومتسللا بعيدا عن أعين الثعبان الحارس حتى يجدها بنفس هذه البقعة المحفوظة بذاكرته ويعودا سويا لعالمهم.. لم يبدو لها الأمر في الأسوأ مخيفا فلماذا بدا (زاموك) حريصا كل الحرص على جلبها معه؟ هل هناك ما يخفيه عنها؟ هل أخبره الحكيم شيئا وجد أنه من الأفضل ألا تعرفه؟ ما هي متيقنة منه -بقلبها- أن (زاموك) لن يعرضها لأي خطر.. ولو كان في وجودها نسبة خطر ولو مقدار ذرة لم يكن ليجازف بجلبها معه.. يبدو أنه يكنّ نوعا قويا من المشاعر نحوها -نمت في فترة قصيرة- وهذا واضح في حركاته وأفعاله.. ولكنه يظل لصا -هكذا قال لها عقلها- رغم مآثره..

سرت رعدة بجسدها عندما لاحظت بطرف عينها تحرك تموجات السماء.. الأفاعي تتحرك.. هذا لا يعني إلا عبور أحد الأسياد عبر الممر.. سترتبك حسابات البرزخ ولن يستطيع (زاموك) العودة لعالمهم.. سيخلع رباط الحرير ليجد نفسه ببقعة بعيدة

بالبرزخ.. سيضطر للانتظار طويلا حتى يحدث انتقال جديد قد يطول وقت انتظاره كثيرا، فيقوم حينها بالتحرك نحوها.. أسوأ ما توقعه (زاموك) يحدث الآن ولكنه لن يكلفهما سوى الانتظار في عالم لا يوجد به معنى للوقت..

ثم تتابعت المشاهد كالحلم - أو الكابوس- أمام (نينشوبور)..

رأت (زاموك) يأتي سابحا من بعيد والرعب يغزو ملامحه.. وخلفه تلتوي أفاعي ضخمة تطارده.. رآته قادما من جهة اليمين مرة.. جهة اليسار مرة أخرى.. حلق فوقها قليلا.. وأسفل منها طويلا.. ارتبكت (نينشوبور) ولم تعد تدري أي اتجاه تنظر إليه.. حتى السماء البيضاء صارت تدور كدوامة ضخمة في كل الاتجاهات.. شعرت بدوار يكتنفها وغثيان على وشك التحول لقيء.. ها هو (زاموك) يظهر مجددا وقد اقترب هذه المرة بما يكفي لتلمح الطائر بين يديه.. رأت ذيل أفعى يطبق على ساقه فينسل منه (زاموك) بسرعة.. فك أفعى يكاد ينغرس بذراعه فيراوغه بسرعة ومهارة.. كان يدور وحوله تدور الأفاعي.. يستغل قصر قامته وضالته ومرونته ليتجاوزهم.. ولكن كان عددهم في تزايد مستمر.. وما أدركته الآن كان قد أدركه (زاموك) منذ فترة.. أدركت برعب أنه لن ينجح في الوصول إليها حيا..

بالرغم من توقعها للأسوأ حدث ما هو أسوأ منه بمراحل.. وهذا ما توقعه (زاموك) بالفعل وهو حدوث ما لا يمكن توقعه.. قرأت بين شفثيه صرخته (ارحلي!) وانقبضت ذراعاه ثم انبسطا عن آخرهما ليلقي بالطائر في الفراغ نحوها بقوة..

لم تدري كيف تلتقط الطائر في هذا الفراغ المثير للجنون.. كان يأتيها من كل اتجاه.. تحركت بعشوائية وهي تمد يديها في كل الاتجاه.. شعرت بالطائر يقترب رغم عبث محاولة تحديد الاتجاه.. وعندما نجحت أصابعها في لمسها فأطبقت عليه بيديها بكل قوة شعرت بظل رهيب وسط الفراغ يجثم على وجودها.. فنظرت حولها لتبصر بالثعبان المهيب الحارس يظهر من الفراغ منقضا على (زاموك).. ثعبان بحجم لا يمكن تخيله.. حجم يبدو معه التنين (موشوسو) حملا وديعا صغيرا.. فتح الثعبان فكيه هاجما على (زاموك).. تفرقت عينا

الص زاموك والثعب الحارس (ماشيلما)



(نينشوبور) بالدموع وهي تعلم أن الثعبان لن يأخذ أسرى هذه المرة.. تصميمه للفتك بالدخيل واضحا.. أما (زاموك) فقد استسلم لقدره لما رأى الثعبان الهائل وكف عن مراوغة الأفاعي واكتفى بالإشارة لـ (نينشوبور) بالمغادرة بحزم.. أغمضت (نينشوبور) عينيها وهي تضم الطائر لصدرها بقوة ثم تحلّ ربطة الحرير.. فلم ترى الثعبان وهو يلتقم (زاموك) المستسلم ويلقيه بجوفه في لحظة واحدة..

وعندما فتحت عينيها لتجد نفسها بمغارة الحرير وبين يديها الطائر السحري.. نقلت النظر بأرجاء المغارة للحظات وكأنها تبحث عن (زاموك) قبل أن تتيقن من أنها لن تراه ثانية للأبد..

تركت الدموع تسيل على وجنتيها وكلها تصميم ألا تضيع من تضحيته.. فانطلقت من فورها لتتجه نحو الحكيم..

23- هالة (حمورابي)

(نيبور) السماوية..

استخدمت (إينانا) كل حواسها وهي تطالع ذلك الرقيم الذي كان يحتل موقعا مميزا بمكتبتها العامرة بالرقم من شتى المجالات، كانت تريد أن تغير من مزاجها الحالي بأن تقرأ شيئا عن (بابل) بلد الملك (حمورابي) مصدر الهالة الإلهية المتوقعة، فلم تكن تعرف شيئا عن هذه المدينة العظيمة أو حتى عن (حمورابي) نفسه ومن سبقه من ملوك إلا عن طريق الحكيم (ماندانو) المنتمي لطبقة الأنوار والذي كرّس حياته كلها لمتابعة تاريخ البشر بهذه المنطقة وتفاصيل حياة ملوكها منذ البداية مع (سرجون الأكادي)، وآتت جهود الحكيم أكلها عندما تمكنت من التقاط هالة (سرجون) الإلهية لتضمها لهالة البطل العظيم (جلجامش) والتي كانت قد امتصتها منه منذ زمن.. أخرجت (جلجامش) من وعيها وبدأت تقرأ بصوت مسموع من الرقيم الطيني الذي بيدها.. كان الكاتب يقول: (تضاءلت صناعة الأختام في عهد (حمورابي) بعد أن كانت قد بلغت أوجها في عصر (سرجون الأكادي).. وبالرغم من أهمية هذه الأختام ودورها المحوري في إتمام عمليات البيع والشراء، ناهيك عن استخدامها من قبل الملوك والحكام والكهنة لختم الأوامر الملكية، ولكن كانت صناعتها قد تدهورت لدرجة كبيرة في عصر (حمورابي).. وليس هذا الانحطاط إلا نذيرا لما قد يحدث ل(بابل) بالمستقبل..

ف(حمورابي) لا يعطي بالأ لتلك الأقوام الجبلية التي تتسلل في هجرات متفرقة لبلاده، أقوام ينحدر أجدادهم من البلاد الشمالية العشبية ذوي الجنس الأبيض.. وربما أيضا لا يحسن تقدير أسلاف آخرين للجنس الأبيض متوطنين بشمال غرب الرافدين شديدي البأس في القتال متعطشين للحروب، ويستخدمون أسلحة مصنوعة من معدن لا يعلم البابليون بوجوده.. ربما نشهد فترة نهاية (حمورابي) العظيم وأقول نجم (بابل) العريقة..)

تنهدت (إينانا) بحزن، فرغم أن هذه المعلومات تعني بأنها قاب قوسين أو أدنى من الحصول على هالة إلهية جديدة، ولكنها كانت تكره حدوث مثل هذه الأشياء من حروب وتحالفات ودمار وسقوط للحضارات، لا تعلم لماذا لا تتوقف الحروب أبدا بعالم البشر، دائما وأبدا تجد أقوام قد جاءت من مكان ما طامعة في نهب خيراتها جيرانها، بإمكان

الجميع العيش بسلام بجانب بعضهم البعض وتبادل خيرات الأرض وخبرات العقول في تعاون محبوب.. حتى هذه العدوى انتقلت للعالم السماوي بمجرد علم بعض الأسياد بانفراط عقد الارتباط العتيق بين العالمين، قاموا بتدبير اغتيال للنبي والسيد (أنو) بمنتهى الوحشية والقسوة، وما آت سيكون أعظم وأشدّ شرا بكل تأكيد، وسيغير من استقرار مدن الرافدين السماوية بكل تأكيد..

قامت بالبحث عميقا بين الرُّقْم بحثا عن المزيد، بحثت بعيدا واضطرت لتحريك صفوف عديدة متراكمة لتصل للأبعد والأكثر قدما، توقفت (إينانا) بغتةً وقد لفت انتباهها رقيما ضخما بدا وكأنه مخبأ بحرص بين رقيمين عملاقين، شعرت و: إنه نبع من الفراغ فجأة بعد أن لم يكن موجودا بهذه البقعة بين الأرفف، أوجست في نفسها خيفة وهي تجذب الرقيم إليها بأصابع مرتجفة، الرقيم الذي تم نقش كلماته على صخرة نيزكية سوداء لا تبدو وكأنها تنتمي للعالم السماوي، أثار انتباهها وفضولها كونها من محبي قراءة الرُّقْم القديمة والنادرة باستمرار، واستعاد ذهنها كلمات الحكيم (ماندانو) ولكنها لم تجرؤ على التفكير في كون هذا هو الرقيم الأول الذي لم تقوم بنقشه يد وإنما نقشته إرادة مهندس الكون، دفعها فضولها لتقرأه لتفاجأ

الرقيم الأول



بتحذير بأول سطره يمنع قراءته إلا عندما يقترب الفناء النهائي.. ارتجفت من هول المفاجأة.. إنه هو.. الرقيم الذي فيه من المعلومات عن أصل العالم العلوي والسفلي وحواجز الدهر مما سيكون له دور حيوي في منع فناء العالم يوما ما إن تم استخدامه بحكمة.. سارعت بإعادته لمكانه بقلق بعد أن حفظت رقم الرف الذي يحتويه مفكرةً في ضرورة إخبار الحكيم بأن الرقيم حقيقي وموجود مخفيّ بقلب مكتبة (نيبور) العامرة بالرُّقم..

شردت طويلا تفكر بأمر هذا الرقيم لتنتبه من شرودها على صوت عجيب قبل أن يطل عليها طائر عجيب الهيئة لم تر له مثيلا من قبل، فاعتدلت في جلستها وهي ترى الطائر يقترب منها محلقا فوق رأسها وظنها أصبح يقينا بأنه ليس من العالم السماوي، لقد تم جلبه بطريقة ما من عالم البشر في مثال صارخ لبداية عهد جديد من الانفصال بين كلا العالمين بعد أن كان محظورا الإتيان بأي كائن أو شيء من عالم البشر وإلا اختل توازن العالمين.. دقت النظر أكثر فلمحت قطعة طينية صغيرة مربوطة عمدا بساق الطائر، اقتربت من الطائر الذي لم يبدي أي انزعاج من وجودها بل على النقيض طار ليحط على راحة يدها المفرودة، ابتسمت (إينانا) رغما عنها مع ذلك الإحساس الذي لم تشعر به من قبل، تلك القدم الدقيقة وهي تستقر على جلدها وتدغدغ إحساسها، مدت أصابع يدها الأخرى لتربت على رأس الطائر للحظة قبل أن تمسك بتلك القطعة الطينية وتفصلها عن القدم بلطف، تعجبت لما اكتشفت أنه أشبه برقيم صغير جدا تم نقش بعض الحروف عليه بدقة، قربت وجهها أكثر من النقوش وبدأت تقرأ كلمات موجزة تقول: (حمورابي يموت!)

شهقت بذهول، لم يخامرها أدنى شك بأنه تخطيط الحكيم (ماندانو)، ويا له من توقيت سيء لموت (حمورابي) أثناء الفوضى التي أحدثها مقتل (أنو)، ولكن ما باليد حيلة، لا يوجد وقت لإخبار (إنليل) أو (نينورتا) فلا بد أن الرسالة قد استغرقت وقتا طويلا لتصل بين يديها، حتما تمّت كتابتها منذ فترة ليست بالقصيرة، بالإضافة لأن كلا من السيدين سيكونان مشغولين بالخطوة القادمة لوضع خطة لتسيير العالم السماوي في حقبة ما بعد (أنو)، حسمت قرارها في لحظة وقررت الانتقال لعالم البشر بعد الاستفادة من وجود الطائر لغرض آخر لا يقل أهمية عن أمر الهالات الإلهية، خمنت أن الطائر سيعود للحكيم مرة أخرى فقامت بكتابة نقوش على عجل تخبره فيها بأن الرقيم الأول موجود

بالفعل بمكتبة (نيبور)، وقامت بوصف المكان الذي حفظته به بعد أن أخرجته من مخبئه، ربطت الرقيم الصغير بقدم الطائر وقامت بإطلاق سراحه مجددا ليطير من النافذة، ثم دار جسدها حول نفسه مغمضة عينيها وهي تنقل أفكارها لعالم البشر..

تذبذبت الموجودات حولها وظلت تتموج مع صوت أزيز رتيب مصاحب.. اختفى المشهد دفعة واحدة لتجد نفسها بممر يضيء بلون فضي لامع.. ممر بحجم مدينة كاملة اتساعا.. كانت قد اعتادت هذا المنظر، كما اعتادت رؤية كائنات تتحرك كالأفاعي خلف جدران الممر الفضي، لم تتمكن من رؤيتها بشكل واضح طوال مرات انتقالها بين العالمين فظلت تراها كمن ينظر من أعلى لكائن تحت سطح ماء يترقرق سطحه فنتشوه الصورة الكامنة بالعمق.. عبرت الممر الذي لم تكن نهايته بعيدة، وصلت للباب الساطع بشدة والمفضي لعالم البشر فاخرقته بسرعة لتنفذ للجانب الآخر.. لطمتها أشعة الشمس للحظة فاضطرت لغلق عينيها قبل أن تسيطر على طيرانها ويثبت جسدها بين أكوام سحب مدينة (نيبور) الخفيفة، فكما خرجت من عالمها السماوي تجد نفسها بعالم البشر، يمت شطرها وجهة الشمال الغربي ثم حلقت كالصاروخ المنذفع نحو مدينة (بابل) حيث تتمنى أن تجد (حمورابي) لا يزال حيا، أو على الأقل تجد روحه تتأهب لمغادرة جسده.. لم تعتقد أنه سيموت في معركة أو حرب لذا فقد اتجهت رأسا نحو قصره الملكي.. كانت ترى الصحاري والمدن حولها كخطوط متعددة الألوان من فرط سرعتها.. كادت سرعتها التي فاقت سرعة الصوت تصم أذنيها مع صدور تلك القرقة الهائلة ولكننا لم تبال لما لا يمكن أي يؤذيها جسديا، وإن كان سيسحق جسد أي بشري أو حتى سماوي من العامة.. خلف مسارها خطوط مخروطية كثيفة كسحب بيضاء كانت تنطلق خلفها متعقبة إياها في خط يستقيم وينثني تبعا لحركتها.. أصبحت (بابل) على الأبواب في وقت يسير فهدأت من سرعتها وانقضت كالسهم على قصر (حمورابي).. عبرت من إحدى النوافذ العملاقة لغرفة نومه الملكية فما خاب ظنها إذ رآته نائما على ظهره وقد ارتسمت علامات إرهاق وألم على وجهه.. كان يعاني من سكرات الموت بوضوح.. وقد تجمع حوله لفيف من عائلته وقليل من قواده المخلصين..

خفقت بجناحيها لتستقر فوق رأسه.. لقد جاءت في وقتها تماما.. أحسن الحكيم في ما فعل وعجل من وصول الرسالة لها.. وها هي الآن تصل في الوقت المناسب لالتقاط الهالة الإلهية المطلوبة.. طال الوقت قليلا عما توقعت ولكن بدأت مقاومة الملك العظيم

تنهار، ثم بدأت عيناه تجحظ و عنقه تميل وأنفاسه تتباطأ، وسط بكاء ونشيج النساء.. ثم سقطت رأسه على وسادته لينتهي أمر جسد حَكَمَ أعظم المدن بقوة وحكمة متوازيتين، مخلفا آثارا لا يمكن للتاريخ إغفالها واسما لن ينساه التاريخ قطّ..

أضاءت ذراعاه بوهج فضي انتقل بسرعة ليديه قبل أن يتسرب كالبخار من بين أصابع يديه.. اندفعت الهالة الإلهية كخيوط فضية متلألئة لتتحدى الجاذبية وتزايّد سرعتها فتطير بسرعة مفاجئة للأعلى لتسبق طيف روحه نفسه.. مدت **(إينانا)** ذراعيها وابتسامة فلتت من بين شفيتها قائلة بهمس:

- هوني عليك لن يأخذك غيري!

باغتتها لفحة من تيار عاصف حار لطمها في وجهها وأجبرها على الاندفاع للخلف بعنف، دار جسدها حول نفسه رأسيا عدة مرات من قوة الضربة قبل أن تنجح في الاعتدال، وجاهدت حتى تمكنت من التغلب على الدوار الذي عصف بدماعها للحظات متعجبة مما حدث والذي لم تفهم له سببا، فركزت نظرها أمامها وهي ترى خيوط الهالة الفضية تتطاير للأعلى بسرعة لتغادر الغرفة والقصر كله، خفت بجناحيها بقوة وإصرار فطار جسدها ليخرج من النافذة ثم حلقت للأعلى في إثر الخيوط الفضية الهاربة وعقلها مشوش لا تدري ما الذي حدث بالضبط، وجدت الخيوط تنساب للأعلى ثم غابت الخيوط عن نظرها لما تجسدت أمامها دائرة أفقية من لون رمادي اكتسى سطحها برسم يضيء بلون أرجواني لنجمة خماسية تمس حدودها دائرة مشعة تحيط بها، دقت النظر أكثر لتكتشف أن اللون الرمادي كان يمثل مجموعة من الجماجم الرمادية المتكدسة بنظام دائري تحت النقش الأرجواني، شملتها دهشة شديدة وهي لا تعلم ماذا تمثل هذه الدائرة ولكنها تجاهلت وجودها وطارت جانبا لتتفادها محاولة اللحاق بخيوط الهالة الهاربة، تحركت الدائرة بسرعة تماثل سرعة **(إينانا)** لتتقلب على جانبها ويصبح وضعها رأسيا لتواجه النجمة الخماسية الأرجوانية **(إينانا)**، ثم انفصل عنها كيان بنفس لونها الأرجواني لينقض على **(إينانا)** ويكبلها بقوة لم تنجح **(إينانا)** المذهولة معها تحريك أطرافها، وأمام عينيها الجاحظتين لمحت ما يشبه جسدا أسمر لون البشرة بدروع ولباس يتمازج فيهما اللون الأبيض مع الذهبي، شعر رأس ولحية طويلان غزيران بلون أرجواني ثائر مماثل لون النجمة الخماسية، ولمحت ما بدا كزوج من أجنحة رمادية عظيمة الضخامة خلف الجسد، رأت خيوط الهالة الفضية

تتحرك لتغير ومسارها وتتجه لذلك الجسد، صاحبت بيأس وهي ترى الهالة الإلهية تضيع من بين يديها، غير مصدقة لوجود قوة قادرة على تقييدها هكذا بسلاسة رغم كونها أحد الأسياد، شعرت بالقوة المكبلة الغاشمة تضاعف من عصرها لجسدها فبدأت تشعر بالاختناق، وعندما أدركت أن جسدها سيتمزق خلال لحظات سارعت بإغماض عينيها برعب وهي تنقل لوعيها الأمر بالعودة لعالمها السماوي.. فدار جسدها حول نفسه متخلياً عن ماديته لتتحرر من القيود الأرجوانية الغامضة وتجد نفسها بداخل ذلك الممر ذي الجدران الفضية الفاصل ما بين العالمين..

سارعت بعبوره بدون أن تنتظر لما يتحرك خلفه من كائنات خفية كعادتها، لتدرك فجأة أنها أصبحت بقلب (بابل) السماوية.. كما رحلت من عالم البشر تواجدت بالعالم السماوي.. المدينة التي لم ينجح أي من الأسياد بعبور الحاجز السحري الذي أقامه سيدها (مردوخ) حولها، عبرته (إينانا) في لمح البصر بطريقة لم تفكر فيها على الإطلاق من قبل لتجاوز هذه الأسوار.. وأصبحت أول من استطاع التواجد بداخل (بابل) الغامضة من الأسياد..

أول ما لفت نظرها كان ذلك الجدار الهائل الذي انتصب أمامها بارتفاع هائل.. كانت بوسط صالة فسيحة تناثرت فيها عمدان من رخام رمادي عجيب اللون، وألقت نظرة على الأرض فاكتشفت أنها تقف بمنصف نقش النجمة الخماسية أرجواني اللون المحاط بالدائرة، نفس النقش الذي هاجمها ومنعها من التقاط هالة (حمورابي) الإلهية.. فنفضت رأسها وهي تتراجع عدة خطوات للخلف مغممة والصدمة لم تفارقها بعد:

- أين أنا؟

مع تحركها للخلف ظهر نقش هائل ملأ الجدار المواجه لها.. نقش يمثل الجسد الذي سرق منها تلك الهالة.. نقش لشخص أسمر البشرة يرتدي لباس شديد البياض تعلوه دروع ذهبية متألقة.. تميز بشعره ولحيته المتطايرتين بلون أرجواني يكاد يضيء الجدار.. وكانت قدماه تقفان على الدائرة ذات السطح المنقوشة عليه النجمة الخماسية والقاعدة التي قوامها جماجم رمادية كئيبة.. كان هذا قبل أن يصعقها بشدة الحروف المنقوشة تحت هذا الشخص والتي تشير لهويته..

حروف تمثل اسم (مردوخ)!

24-(كيش) الجديدة

(كيش) السماوية..

شق الهواء خوار هائل انتبه معه كل حراس المدينة الرابضين على الأسوار، ورغم ما جلبه الصوت من فزع بالأنفاس تأهب كل حارس وقام بشد وتر قوسه ببسالة في انتظار المجهول الوحشي القادم بغموض، حتى قاذفات الأسهم المتراسة على الأسوار سارع المسؤولين عنها بجلب أسهمها العملاقة من الكنائس تمهيدا لتلقيها، دق ناقوس الحرب الضخم المتواجد فوق البوابة الرئيسية الجنوبية إيذانا بالاستعداد الكامل للخطر المباغت.. شاهد الجميع خاصة حراس السور الجنوبي كتلة خضراء مجنحة عظيمة تقترب من بعيد مقترنة بأصوات متواصلة في مزيج من خوار وزئير، هداً التنين من سرعة تحليقه وتوقف على مسافة بالقرب الأسوار الجنوبية سامحا للحراس المتأهبين برؤية ملك (كيش) (زابابا) وخلفه المحارب (نينازو) ممتطيان متن التنين، تراخت الأذرع التي كانت مستعدة للدفاع لتُسقط أسلحتها، قبل أن ترتفع مجددا مهلة بسيد (كيش) القادم مع محاربه الأثير على متن أحد الأسياد الوحشية المروضة والتي لم يرى أحدهم مثيلا له من قبل.. اقترب منهم التنين (موشوسو) ببطء ليتضح للحراس جسدا (زابابا) و(نينازو) بوضوح، رفع لهم (زابابا) ذراعه عاليا ملوحا بغرور وصوته يأتيهم مجلجلا ليصيح بصوت سمعه جميع الحراس:

- لقد قتلنا (أنو) وحرقنا قصره على جثته.. من الآن فصاعدا لن يكون هناك سوى مملكة (كيش) سيدة مدن عالمنا السماوي..

ثم أكمل وسط صيحات التهليل المتصاعدة بحماس:

- وسيد الأسياد الملك (زابابا)..

توقف التنين فوق منتصف السور الجنوبي ببطء ليسمح لراكبيه الاثنان بالترجل منه، قبل أن يطلق خوارا أخيرا ثم يلوي عنقه ليخفق بجناحيه العظيمين بقوة محلقا بسرعة نحو السماء حتى اختفي بين السحب وقد خلف اندفاعه ريحا عنيفة كادت تقتلع خوذات الجنود من فوق أعناقهم، تعلق عيون الحراس بسيدهم (زابابا) والذي استل سيفه من نطاقه ورفعته عاليا وهو يصيح في الجنود:

- أنتم يا أهل **(كيش)** أعظم من أنجب عالما السماوي.. كان حقا لكم وانتزعته بيدي.. دماء العظيم **(جلجامش)** تسري في عروقكم كأول وأعظم من أنجبت **(كيش)**..
وأضاف بلهجة وحشية:

- حتى مجئ الأعظم وسيد الأسياد وحاكم مملكة **(كيش)** السماوية.. السيد **(زابابا)**..
رفع جميع الحراس سيوفهم بانفعال.. صيحات لا تتوقف انطلقت من الحناجر تمجد **(زابابا)**..
رمقه **(نينازو)** بنظرة فخر وهو يربت على كتفه.. مظهرة حاشدة تجمع جميع الحراس قامت
على الأسوار المدججة للمدينة الحربية تحتفل بانتقال عاصمة المملكة السماوية لمدينتهم.. ويا له
من مجدا!

تدخّل **(نينازو)** ليصيح في الرجال:

- لقد وّلت أيام الراحة وحانت ساعة العمل الجاد.. أن أوان الحروب والغزوات.. وداعا للإقامة
دهرا بين الأسوار كالنساء ومرحبا بتمزيق الأوصال ورائحة الدماء.. سنعيد سمعة **(كيش)**
السماوية كسيدة المدن السماوية العسكرية.. وبهذا سنبدأ بالاتجاه جنوبا.. نحو مدينتي **(ماراد)**
(نيبور).. لندكّ دفاعاتهم ونسوي بقصورهم ومعابدهم الأرض.. لنأتي ب**(إنليل)** مدعي السيادة
أسيرا ل**(كيش)**، و**(نينورتا)** مدعي القوة الحربية مصلوبا على خشب الأرز، ونريهما زيف
ادعائهما القوة الذي عاشا فيه بدون اختبار حقيقي طيلة السنين السابقة..

كادت عيون الجنود التي صارت حمراء كالدّم تنفجر من شدة انفعالهم وتحمسهم لما يسمعون،
هم محاربون بالفطرة كأجدادهم ولا يخشون خوض الحروب بل على النقيض كانوا قد استنقلوا
طول فترة السلام مع باقي المدن، وشعروا بالهوان من سيطرة **(أنو)** على باقي المملكة السماوية،
السيطرة التي سيحاول **(إنليل)** إعادة فرضها عليهم بإدعائه أنه الوريث الشرعي ل**(أنو)** والأحق
بحمل لقب سيد الأسياد.. هذا واضح كالشمس ولا يحتاج خبير عسكري أو حتى عرافة لمعرفة..

أشار لهما أحد الجنود بأن العربة الحربية الخاصة بهما متوافرة بالأسفل، فتحرك الاثنان ليهبطا
درجات سلم لولبية تُفضي لبداية السور عند مستوى الأرض، كانت العربة الحربية الضخمة -بما
يتناسب مع حجميهما- واقفة وثلاثة أزواج من ثيران سوداء مروّضة رشيقة القوام مشدودة من
لجامها للعربة بتحفر.. استوى الاثنان على متن العربة فقام الحوذي بالانتظار حتى تمام استقرار
جسديهما قبل أن يلهب ظهور الثيران بسوط عظيم أصدر تخلخله الهواء قرقعة قبل أن يلسع
الثيران بقوة ليجبرها على الركض بأقصى سرعة ممكنة مصدرين خوارا مزلزلا متجهين نحو
قلعة **(كيش)** الرئيسية..

وبداخل القمرة الخلفية تبادل كلا من **(زابابا)** و**(نينازو)** حديثا حماسيا..

قال (زابابا):

- لابد من التعجيل بالانقضاء على (إنليل) والسيطرة على (نيبور) ووضع حامية من سلالة (كيش) بها..

قال (نينازو) متفكرا:

- الحرب مع (إنليل) تعني الحرب مع (نينورتا) أيضا.. وهذا يضع مدينته (ماراد) هي وجهة جيشنا الأولى كونها تقع في الطريق ل(نيبور) مباشرة..

هز (زابابا) رأسه موافقا إياه على رأيه وهو يقول:

- أوافقك الرأي وأضيف أنه بخلاف مدينة (نيبور) فإن مدينة (ماراد) يجب أن تُسوّى بالأرض ويتم تدميرها بالكامل.. فهي مدينة عسكرية ووجودها يهدد مدينة (كيش) لقربها الشديد منها..

- حرب ضد (إنليل) و(نينورتا) معاً لهي حرب عاتية..

- لقد سحقتنا العظيم (أنو) لتونا بعقر داره..

- الأمر هنا يختلف.. لقد أخذنا (أنو) حين غفلة منه.. ولكن الآن يجهز (إنليل) و(نينورتا) العدة لملاقاتنا.. حتى وجود التنين (موشوسو) لم يعد سرا يمكننا الاستفادة من مفاجأة ظهوره..

نظر (زابابا) للخارج قائلا وهو ينقر بأصابعه على فخذه:

- ولكننا استفدنا منه حق الاستفادة حقا..

لمح (زابابا) بطرف عينه تجمعات من الفرسان على صهوة خيولهم كانوا يتبعون عربته الحربية في تشكيل نصف دائري متحفز، غرضها الظاهر هو حماية موكب الملك ومحاربه الأعمم، ولكن موكبا كهذا لم يكن بحاجة لحماية في واقع الأمر، بالإضافة لعدم وجود ما يمكن أن يهدد الملك بالمدينة التي ليست إلا تجمع لعدد هائل من الجنود المتمرسين بالقتال منذ نعومة أظافرهم، كعادة أهل (كيش) في تنشئة أولادهم ليكونوا محاربين فقط وليس أية وظيفة أخرى، حتى وارداتهم من أطعمة ومحاصيل وملابس كان يتم مقايضتها بما يصنعون من أسلحة ذائعة الصيت بالعالم السماوي كله.. فلم يكن الغرض من مرافقة هذا الموكب إلا إضفاءً للهيبه على ملك عظيم صار سيد الأسياد بدءا من اليوم..

كان الموكب يخترق البيوت البيضاء عبر طريق ممهد يمر بمنتصف تجمع المنازل التي كانت متراصة على الجانبين بنظام هندسي دقيق، وبرزت القلعة ظاهرة للعيان على مدّ البصر في نهاية هذا الطريق الرملي الطويل، تلمع فوق قممها الراجمات المهيبة المتحفزة كحارس عملاق جاثم

بأكثر نقاط المدينة ارتفاعاً، وعلى نهاية البصر على الجانبين كانت الأسوار ترتقي ليظهر من خلفها قمم الجبال الشامخة المحيطة بالمدينة كخط دفاع طبيعي شائك..

حك (زابابا) ذقنه بيده وهو يقول شاردا:

- قد نستفيد الآن من ذلك المارد (عسق).. إنه على شفا حرب ضد (نينورتا)..

قال (نينازو) على الفور مبدياً رأيه الحاسم:

- كائن ضعيف وعواطفه تقوده.. وجوده معاً قد يضرنا أكثر مما يفيدنا..

قال (زابابا) لافتاً نظر (نينازو):

- ولكنه يعرف (نينورتا) وقائد جيوشه (إيرا) جيداً ولديه خبرة من لقاء سابق ضدّهما..

اكتسبت نبرة صوت (نينازو) حدة وهو يقول:

- ما يقلقني بحق هو وجود ساحر لدي (نينورتا).. أستطيع الفتك بجيش بمفردي، ولكن مواجهة السحر تحتاج لما هو أكثر من القوة البدنية والمهارة الحربية..

ضربه (زابابا) على ظهره بقبضة يده صائحاً بحماس:

- لهذا نحتاج (عسق)! لقد واجهه من قبل..

أبطأت العربة الحربية عندما لاحت بوابة القلعة عن قرب، أشار لهما الحوذي باحترام منحنيًا فغادر الاثنان العربة الحربية بوثنتين متتاليتين ليكملا سيرهما نحو البوابة ويلجا القلعة ليقابلهما كل الحراس بانحناءات عريضة.. تبعهما أحد راكبي الخيول ممن كانوا يتبعون العربة الحربية، ولما رأى جسدي السيدين سيغيب عن أنظاره بداخل القلعة صاح بملء فيه:

- سيدي (زابابا)..

التفت كلاهما للخلف نحو مصدر الصوت، وتمعن (زابابا) النظر لذلك الجندي طويل القامة عريض البنيان ذو جسد مثالي وملامح وجه قاسية، فقال له (نينازو) متذكراً:

- إنه أحد قادة ألوية جيشنا الثلاثة..

أشار له (زابابا) بيده عندما تذكره:

- اقترب..

انحنى القائد وهو يقترب منهما بخطوات سريعة أشبه بالعدو حتى توقف على مسافة ما وتوقف شاعراً بالهيبة، فقال له (زابابا) أمراً:

- هات ما لديك أيها القائد..

لم يرفع القائد عينيه لهما وهو يقول باحترام:

- أهني سيدي.. سيد الأسياد على استعادة مجد (كيش) المستحق.. وأطلع لأيام قادمة ذهبية لسلالة (كيش) السماوية..

استحثه (زابابا) بصمته للاسترسال فأكمل:

- لقد رصد جماعات من المستطلعين ظهورا لمدينة العقارب قريبا من حدودنا الجنوبية..

صمت (زابابا) للحظة يستوعب ما يقوله القائد وهو يردد ببطء وكأنه يلوك الحروف:

- مدينة العقارب!

تدخل (نينازو) قائلاً:

- تلك المدينة التي تضج بالعقارب الوحشية الراقدة تحت الأرض الرملية وتدين بالولاء للساحرة (إيشارا) سيدة الصحاري.. لم يتم تسجيل أي رؤية لها منذ عصور حتى غلب الظن أنها قد اختفت للأبد..

نظر (زابابا) نحوه قائلاً بلهجة حذرة:

- سيمثل هذا عائقاً لنا يهدد خط سير جيوشنا نحو مدينة (ماراد)..

قال (نينازو) بغموض:

- وربما لا.. بموت (أنو) وتوقف الارتباط بين العالمين -عالمنا السماوي وعالم البشر- سيظهر كثير من الأسياد ممن ركنوا للظل سابقاً..

وأضاف شاردا:

- والأكثر دهاءً هو من ينجح في تكوين حلفاء أقوياء أو يحدّد خصماً محتملاً..

توجه (زابابا) بالحديث نحو القائد قائلاً:

- انصرف الآن وكثّف من عمل جماعات الاستطلاع جنوباً وباتجاه الجنوب الشرقي والغربي.. وزد من عمق الجولات الاستكشافية حتى يأتي لك أحدهم بمكان دقيق لهذه المدينة.. ولا تتأخر في إبلاغي بأي جديد بهذا الشأن.. ولك أولوية دخول القلعة في أي وقت منذ الآن فور تنامي أي خبر لعيونك بهذا الخصوص..

انحنى القائد أكثر قبل قبل أن يدور بجسده ليغادر مدخل القلعة، فأكمل كلا من (زابابا) و(نينازو) مسيرتهما ليدلفا القلعة عبر المدخل الضخم المزين بتمثال رخامي ضخم متقن النحت يمثل خوذة حربية بقرنين ملتفين، رمز مدينة (كيش) الحربية.. واستمرا في نقاشهما..

قال (زابابا):

- أظن أن لهذا الأمر شأنا خطيرا.. سيدة الصحاري لن تعلن عن كشف مقر مدينتها السري بدون سبب قوي..

قال (نينازو) مفكرا بعمق:

- لا بد من معرفة نواياها القادمة قبل أن نقوم بأية خطوة استعمارية.. لا نريد مفاجآت من أي نوع تؤثر على زحفنا نحو (ماراد) و(نيبور).. مصير مملكة (كيش) الجديدة يتوقف على انتصارنا في هذه المعركة وإزاحة وريث (أنو) من الساحة..

سأله (زابابا) باهتمام:

- هل تعتقد أنه من الحكمة تأجيل الهجوم حتى تعلن (إيشارا) عن موقفها تجاه (كيش) الجديدة؟

أوما (نينازو) برأسه موافقا سيده الرأي قائلا:

- أخشى أنني أتفق معك تماما ولكن..

كانا قد وصلا في هذه اللحظة لبهو الواسع بقلب القلعة حيث ابتعد حارسان ليفسحا لهما طريقا للمرور وقد حنيا رأسيهما برضوخ، فاتجها للمجلس الذي يتوسطه تمثال (زابابا) الضخم وتتراص حوله مقاعد حجرية منخفضة، وينتصب عند قدمي التمثال كرسي من الذهب مرتفع عن باقي المقاعد الحجرية كان مخصصا ل(زابابا).. لم يجلس أي منهما واكتفيا بالوقوف بين يدي التمثال العظيم و(نينازو) يكمل ما كان يفكر به منذ سماعه بشأن ظهور مدينة العقارب:

- نحتاج لإجراء حديثا وديا مع السيدة (إيشارا)..

- وديا؟

- أتمنى أن يكون وديا.. ولكني في كل الأحوال سأذهب ممتظيا متن التنين (موشوسو).. لا أضمن أن أسلم من الأعيب تلك الساحرة الأريية لو ذهبت وحدي..

نظر له (زابابا) مليا وهو يقول:

- لا أريد خسارتك قبل بدء الحرب الفعلية..

قال (نينازو) باستخفاف:

- لا تقلق يا سيدي.. لن تجرؤ على التفكير في إصابتي بسوء.. ستكون زيارة الهدف منها كسبها في صفنا.. أو على الأقل ضمان وقوفها على الحياد أمام حربنا الآتية..

- ستحتاج لإغراء قوي حتى تقبل..

ثم استدرك (زابابا):

- في ظروف أخرى كنت سأسير الجيوش وأزحف نحوها بنفسي وأهيل على مدينتها الخفية الرمال لأنها ذكرها من الوجود.. لكن هدفنا الأكثر أهمية الآن هو (إنليل) والذي لا يجب ألا تحيد أعيننا عنه ولا ننشغل عنه بغيره..

قال (نينازو):

- هذا ما أفكر به أيضا.. ربما أفكر في الميل عليها بعد انتهائنا من (إنليل) والقضاء عليها.. فوجودها سيظل مصدر تهديد لنا في كل الأحوال..

أشار له (زابابا) بسبابته قائلا:

- لا يناسب هذا التفكير مملكة (كيش) الجديدة.. لن نخرق اتفاقا أو نقلب على حليف.. سنصبح أكثر استخداما للباقة السياسية..

ثم قال:

- اعرض عليها حكم مدينة (نيبور) المقدسة بعد انتهائنا منها.. ولا مانع من استخدامها لمدينة (ماراد) كماوى قريب لعقاربها منها بعد أن نهدمها ونجعلها أطلالا..

قال (نينازو) ساخرا:

- الأم ب(نيبور) وبجانبها أطفالها ب(ماراد).. يا لك من حنون أيها السيد..

يبدو وكأن (زابابا) ابتسم وهو يقول له:

- اتجه الآن للجيوش المرابطة على الأسوار وأخبرهم بأمر تأجيل هجومنا وإن يجب أن يظلوا على أهبة الاستعداد تماما فالهجوم وشيك.. ثم انعطف نحو ذلك القائد وخذ منه أي معلومات قد تفيدك في لقائك هذا مع سيدة الصحاري..

أشار له (نينازو) قبل أن يغادر البهو بنشاط بخطوات واسعة سريعة قوية تدق الأرض دقا..

25-(وركاء) بلا سيد

(الوركاء) السماوية..

- لقد فقدت الاتصال بالملك (حمورابي)!

كانت (نينشوبور) تدرع غرفة الحكيم بقصر (إينانا) ذهابا وجيئة بتوتر بادٍ وهي تسأل:

- هذا يعني وفاته.. أليس كذلك؟

أوما الحكيم برأسه موافقا قائلا:

- بلى.. ولكن اتخذت الأمور منحى جديدا للغاية الآن ومختلفا كلية عن ما مضى..

- ماذا تعني؟

- تغيرت طبيعة الاتصال بين عالمنا وعالم البشر..

- ألم يقل السيد (أنو) أثناء نشر رسالته قبل وفاته بأنه قد انقطعت الصلة بين العالمين بالفعل؟

- لم تنقطع بالمعنى المفهوم.. بل أصبح لها آلية مختلفة..

ثم صمت مفكرا كيف يشرح الأمر ل(نينشوبور) التي وقفت أمامه وذهنها لا يكف عن التفكير في عدم عودة (إينانا) حتى الآن من عالم البشر.. ثم استكمل الحكيم:

- على سبيل المثال لم يعد لأي حدث بعالم البشر أن يؤثر على عالمنا كما سبق، والعكس

صحيح.. وربما هذا السبب هو ما جعل (زابابا) يتجرأ ويقدم على ما فعله من قتل للسيد (أنو)

ومطالبة بحكم عالمنا السماوي.. فلم يعد هناك ما يخشاه و صار حر التصرف في عالمنا.. ولكن هناك أمر آخر عجيب بدأ مع بداية انفصال العالمين ولا أعلم تفسيره حتى الآن..

ثم استرسل لما وجد تساؤلا بعيني (نينشوبور):

- الاختلاف الذي لامسته بشدة منذ بداية الانفصال هو تغير الخط الزمني بين العالمين.. لم يعد

الزمن والتاريخ للعالمين يسيران بنفس المعدل كالسابق.. أشعر وكأن الزمن لدى البشر يعدو

بسرعة طيران الأسياد الآن مقارنةً بالزمن لدينا.. علمت بهذا منذ انقطاعي بالملك (حمورابي)..

تتابعت الأحداث بعد موته وتتابع الملوك والحروب على سيادة بين الرافدين بشكل أسرع بكثير

مما يسمح الزمن بمروره بعالمنا.. وكأن شهرا بعالمنا قابلته عشرات السنين بعالم البشر..

سألته (نينشوبور) بقلق:

- ولم تتلقى أي رسالة أو أي دليل على تواجد السيدة (إينانا) بعالم البشر حتى الآن؟
أجابها الحكيم وهو يقوم من جلسته:

- للأسف انقطع الاتصال بالسيدة منذ انتقالها لعالم البشر.. ومن حينها لم تحاول التواصل معي ولم يحدث ما يدل على وجودها بعالم البشر.. أصدقك القول الفوضى تعم بلاد الرافدين عند البشر الآن.. ربما بشكل أشد مما يحدث بعالمنا..

سألته (نينشوبور) لفضول:

- وماذا حدث منذ وفاة (حمورابي)؟

أجابها الحكيم بتمهل ليعطيها فرصة لاستيعاب كمّ الأحداث المتعاقبة على مدينة (بابل) البشرية في زمن يسير:

- تولى حكم (بابل) بعد وفاة الملك العظيم (حمورابي) ابنه (شمشو إلونا)، والذي اضطر لخوض معارك عديدة ضد مدن الجنوب الذين تمردوا بمجرد علمهم بوفاة (حمورابي).. أضعفت هذه التمردات من سيطرة الملك الجديد على أنحاء مملكة (بابل)، ومما زاد الطين بلة هجوم كاسح من أقوام جاءت من الغرب – (الحيثيون) - بقيادة ملك يدعى (مورشيلو الأول) نجح في هزيمة ابن (حمورابي) وقام بنهب (بابل) وإنهاء وجود أسرة (حمورابي) بالتاريخ.. ولكن لم يستقر (الحيثيون) بعدها طويلا ب(بابل) ولم يولوها اهتماما كافيا مما شجع أقوام قدمت من الجبال الشمالية (الكاشيون) بقيادة ملكهم (أكوم الثاني) من غزو (بابل) والاستيلاء عليها وإقامة سلالة حاكمة عمّرت طويلا بالمنطقة وامتدت من (الفرات) لجبال (زاجاروس) شمالا.. وكانت حينها قوة من أحد قوى العالم الثلاث العظمى المتنازعة على الحكم (المصريون الكاشيون ميتانيا).. بدأ نجم (أشور) يبرز وبدأت تهجم على (بابل) على فترات.. ولكن لم يسقط (الكاشيون) إلا على يد (العيلاميين) القادمين من الشرق الذين هجموا على (بابل) وأسقطوا حكم (الكاشيين) ونهبوا كل خيراتها بما فيها مسلة شريعة (حمورابي) الشهيرة ونقلوها لعاصمتهم (سوسة).. ولكن وبعد 18 عام فقط انتفض ملك مدينة (إيسن) والوريث الشرعي لسلالة ملوك (بابل) الملك (نبوخذ نصر الأول) وقام بطرد (العيلاميين) من (بابل) وطاردهم حتى عاصمتهم (سوسة) ودمرها واستعاد مسلة

شريعة (حمورابي)، ثم عاد ل(بابل) ليقيم سلالة من الحكام في امتداد لسلالة ثانية من حكام أصلهم من مدينة (إيسن) بعد سلالة أولى من بضعة ملوك سادت بلاد بين الرافدين قبل أن ينمحي وجودها من قبل.. فأعاد ذكر سلالات (إيسن) الحاكمة بقوة وبدأ عهدا جديدا من عمارة مدنية واسعة جنبا إلى جنب مع حملات عسكرية موسعة لفرض نفوذه، كان حينها (الأشوريون) قد صاروا قوة عظيمة مهددة ولكن نجح (نبوخذ نصر) ببسالة في إرسال عدة حملات ناجحة حجّمت لحد كبير من أفكارهم الاستعمارية بخصوص (بابل)، كما طال مدّه ل(العيلاميين) وغزاهم واستعاد منهم تمثال عظيم ل(مردوخ) كانوا قد استولوا عليه أيضا من قبل..

صمّنت (نينشوبور) قليلا تحاول أن تلوك بعقلها ما سمعته من أحداث جسام متتالية.. ورددت ببطء:

- إذا هناك (عموريون) قادمون من الصحراء غربا هم من كان (حمورابي) أحدهم.. وهناك (عموريون) آخرون كسلالات (إيسن) التي كان منها (نبوخذ نصر) والذين سيطروا لفترة على بلاد ما بين الرافدين.. وهناك غزاة مثيري للحروب على الحدود ك(الحيثيون) و(الميتانيون) غربا و(الكاشيون) شمالا و(العيلاميون) شرقا.. هذا مع الأخذ في الاعتبار (أشور) التي ظهرت فجأة من أقصى الشمال..

ثم رددت شاردة:

- أسمع منذ طفولتي بالسيد (أشور) ومدى قوته العسكرية كقائد وقدراته الخارقة كسيد بارع برمي السهام كما لا يجاريه أي سماوي رغم بُعد مدينته عنا وتواجهه بأقصى العالم السماوي شمالا..

قال الحكيم هازا رأسه:

- بزوغ اسمه بعالم البشر مؤخرا يعني أنه قد بدأ تحركه بالفعل بعالمنا.. ولكن ليس هذا ما يشغل بالي الآن.. هل لاحظتي مرور مئات السنين منذ وفاة (حمورابي) رغم أنه بالنسبة لنا لم يمر سوى أقل من شهر؟

انتبهت (نينشوبور) قائلة بتعجب رافعة أحد حاجبيها:

- هذا صحيح..

أكمل الحكيم:

- كل ما عرفته من أحداث وثب لعقلي بعد وفاة (حمورابي) في هيئة ملوك متعاقبين
يخترقون عقلي بعنف وسرعة أعرف خلالها ما يحدث من تاريخ قبل أن ينسحب الملك
منهم ويزيح مكانا لملك قادم بعده.. أصابني هذا بارهاق لم أصب بمثله من قبل قط ولم
يهدأ الصداع الذي اكتتفني ولازمني من حينها حتى توقف الهجوم الناري على عقلي
عند الملك (نبوخذ نصر).. يبدو وكأن زمن البشر قد توقف لبرهة يلتقط أنفاسه..
ويعطيني أيضا فرصة لالتقاط أنفاسي قبل أن يقتلني تسارع زمن ملوك البشر
واخترقاتهم المتتالية لعقلي..

قالت له (نينشوبور) بقلق:

- حاول ألا تجهد نفسك كثيرا.. المدينة الآن بلا سيد.. على الأقل حتى نسمع عن السيدة
(إينانا)..

نظر لها الحكيم (ماندانو) مليا قبل أن يقول وقد بدا مترددا للغاية:

- نحن الآن في وضع لا نحسد عليه.. ولا أخفيك قولا أننا أصبحنا هدفا محتملا سهلا
لأي سيد يريد مدّ بساط سيطرته على مدينة الراحل (أنو) والتي ستكون خطوة لا بد منها
لأي مستعمر من الأسياد يريد فرض سيطرته على العالم السماوي.. جيوشنا ستدافع بلا
روح في حالة عدم وجود سيد وسيصبح اختراق أسوارنا مسألة وقت لا أكثر..

شعرت (نينشوبور) بشيء ما يتردد بين جنبات عقله فبادرته متسائلة:

- هناك ما تفكر به أيها الحكيم.. أليس كذلك؟

تنهد الحكيم مجيبا بإيجاز:

- بلى..

ثم قال بتأنّ مشددا على كل حرف يقوله:

- نحتاج لسيد يقوم بحماية (الوركاء) الآن..

سألته:

- هل تعني السيد (إنليل)؟

- السيد (إنليل) لديه الآن ما هو أخطر بكثير من حماية مدينة أخرى غير مدينته.. أفكر في سيد آخر موجود بالفعل ولا نحتاج إلا لترويضه..

تساءلت (نينشوبور) متمنية أن يكذبها الحكيم:

- لعلك لا تعني الوحش (خومبابا)؟

أوما برأسه إيجابا فسارعت بالاعتراض قائلة:

- ولكنه وحش دموي لا يمكن التفاهم معه..

- وكذلك كان التنين (موشوسو) قبل أن يروضه (نينازو)..

- (نينازو) أحد الأسياد قبل أن يكون محاربا صنديدا.. من سيقوم بترويض (خومبابا)؟

نظر إليها في عينيها مباشرة قائلاً:

- أنتِ يا (نينشوبور) !

بدت (نينشوبور) كالمصعوقة وهي تردد بذعر:

- لعلك لا تعني هذا حقاً!

صمت الحكيم قليلاً قبل أن يتحرك ببطء نحو كومة من الرُّقم بأحد أركان الغرفة، انحنى وهو يمسك ظهره متألماً مركزاً نظره على العناوين المنقوشة على الرقم قبل أن يختار أحدها ويرفعه بيديه ثم يضعه على طاولة حجرية بجانب (نينشوبور) ويشير لها نحو الرقيم قائلاً:

- لو افترضنا بصحة ما كتبه الناقلون بهذا الرقيم عن ما قاله الأقدمون عن كيفية تروييض الوحوش من الأسياد، فلن يكون الأمر صعباً كما تتخيلين..

لمحت (نينشوبور) بطرف عينيها عنوان الرقيم القائل (تروييض الأسياد) فامتقع

وجهها أكثر وهي تتذكر مغامرتها الأخيرة مع اللص (زاموك) والتي حالفها الحظ

وخرجت منها على قيد الحياة، المغامرة التي غامرت وخاضتها فقط من أجل السيدة

(إينانا) رغم علمها بمدى خطورتها والتي قد تؤدي بحياتها.. مغامرة أخرى مطلوبة

منها من أجل السيدة ولكن الخطر هذه المرة لا يمكن وصفه.. ستكون وجهها لوجه أمام أحد الأسياد الوحشية إن لم يكن أشدها خطورة.. وحش ذائع الصيت بأنه لم يستطع أحد رؤيته لأنه يفتك بكل ما تقع عيناه عليه.. وحش ينتمي لحقبة الأسياد القديمة ك(أنو) و(موشوسو).. وحش جعل من حدود (الوركاء) الرابض بها سدا منيعا لم يجرؤ أحد على اختراقه من قبل قط.. حتى الغزاة سيديا (كيش) رغم امتلاكهما لوحش مروّض وضعاً حساباً لوجوده وتسلاً للمدينة من جهة بعيدة عنه.. فكرت (نينشوبور) وقد هدأت قليلاً ربما الأمر يستحق المحاولة بعد كل شيء.. ولكن كيف؟ كيف يمكن لفتاة رقيقة شابة مثلها أن تقوم بترويض ما لا يمكن ترويضه؟!

وكان الحكيم قرأ أفكارها ومخاوفها وآمالها فربت على كتفها بعطف وهو يقول لها:
- الأمر يتطلب شجاعة قد لا يملكها أعتى المحاربين.. هوني عليك يا ابنتي وبإمكانك القبول أو الرفض..

ثم قال بحزن:

- لو كان الأمر بيدي لتطوعت بهذا الأمر.. ولكن صحتي لن تتحمل.. لقد صار مجرد المشي عبئاً جسدياً عليّ..

ابتسمت له (نينشوبور) رغماً عنها وقد وصلتها أحاسيسه كما يشعر بها لصدقه الكامل معها، وشدت على يده قائلة وقد دمعت عيناها من فرط التأثر:

- وجودك هنا أكثر أهمية من أي شيء آخر أيها الحكيم.. لا بد أن تظل سليماً معافى عند عودة السيدة (إينانا) لمدينتها..

ثم زفرت جمراً من نار وهي تقول:

- لا بأس.. أطلعني على كل ما يقوله هذا الرقيم العتيق ولنأمل أن يكون قد نُقل عن صدق وليس عن خيال متحمس كاذب..

ابتسم لها وتعبير غريب يرتسم على ملامح وجهه وهو يهمس لها:

- ما قيل هنا عن الوحش (خومبابا) باختصار أنه لا يُمكن ترويضه رغماً عنه!

26- الكاهنة

مدينة (إيسن) البشرية..

تسللت أشعة الشمس عبر طبقات الغيوم الكثيفة الركامية في محاولة يائسة لبث ضوئها وحرارتها، إنها بداية فصل الشتاء حيث تتشابه كل فترات النهار وتتحد لتمثل فترة وحيدة طويلة شحيحة الضوء تجعلك تشعر وكأن الليل قد أوشك على أن يجن، ريح باردة قوية تلفح الوجوه وتسبب قشعريرة باردة بالأجساد، أذرت الأجواء بمطار رعدية على الأبواب فقلّ عدد المشاة بالشوارع وأغلق أغلب التجار حوانيتهم ليتبقى من هو بأمس الحاجة لأي (شاقل) قد يأتي من مشتري واحد محتمل، وقد قام أغلبهم بصنع قبة قماشية فوق رأسه لتقيه وتقي بضاعته -وهي الأهم- شرّ السيول الرابضة بمكانها بالسماء، وعلى النقيض زادت لحدّ ملحوظ عدد دوريات احترازية سيارة للجنود بأغلب المناطق لمدينة (إيسن) بالتزامن مع بدء علامات الأمطار الموشكة، تدق أرجلهم الأرض دقا وهم يقومون بفرز منهجي لشوارع وأحياء المدينة في محاولة لحصر أي عالق بالخارج قبل بدء ويلات العاصفة الماطرة..

شق صمت الأجواء صرير عجلات خشبية يجرها زوج من البغال القوية ويقودها حوذي أسمر البشرة، كانت تنقل كاهنة معبد (غولا) -الإلهة الرئيسية وحامية (إيسن)- رأسا نحو الربوة التي يعلوها المعبد، يتقدمها اثنان من الجنود على صهوة زوج من الحمير، وخلفها أربعة من الحمير يعلوهم أربعة من العبيد الأشداء، موكب بسيط تحدى العاصفة التي تتحضر لضرب المدينة -قاصدا زيارة تفقدية من الكاهنة للمعبد ذائع الصيت بمدن (بابل) كلها كمركز للطب واستقبال المرضى وتشخيصهم وعلاجهم، المعبد الذي يقوم بتعليم أجيال من الأطباء على أسس منهجية محترفة، ويتلقى طلبات لندب أطباء من شتى المدن لعلاج بعض الحالات المستعصية على العلاجات المعتادة.. واستقرت الكاهنة بالداخل تنظر بفضول للسماء عبر نافذة غرفتها المحمولة بعينين واسعتين تنضحان بالذكاء ومكحولتين ليبرز جمال شابة سمراء البشرة لم تصل للثلاثين من عمرها، ملامح وجهها دقيقة وإن كانت شفتاها ممثلنتين مزمومتين بعزم وتحد، تضع فوق رأسها عمامة على شكل فك تمساح مفتوح لينسدل من أسفله كتلتان

من شعر أكرت غزير حالك السواد يرقد على كتفيها العاريتين، وقد استقرت بجانبها الحقيبة المميزة التي تحتوي على بعض المواد العشبية الهامة للإسعافات الأولية وحفنة من آلات جراحية من برونز ونحاس.. ورغم كونها كاهنة المعبد برزت في ملامحها وسماتها لمسة من بأس ملكي توارثته من أبيها ملك (إيسن) القوي (نبوخذ نصر).. أول من حمل هذا الاسم وإن لن يكن الأخير.. والذي امتلكت (إيسن) في عهده هيبية عسكرية جعلتها تناطح (أشور) الرهيبة شمالا وتهدد وجودها كقوة عسكرية غاشمة، وكذلك وصل لعمق أراضي بلاد (عيلام) شرقا ونهب كثيرا من أراضيهم.. بالإضافة لاهتمامه بالعمارة والأدب، إلى جانب تركيزه على إبقاء معبد (غولا) في نفس مستواه المعتاد وتزويده بكل ما يحتاجه عبر تواصل بلاطه مع الكاهنة -ابنته- كما جرى العرف بين ملوك (إيسن) على تولي بناتهم كهانة معبد حامية المدينة السيدة (غولا).. بالرغم من حقيقة أن ملوك (إيسن) (عموريين) ولكنهم اعتبروا أنفسهم خلفاء لحكام (أور) بعد سقوط آخر ملوكها وزوال الحكم



السومري، واستمدوا من التراث السومري أصلا لهم مشوا على نهجه وعدّوا أنفسهم ورثاء (سومر) ب(إيسن) وأكملوا سلالتين حاكمتين متعاقبتين بها، وسّعوا رقعة حكمهم كثيرا حتى دانت لهم (أور) و(الوركاء) و(إريدو) و(الكش) و(أوما) وغيرهم من مدن عظيمة، ناطحهم ملوك (لارسا) طويلا ونجحوا في انتزاع الملك منهم لفترة، ثم دانوا لحكم (حمورابي) لفترة أخرى، ثم حكمهم (الكاشيون) قبل أن يستردوا مجدهم ثانية على يد عدد من الملوك آخرهم الآن هو الملك (نبوخذ نصر) والذي أصبح ل(إيسن) في عهده اسما عظيما بين جميع مدن ما بين الرافدين، ولكنه لا يعلم أنه بوفاته ستتكاثر على (إيسن) هجمات (العموريين) ولن يمر قليل من الوقت حتى يستعيد (الكاشيون) حكمهم ل(إيسن) منهيين وجود سلالات حاكمة بها للأبد..

تحرك الركب مرتقيا الربوة الحمراء ليبيرز المعبد شامخا وقد كسته الغيوم المتراخمة بظلال مظلمة، (الحصن العالي) كما يطلق عليه، بتصميم مربع الشكل مؤلف من جناحين أيمن وأيسر يحتوي الأيمن على غرف للفحص والتدخلات الجراحية وجلسات العلاج، والجناح الأيسر على غرف حجز وعزل المرضى، وجزء خلفي به مكتبة ممتلئة بالرقم الطينية ذات المواد الطبية في مختلف أفرع الطب، والتي دائما يتواجد بها راغبي تعلم الطب والتلاميذ وصغار الأطباء ينهلون من بحر علم طب بلاد الرافدين، قادمين من (إيسن) نفسها وكذلك من مختلف المدن والبلاد.. المعبد كله مبني بالآجر الذي تلون بلون أبيض حصريا لطرد شمس الصيف اللاهبة، توقف الموكب أمام بوابة المعبد فقام اثنان من العبيد بمساعدة الكاهنة على التمرجل من غرفتها الصغيرة لتستقر قدمها الدقيقتين على الأرض الحمراء، ألقت الكاهنة نظرة عابرة على نحت حجري بمنتصف البوابة لعصا تستقر أرضا رأسيا وقد التفت حولها أفعى متسللة من أسفل لأعلى فاتحة فكيها في محاولة لالتهام طرف العصا الأعلى، رمز الطب والصيدلة الشهير المستوحى شكله من فكرة وفلسفة الخلود الواردة عبرتها بخاتمة ملحمة (جلجامش) الخالدة، وقد تناثرت حوله عدة تماثيل لكلاب سوداء في عدة أوضاع جعلتها تبدو وكأنها أجساد من قطيع حقيقي لكلاب حية – ولكن متجمدة- من شدة دقة النحت، وهذا متوقع حيث رمز الكلب للإلهة (غولا) والمقدس ببلدة (إيسن) لدرجة تخصيص جزء خاص من المعبد لمعالجة الكلاب المريضة على يد عدد من الأطباء البيطريين المتواجدين بالمعبد، وجزء آخر أسفل المعبد كمقابر للكلاب.. أضواء وجه الكاهنة بوهج

لامع يعبر عن انعكاس خيط دقيق من البرق شق السماء، تجاهلته وهي تتقدم بين تماثيل الكلاب المقدسة لتعبر البوابة الكبيرة، وجدت أمامها مفترق لثلاث طرق، أوسطهم يقود عبر ممر خاص لغرفة قدس الأقداس، وطريقين يمينا ويسارا يفضي كل منهما لأحد الجناحين الأيمن والأيسر الخاصين بغرف المرضى.. اتجهت لليمين لتعبر بابا صغيرا لترى أمامها ممرا طويلا عريضا اكتظ جانبيه بغرف عديدة ناهز عددها الثلاثين غرفة، امتلأ أغلبها بمرضى في حين كان كل طبيب يباشر عمله بعدة غرف، يبدأ بأحد المرضى قبل أن ينعطف للغرفة المقابلة وينظر مريضا ثانيا، يتبعه كظله شاب عشريني -عبد- ينتظر أو امره ليحضر له ما يطلبه من أعشاب أو أدوات جراحية..

تنقلت الكاهنة بين الغرف ونظراتها تتابع المرضى الذين اختلفت شكواهم وتراوحت ما بين شكاوي باطنية بسيطة لا تستدعي سوى نصائح سلوكية وغذائية، وبين شكاوي تستدعي تداخلات جراحية خطيرة.. تابعت بعينها أطباء جراحين ومجبري عظام وأطباء عيون وطببيات قبالة وتوليد.. لفت انتباهها أحد الأطباء وقد كان يقم مديّة برونزية بعين مريض جالس أمامه بعد أن قام بتخديره بالأفيون بالطبع، ما استرعى نظرها هو فقدان الطبيب لثلاثة من أصابع يده اليسرى التي كان يستند بها على كتف المريض فتذكرت المادة 218 من قانون (حمورابي) القائل بأن الطبيب في حالة إجرائه جراحة لمريض بسكين وتسبب بوفاته أو فتح محجر عين وأتلفها فعليه كعقاب فقدان عدد من أصابع يديه، وبالرغم من أن أغلب الأطباء كان يحتال على هذا الحكم ويقوم بدفع غرامة مالية إلقاءً لفقدان أصابعه، ولكن من الواضح أن البعض لم يستطع القيام بهذه المقايضة الحيوية.. قانون عنيف كهذا تسبب في قلة عدد من يختار منصب الجراحة بين جميع التخصصات..

تجاوزته الكاهنة واختارت الغرفة التي تليه حيث استقر طبيب باطني بما يشبه عيادة بدائية على كرسي منخفض ممسكا رقيما طينيا صغيرا بين يديه يكتب به التعليمات لأحد المرضى.. وكان يتمم وهو يدق بطرف آله المستدق على الطين: (نبات الصبر علاج لداء المرارة.. يسحق ويدق ويسخن ويشرب قبل الفطور مع الزيت المصفى..)

تلاه مريض ثانٍ فتابع الطبيب أخذ التاريخ المرضي منه وسأله بعض أسئلة قبل أن يطلب منه أن يريه كيف يسعل ثم أوما برأسه متفهما وتناول رقيما جديدا وكتب عليه قائلا: (لعلاج السعال عليك بشرب عرق السوس المسحوق والممزوج مع الزيت

والخمر..) كان الشاب التابع له يهرع ليدس يديه بداخل أواني فخارية امتلأت بالأعشاب، فيختار منها ما يتلوه الطبيب ويقوم بالمطوب من مزج أو تسخين أو سحق قبل أن يعطيه للمريض بابتسامة عريضة متمنيا له الشفاء..

لم يلحظ الطبيب حتى الآن تواجد الكاهنة بالقرب من الباب وهو يناظر مريضا ثالثا يعاني من آلام بالبطن، فقام بجسّ نبضه وحساب ضربات قلبه قبل أن يقوم بلمس أماكن معينة ببطنه ثم تناول رقيمه وهو يكتب قائلا: (معدتك المضطربة هي سبب عدم تقبلك للطعام.. تناول بذور الطرفاء وتمزج مع العسل واللبن الخاثر.. فتأكلها فتشفى..)

دخل عليه مريض يصيح وهو يعرج على قدم يبدو كاحلها منتفخا للعيان، مع دخوله اتخذت الكاهنة جانبا لتفسح له طريقا آمنا للتحرك فانتهبه الطبيب لوجودها وسارع بالوقوف احتراما وهو ينحني مرددا: (عذرا سيدتي الكاهنة كنت مستغرقا بعملتي فلم الحظ وجودك ولم أقم باستقبالك كما يجب..)

أشارت له الكاهنة بلا مبالاة وهي تقول:

- لا عليك.. أقوم فقط بمتابعة أسلوب أطباء معبد الإلهة (غولا) كأجراء روتيني.. أرجوك قم بعملك ودعك من الرسميات..

تفهم الطبيب الوضع وسارع بالتقاط قدم المريض الذي قام الشاب المساعد بإسناد جذعه بيديه، سأله الطبيب عن كيفية الإصابة ووقتها، ثم طلب منه تحريكها في عدة اتجاهات قبل أن يأمر مساعده بإحضار جذور عشبة حمراء مسحوقة ويمزجها مع القير والبيرة، وأثناء قيام مساعده بعمله هذا كان الطبيب يدعك محل الإصابة المنتفخ بالزيت مطمئنا المريض بعدم وجود كسور بالعظام وأنه سيحتاج فقط قسطا من الراحة مع بعض العلاجات العشبية لمدة أيام قبل أن يستطيع استخدامها بشكل كامل وبلا مضاعفات..

غادرت الكاهنة الغرفة بعد أن شكرت الطبيب على قيامه بوظيفته بنشاط ومهارة، مرت على غرفة تالية يقوم فيها جراح ببتير ساق مصابة بالغرغرينا، وغرفة أخرى بها مريضة تبدو ميتة ولكن بانتفاخ واضح لحمل مكتمل على بطنها المكشوف، وكان الطبيب يهتف بمساعده ليجلب له سكيناً جراحياً ليقوم بشق البطن في محاولة لإنقاذ الجنين.. تركتهم لتتجه لغرفة أخرى جلس بها مريض يئن باستمرار وقد بدا وجهه

شاحبا ونظراته زائغة، وكان الطبيب يحاول عبثا إيجاد علته فعانى من الفشل، وفهمت الكاهنة أن المريض يعاني من عدة أيام من نفس الشكوى ولم تجد معه أعشاب أو عقاقير، لا يستسيغ طعاما ولا شرابا، يتكلم باستمرار مع نفسه ويضحك بسبب أو بدون سبب، لما انتبه الطبيب لوجود الكاهنة ارتبك وقال لها بتلعثم: (سأقوم بنقله للقسم السفلي.. يبدو وأن الشياطين قد استولت على قلبه ولا بد من طردها بالسحر والطلاسم..) فأشارت له الكاهنة براحتها لتمنعه قائلة بحزم شابه شيء من رقة: (لا عليك أيها الطبيب.. داؤه ليس له دواء بيده.. دواؤه بيد غيره.. يبدو وأن مريضك يعاني من داء عضال.. داء اسمه الحب!)

أسرعت الكاهنة الخطا وقد أرضاها ما وجدته من مستوى للأطباء بالمعبد، لتنتهي من الجناح الأيمن وتتجه يسارا حيث رأت عدد كبير من غرف أخرى بالجناح الأيسر اكتظ بالمرضى فتجاهلته لتعبر للأمام نحو القسم الجنوبي مباشرة.. فرأت أول ما رأت تمثال عظيم للإلهة (غولا) وقد تم نحت ختمها على قاعدته ختما دائريا منقوش على وجهه رجلان واقفان متقابلان وقد وضع كل منهما على رأسه تاجا رافعا يديه للسماء.. ومنحوت على رقيم طيني متدلي من السقف عبارة: (أنا الطيبة.. أعرف كيف أشفي.. أحمل معي الأعشاب.. أملك حقيبة ممتلئة بالتعاويذ الفعالة.. وأحمل معي نصوصا عن الشفاء..)

تخطت الكاهنة التمثال لتجد حشودا من طلاب العلم والأطباء وقد تباينت ملامح وجوههم لتشي بقدمهم من عدة مناطق بعيدة، كلُّ جلس على سلالم من الأجر يتصفح رقيما يحمل عنوانا رنانا.. وقد تراصت الرُّقم على اليمين واليسار لمسافة طويلة جدا انتهت بمنصة مرصوفة بالأجر ومطلية باللون الأبيض كلون الجدران الأربعة، ثم تلا المنصة درجات حجرية تهبط لأسفل حيث غرفات العلاج بالسحر والتعاويذ لمن عانى من داء تلبس الشياطين بالبدن..

سارع اثنان من كهنة المعبد بالاتجاه نحوها وقاما بالانحناء استقبالا لها باحترام وأحدهما يقول لها:

- سيدتي كان بإمكانك إرسال رسالة لنا وكنا سنوافيكي بأخر مستجدات المعبد.. الأجواء بالخارج مضطربة للغاية..

أجابته الكاهنة بحزم:

- أشكرك على مبادرتك هذه أيها الكاهن ولكني أحب متابعة أمور المعبد بنفسى..
ثم سألتهما:

- هل حدثت أي زيادة بأجور الأطباء التي يتقاضونها من المرضى؟
أجابها الثاني:

- ما زالت الأجور كما هي.. يتقاضى الطبيب شاقلين للعبد وعشر شواقل للحر..
ويُخرج منه النصف -أو أكثر إن أراد- للإلهة (غولا)..
سألت برسومية:

- وماذا عن دراسة الأكباد بين صغار الأطباء؟
سارع أحدهما بالرد:

- نعطي أولوية قصوى لدراسة التشريح بشكل عام، ودراسة تشريح الكبد بشكل خاص.. نحرض على أن يتخرج الطبيب ليمارس عمله وقد أصبح يحفظ تشريح الكبد عن ظهر قلب.. فالكبد بالطبع هو رئيس جميع الأعضاء ومركز العاطفة.. وليس كالقلب مجرد مركزا للتفكير..

هزت الكاهنة رأسها موافقة ومؤيدة وقد لانت عريكتهما لحد كبير وعلامات الرضا
تشع من محياها..

سألت بنبرة توشي بأنه سؤالها الأخير:

- وماذا عن عروض المرضى في الأماكن العامة؟

كان من عادة أهل بلاد ما بين الرافدين في حالة عجز أطباء بلدتهم عن مداواة المريض يقومون بعرضه في الأماكن العامة شارحين علته آمليين مرور من كان قد أصيب بمثل ما اعتراه ليصف له خطوات شفائه، وهي خطوة شبه يائسة ولكن لها علاقة بمدى إمكانية الأطباء بتلك البلدة ويظهر هذا جليا عند زيادة عدد المرضى المعروضين بالأماكن العامة في مدينة ما فيما يدل على ضعف مستوى أطبائها..

أجاب أحد الكاهنين:

- العدد في تناقص مضطرد يا سيدتي.. خلال الثلاث شهور الأخيرة سجلت (إيسن) أقل معدلات عروض المرضى بالأماكن العامة..

غمغمت الكاهنة:

- هذا جيد.. أكملوا عملكم الممتاز.. لتتالكم بركات الإلهة (غولا)!

انحنى الكاهنان ثانية باحترام فدارت الكاهنة على عقبها متجاهلة الاستمرار نحو الغرف السفلية الخاصة بطقوس طرد الشياطين من أجساد المرضى، واتجهت نحو الرقم المصفوفة تفرز العناوين بمنتهى الاهتمام، كان هناك أمر ما يورقها بشدة أخفته عن كل من حولها حتى أقرب الأقرباء، لم تفصح عنه سوى لأبيها الملك (نبوخذ نصر) فنهرها عن تفكيرها وأخبرها أنها إن سلكت هذا المنحى في اعتقاداتها ستنالها الآلهة بسوء.. التقطت رقيما ما بعينه وأمسكته بعناية بأصابع يديها الدقيقة قبل أن تتحرك نحو درجات آجر قريبة وتجلس عليها لتطالع الرقيم بهدوء وتركيز.. ولم تكن تعلم أن عيني الكاهنين كانتا ترابعانها خفية بمكر..

تمتمت وهي تقرأ:

- الساحر بعد أن يسيطر على الروح المؤثرة في المرض يحولها إلى مادة حسية ثم يقضي عليها.. كأن يحولها إلى إناء به ماء ثم يكسر الإناء أمام أعين المريض وأهله فيراق ما به من ماء.. أو يحولها لتمثال من الخزف يُربط به جسم المريض ثم يُرفع عنه..

هزت رأسها بعدم اقتناع وهي تكمل القراءة من نقطة أخرى:

- ومما يُتَّبَع في علاج عقدة اللسان أو التواء الأمعاء أن يُؤْتَى بحبل عُقِدَت فيه عدة عقد، ثم يحلها الساحر واحدة واحدة وهو يتمم بالتعويذات اللازمة..

وضعت الرقيم جانبا وقد استاءت مما قرأت ومما يتم بالفعل باسم العلم بين جدران معبد الإلهة (غولا) إلهة العلم والطب -من دَجَل واستغلال لجهل شريحة كبيرة من الناس وتصديقهم لأي شيء قد يصدر عن من يدعي اتصاله بالآلهة.. هؤلاء السحرة - أو من يزعمون أنهم كذلك- يدعون بأنهم الواسطة بين المريض وبين قوى الأرواح

التي تتحكم في التأثير المرضي على المريض، ويضيف لقبه كساحر لفظ طبيب ليصبح الطبيب الساحر والذي قادر على طرد الأرواح الشريرة من جسد المريض.. هي تعلم ما لهؤلاء السحرة من نفوذ كاسح وشعبية جارفة بين العوام قبل الحكام، ولهذا فهمت مقصد والدها الملك من نصيحتها له بعدم الخوض ضدهم حربا خاسرة سواء صدقت أو لم تصدق في اعتقادها..

كان زوجًا من الأعين يراقبها بصمت.. همس الكاهن الأول للثاني:

- هل لاحظت أنها لم تنزل يوما لغرفة السحرة بالأسفل؟
- وكأنها تحتقرهم..

- بل الأشد خطورة.. وكأنها لا تعترف بوجودهم..

- إنهم نقاط اتصالنا مع الآلهة..

ثم أكمل بهمس أكثر انخفاضا:

- ومصدر دخل هائل لنا جميعا مما ينالوه من هبات وتبرعات وقرابين بسبب شعبيتهم..

راقب الاثنان بقلق الكاهنة وهي تحرك شفيتها محدثة نفسها، فقال الأول:

- ذاك الرقيم يتحدث عن طرق السحرة لطرد الأرواح الشريرة..

- الموضوع يشغل بالها إذا..

قامت الكاهنة شاردة النظرات، وغادرت القاعة ميممة شطرها اتجاه بوابة المعبد بدون أن تلتفت خلفها، فنظر الكاهنان لبعضهما البعض وقد عزموا على فعل أمر شرير للغاية.. سيغدرون بالكاهنة بكل تأكيد وبكل رضا.. سيفعلون كما فعل كهنة أسلاف لهم من قبل بالكاهنة (إنخيدوانا) بنت (سرجون) وقاموا بنفيها.. دائما تأتي النهاية بانتصار الكهنة.. انتصار المعبد.. انتصروا على الأدب مع (إنخيدوانا).. وانتصروا على العلم مع كاهنة معبد (غولا).. فلو كان هناك درس مستفاد فهو أن المعبد لا يخسر.. وحتى من جرؤ وتحدى المعبد جهرا كالملك (نارام سين) فقد لاقى أشنع المصائر على يد الهمج البربريين

الذين أنهموا وجود سلالته من الوجود ولو بعد حين.. المعبد قد يتأخر في الرد
والعقاب ولكنه لا ينسى قطّ..

27-طبول الحرب

مدينة (ماراد) السماوية..

ضم (نينورتا) قبضته بعنف وهو يقول ل(إنليل):

- يا لها من مفاجأة.. (زابابا) يطالب الآن بمنصب سيد الأسياد..

ثم أضاف ساخطاً:

- لو لم أكن في خضمّ حرب ضد (عسق) وحلفائه المجهولين لسرتُ إليه بجيوشي ودمرت مدينته -مدينة (كيش)- عن بكرة أبيها ولجعلت منه عبرة و عظة لكل من تسوّل له نفسه دخول (الوركاء) محارباً..

قال (إنليل):

- لا بد وأنه يعلم.. لهذا بادر بفعل ما فعل..

تدخل (إيرا) قائلاً:

- أعتذر أيها السيد (إنليل) ولكني أرى سببا آخر لما فعله (زابابا).. فلدنيه الدافع لهذا الفعل العدوانى منذ دهور ولكنه لم يجرؤ على فعله إلا عندما أظهر الراحل (أنو) رسالته.. هناك شيء جذبته بشدة وجعله يتخلى عن حذره بخصوص أطماعه ويلجأ لحل عنيف ودموي وعلمي مثل اغتيال سيد الأسياد..

نظر له كلا من (إنليل) و(نينورتا) باهتمام فقال باختصار:

- فقد الاتصال بين العالمين.. هذا ما كان ينتظره (زابابا) إن لم يكن يحلم به ليلا نهارا..

غمغم (نينورتا):

- إنه يريد الآن صنع عالم سماوي جديد لا يؤثر أو يتأثر بعالم البشر..

قال (إنليل):

- لقد بدأ بالفعل في صنعه..

- لن أسمح له!

قالها (نينورتا) صائحا بغضب عاتٍ فعاجله (إنليل) بالقول:

- لن نستطيع الحرب في جهتين لو بادر (زابابا) بالهجوم على (نيبور) في نفس توقيت هجوم (عسق) وحلفائه على (ماراد).. المدينة ليست محصنة ك(ماراد) وتحتاج لجيوش (ماراد) وجهود قائدها أيضا..

رد عليه (نينورتا) قائلاً:

- لا تبالغ في تقييم قوة (زابابا) وجيوشه.. ولا تنس أن لدينا المشعوذ..

تمتم (إيرا):

- أشعر بقربه.. إنه على أبواب (ماراد) الآن ولكن..

صمت وقد ضيق عينيه يتأكد من شيء ما قبل أن يقول بتعجب:

- ولكنه عاد بدون كينونته!

نظر له (إنليل) متسائلاً بينما سأله (نينورتا) بعصبية:

- ماذا تعني؟ من الطبيعي أن يتحرك المشعوذ بدون عرض كينونته.. إنه من الطراز الذي يفصل كينونته كمشعوذ عن طبيعته كقرين لك.. ويحتاج لإخراج كينونته بنفسه وقت الحاجة..

قال (إيرا) بصوت منخفض:

- حتى لو يكن يستخدمها كنت لأشعر بها.. الأمر يختلف.. لقد فقدها!

عقد (إنليل) حاجبيه قائلاً:

- هذه ليست بالأخبار المرجو سماعها..

ثار (نينورتا) وهو يدور حول نفسه صامتاً لا ينطق، ذهنه يغلي بمئات الاحتمالات أهونها كارثي.. احترم (إيرا) غضبه ولم يتحدث حتى تنامى لسمعهم دق خطوات المشعوذ (إيرا كال) قادماً من الخارج، وكانت مفاجأة مدوية لما رفعوا عيونهم ليلقوا نظراتهم عليه.. كانت ملابسه شبه ممزقة بالكامل وصدرة يعلو ويهبط بعنف كما لو كان يلهث من فرط المجهود.. لون كُرَتِي عينيه فقدا بريقهما السابق وطلّ بدلاً منه شعاع خافت باهت الاحمرار.. بدا كشخص سماوي يعاني أكثر منه مشعوذ ساحر.. وكان مطأطئ الرأس بادي الانهزام وهو يقف قبالتهم مردداً بضعف:

- اعذروني أيها الأسياد.. لقد وقعت كالغر الساذج في فخ أفقدني كينونتي.. أخشى أنني لم أعد ذا قيمة تُرَجَى منذ الآن..

سأله (إيرا) بقلق:

- هناك ما هو أكثر أهمية وخطورة.. هل استولى عليها أحد ما؟ أم أنه مجرد فقدان؟

أجاب (إيرا كال) بتخاذل:

- لقد أصبحت سيدة الصحاري (إيشارا) تملك كينونتي الآن.. وهذا الشيء الوحيد الذي قد أفيدكم به.. لقد أصبحت حليفة ل(عسق) وتمتلك مدينة من العقارب ببقعة ما شمال (ماراد) تحت رمال الصحراء.. ومنها قامت بنصب الفخ لي..

صمت الجميع ليتمصوا أثر سيل المفاجآت الرهيبة.. فقدوا المشعوذ بكل قدراته السحرية.. ثم - والأشد تنكيلا- انتقلت كل هذه القدرات لسيدة الصحاري وملكة مدن العقارب (إيشارا) وهي ساحرة لا يشق لها غبار.. والآن (عسق) قد تحالف معها وهم على وشك الهجوم المزدوج على (ماراد) بكل تأكيد.. الأمور تزداد تعقيدا مع الأخذ بالحسبان (زابابا) وأطماعه والذي قد يجده على أبواب (نيبور) في أي لحظة..

أشار (إيرا) لقرينه إشارة خفية فسارع (إيرا كال) بالتحرك نحوه قبل أن يتموج جسده متحدا بجسد (إيرا)، للمرة الأخيرة فيما يبدو إذ لم يعد لخروجه مبررا منذ الآن، فأخذ الأخير نفسا عميقا قبل أن يزفره ببطء قائلا:

- لننظر للجانب الإيجابي.. لقد عرفنا حليفة (عسق)..

سارع (نينورتا) بالقول موجه الحديث ل(إيرا):

- الأمر يختلف تماما الآن.. سنحتاج لتأمين كل المناطق المحيطة ب(ماراد) متوقعين بدء الهجوم من تحت الرمال في أية لحظة.. سنقوم بواد أي هجوم خاطف قبل بدئه.. لقد أخطأت خطأ عظيما بترك (إيرا كال) يعطينا معلومة مثل هذه عن تواجدها بالساحة..

غمغم (إيرا):

- تظن أن معرفتنا بوجودها رسالة مفزعة بما يكفي لتثبط من عزيمتنا..

قال (نينورتا) بصرامة:

- هذا لن يحدث.. سنبدأ بتغيير خطط دفاعاتنا حسب المعطيات الجديدة..

ثم قال محدثا نفسه:

- لقد أحسنت العرافة (غولا) بتحذيرنا من الخروج لمهاجمة (عسق) خارج حدود (ماراد).. كنا لنفقد جيوشنا كلها وسط مدن العقارب الغارقة بأعمق الرمال..

قال (إنليل) شاعرا بالقلق:

- أعتقد أنك ستحتاجني وجيوش (نيبور) إلى صفك الآن..

تبادل (نينورتا) و(إيرا) نظرات سريعة قبل أن يقول (نينورتا) ل(إنليل):

- أعتقد أن توزيع قواتنا بين المدينتين سيكون له تأثير أفضل من ترك إحداهما بلا حماية..
بإمكاني أنا والقائد (إيرا) القتال على جبهتين ضد (عسق) و(إيشارا).. وستحتاجك (نيبور) لربما
أراد (زابابا) مباغتتها..

قال (إيرا) كمن تذكر أمرا هاما نساها لفترة:

- ألم نخبرنا من قبل بأنك تساعد السيدة (إينانا) في إيجاد هالات إلهية من بين متفردين من
البشر.. هل صادفت أيا منها بالفعل؟

أجابه (إنليل) على الفور وقد كان بالفعل لا يولي هذه النقطة اهتماما كافيا من قبل:

- بالطبع .. لديها اثنتين منها..

قال (إيرا) بانفعال:

- هذا جيد.. لديك دعم قوي حقاب(نيبور) يمكنك الاستفادة منه الآن..

قال (نينورتا) مؤمنا على كلام (إيرا):

- لا تقلق على (ماراد) واهتم بجعل (نيبور) على أهبة الاستعداد.. لا تجعلهم ينالوا منك يا أبي..
أنت الوريث الشرعي للراحل (أنو) وهم ليسوا سوى مغتصبون أعدك أن ينالوا عقابهم..

28-(إنكي)

أحدهم قد رُشّ بالماء.. أحدهم قد تطهّر.. أحدهم قد تنقّى..
عسى أن يكون ما وراءك مناسباً.. وراؤك مصدر مياه (إنكي) رب (إريدو)..
ولكن عليك أن تتطهر بالمياه النقية ل(دجلة) و(الفرات)..
إنها مياه مقدسة.. مياه ساطعة..
الماء الذي قاده (إنكي) من الجبل العظيم..
المياه التي نزلت ب(أبسو) لغرض التطهير..
إنها نتاج (إريدو) وما حدث بها من تعويذة وسحر..
(إنكي) ملك المياه العميقة النقية لامس جسد الرجل ابن الإله..
فطهّره ونقّاه..
مياه (الفرات) المقدسة التي أعدّها (إنكي) بإخلاص..
وطهّرها بفمه المقدس..
ليتطهر بها أولاد (أبسو) السبعة..

(أشعار مترجمة من نصوص سومرية)



(إريدو) السماوية..

انطلق السيد (إنكي) طائرا خارجا من البوابة الضخمة لقصره المزدوج.. القصر الذي يقطنه أغلب الوقت كمقر للمعيشة وكمكان استقبال لزيارات الكاهن الأعلى المتكررة التي تطمئنه على سير الأحوال بالمدينة سواء السماوية أو البشرية.. القصر المزدوج لأنه منقسم لشطرين يتطابقا في التصميم والمحتوى، فيكفي أن تصف أحد النصفين ليتكلم في ذهنك التصور الكامل للقصر بتخيل النصف الآخر بنفس الشكل.. تماما كما القصر المزدوج بمدينة (إريدو) البشرية..

كان معتدل الحجم.. دقيق ملامح الوجه الذي ينتهي بلحية سوداء الشعر مجدولة مستدقة للأسفل لتستقر على صدره.. تعلق رأسه قبعة مخروطية الشكل غير مألوفة.. يرتدي تنورة مموجة تغطي كل جسده حتى القدمين.. نظرة عينيه أشبه بنظرة حالم لم يفق من نومه بعد..

ارتقى عاليا وهو يلقي نظرة متفحصة على مدينته بكل تفاصيلها والمماثلة لتفاصيل قرينتها البشرية.. ذلك السور الأبيض المربع الذي يحيط بجزء المدينة الديني.. تجاورت بيوت الكهنة والسدنة وطلاب العلم الديني لتحيط بزقورة (إنكي) المركزية.. الزقورة التي لا يوجد مثلها بكل مدن (سومر) السماوية أو البشرية سواء في ضخامة حجمها المهيبة أو في ارتفاعها فوق السحب بسبب كون قواعدها قد تأسست فوق تبة رملية عالية.. يحتاج زائرها لتسلق مرتفع رملي منحدر يأخذ منه جهدا ووقتا حتى يصل فقط لبداية الزقورة الأصلية.. وبعد عدة طوابق مدرجة يتربع معبد (إنكي) فوق قمته وقد تشوشت رؤيته بالعين ولم تكن واضحة بسبب الغيوم التي تحيط به وتمر به لتخرقه طيلة النهار والليل..

غير (إنكي) وجهة نظره لتستقر خارج الأسوار حيث برزت ثلاث نجاد تحيط بالمدينة الدينية من ثلاث جهات.. كانت هذه النجاد مستقرا لبيوت كثيرة متلاصقة يسكنها العامة من أهل (إريدو) ممن ليس لهم ميول للعمل الديني.. وكأنها ثلاث مناطق مختلفة تكوّن معا الجزء المدني من (إريدو) والمحيط بالجزء الديني منها ويقوم بحمايته عبر الكتابب الثلاثة التي تحيط كلها بمساكن النجاد الثلاث.. فقد كان جزء غير يسير من تكوين

السكان لبيوت هذه النجاد يشمل الجنود المكونين لجيش (إريدو) الحامي وقائدي الكتائب والجيوش..

يم (إنكي) وجهه شطر الشرق وألقى نظرة ثاقبة بعيدة المدى.. نظرة لا يمكن لأي كائن عادي -سماوي كان أو بشري- من أن يرى مثلها.. حتى كثير من الأسياد لا يستطيعون رؤية هذا الحد بعيونهم.. ولكن عيونه هو اخترقت المسافات الشاسعة وعبرت الفيافي والقفار وتجاوزت حدود مدينة (أور) الواقعة شجها الشمال الشرقي، تجاوزت نظرتة كل هذا لتستقر على رأس الخليج.. الخليج الذي هو مستقر ومصب نهائي لنهري (دجلة) و(الفرات).. الماء الذي حُرمت منه (إريدو) السماوية دهرًا بسبب ما نال من قرينتها البشرية من جفاف وضمور للفرع الذي كان يغذي المدينة من (الفرات).. ولم يعود الوضع لسابقه حتى بعد إيعاز كبير الكهنة السماويين ل(أورنمو) بحفر قناة تغذي مدينة (إريدو) تأتي من (الفرات).. لم يفلح هذا وكأنها لعنة وحلت بالمدينتين.. حلت بمدينة البشر فتأثرت بها مدينة المساويين بالتبعية كما يقتضي القانون.. ولكن كل هذا كان من الماضي..

ابتسم (إنكي) رغما عنه وهو يستعيد ما أخبره به كبير الكهنة منذ ساعات.. ما حدث من أهوال بمدن السماويين بدأت بخبر الرسالة التي ادعى (أنو) أنه يحملها للسماويين، وانتهت باغتياله في قصره وتفشي معلومة تداعي حواجز الدهر وبدء تفكك العلاقة بين العالمين البشري

والسماوي.. ويا لها من أخبار سارة.. العالم السماوي الذي كان دائما وأبدا رهن أي تغير بعالم البشر لم يعد كذلك.. القيود التي كان يفرضها هذا الارتباط تم تحطيمها وصار كل من العالمين مستقلا بنفسه.. الآن سيقوم (إنكي) بإعادة المدينة لبهاها السابق ومجدها الغابر.. مدينة الملوك وأول مدينة وطأتها قدم سيد.. فهنا تواجد السيد (أبسو) قديما ربما حتى قبل ظهور (أنو) وبدء تكوينه لأسرته الحاكمة.. السيد (أبسو) رمز المحيط والبحر وكل ما هو مائي وبدء الحياة.. كان هذا قبل أن يختفي بالعالم السفلي لأسباب غير معروفة.. حروب قديمة قدم العالم السماوي نفسه لا يعرف أحد عنها شيئا إلا همسا.. أشياء تقال فتبدو وكالأساطير التي يحكيها البشر عنهم في تصورهم لهم بأنهم آلهتهم.. خلت الساحة للابن الوحيد ل(أبسو)، السيد (إنكي) الذي وجد نفسه سيذا صغير السن والخبرة وسط عالم يعج بالأسياد الأقوياء ذي البأس.. نما وتطور شيئا

فشيئاً بمساعدة الكهنة الذين تولوا على عاتقهم تنشئة هذا السيد ابن العظيم (أبسو) عبر الأجيال إيماناً منهم بأنه يوماً ما سيكون أقوى من كل الأسياد.. نهل من بحر حكمتهم سنينا لا تحصى امتلك بها مقاليد تاريخ السماويين والبشر وأصبح يعرف كل ما خطته يد مؤرخ يوماً ما في العالمين.. وبزغت لديه بوادير حكمة لا مثيل لها في انتظار الوقت الملائم لاستغلالها كما يجب.. ولكن كان ل(أنو) و(إنليل) رأي آخر سيطروا به على مقاليد الحكم على ممالك (سومر) السماوية بأسرها على مر العصور.. حتى شب (إنكي) ليجد نفسه سيداً لمدينة شبه جافة.. وهو سيد الماء وابن المحيط والبحر.. ولكن لم يعد كل هذا إلا ماضي وولّى.. والحاضر سيُكتب بدءاً من الآن من جديد.. والأقوى فقط سيسود..

نظر (إنكي) للماء نظرة مشتاق لم يرَ معشوقه منذ دهور.. ثم عاد ليحلق عائداً لقصره وهو يقول مغمماً لنفسه بتصميم:

- ستكون البداية من هنا!

ثم توقف أمام قصره.. ركز نظره الثاقب متعدي الحدود المادية على الأرض.. اخترق بصره طبقات الأرض عميقاً.. عميقاً جداً.. تنهأ لسمعه صوت الخريز قبل أن يراه.. أنهار من المياه الجوفية متواجدة على عمق عدة طبقات وفي مناطق مختلفة.. قبض قبضتيه وتقلصت ملامح وجهه بشدة.. تحرك الماء بم يخالف قواعد الطبيعة.. تشققت طبقات الأرض لتفسح الطريق للماء الهادر من الأعماق.. تجمعت الأنهار وصارت بعضها للبعض الآخر روافداً ومنابع.. اختفى الماء من أغلب المناطق ليتجمع ويتكاثر في بقعة بعينها.. زمجر (إنكي) بعنف وهو يرفع يديه فتحركت كتلة الماء الرهيبة لتدمر كل طبقات الأرض في سعيها الحثيث نحو سطح الأرض.. أغمض عينيه وهو يبذل أقصى ما يملك من قوة لدفع الماء عبر الأرض.. انفجر سطح الأرض مصدراً قرقرة مرتفعة امتزجت بهدير مخيف للماء الصاعد.. ثم حرك يديه وأصابه بتناغم فتوقفت المياه عن الارتقاء وانقسمت لجداول عريضة صارت تلتف حول نفسها وتدور وكأنها تتراقص برشاقة.. ثم تحركت الجداول المائية مع حركات متتابعة من أصابعه لتدور حول القصر مكونة سداً حائلاً مائياً رهيباً لا ينفك عن الحركة والدوران حول القصر.. جداول احتفظت كل جديدة منها بتماسكها وكأنها ليست بسائل.. وكأن غلافاً غير مرئي يجمع الصفائر المائية ويحافظ على وحدتها.. خفض (إنكي) ذراعيه وهو يبتسم مع

رؤيته لما خلقته يده من جمال ساحر لا يمكن لغيره صنعه.. سيد الماء الذي لا ند له..

ارتقى لمستوى أعلى حتى قابل أعلى نقطة بالقصر المزدوج.. رفع يده موجها إياهم نحو السحاب.. اهتزت السحب وارتجفت وتكثفت وتحركت لتغطي قمة القصر قبل أن تلقي أثقالها في هيئة زخات متواصلة من المطر بطريقة انتقائية على القصر فقط في شكل تناقض من العواصف الرملية التي كانت تحيط به وتشمل المدينة كلها.. في الواقع كان مناخ (إريدو) عاصفا بطريقة مستمرة.. بعد جفاف روافد (الفرات) تحولت المدينة لمستقر الأعاصير الرملية الساخنة طيلة العام مما جعلها مدينة لا ترحب بمزيد من السكان وتقلصت مساحتها كثيرا بمرور السنين وصار اتجاه حركة السكان للخارج كهجرات متتالية متأنية.. الآن صار القصر بقعة تنضح بالماء من كل الجهات وهو ما لم يحدث من زمن.. ولكن أراد (إنكي) المزيد..

ابتعد عن القصر محلقا في كل الاتجاهات.. طار شرقا وغربا.. اتجه شمالا ثم جنوبا.. وفي إثره تتفجر جداول الماء أنهارا من باطن الأرض، ثم تسير في خطوط عميقة خلفه خالقة ما لم يكن موجودا.. ولم يكن ليتواجد لولاه.. سيد الماء.. السيد (إنكي) الذي صال وجال في أنحاء المدينة بسرعة خارقة ليحوّلها خلال لحظات لمدينة تتفجر فيها الأنهار..

ولما انتهى كان الكهنة والسدنة قد خرجوا من منازلهم ومن المعبد والزقورة ينظرون بإجلال للمدينة التي أمست على النقيض في لمح البصر.. هلل الجميع مع رؤيتهم للسيد (إنكي) وركعوا له بخشوع.. بللت ملابسهم أمطار بلا برق أو رعد كانت تهطل بغزارة وباستمرار وبقوة.. أمطار اتحدت قوتها مع سرعة جريان جداول الأنهار ليفيض الماء وينذر بتكوّن سيل رهيب إن استمر الحال على هذا المنوال.. واحد فقط اعتدل من ركوعه ووقف ينظر نحو (إنكي) نظرة ذات معنى.. إنه الكاهن الأكبر لمعبد (إنكي) ومن بيده كل مقاليد حكم المدينة الدينية داخل الأسوار.. انخفض (إنكي) ليحطّ أمامه مباشرة فابتسم له الكاهن وقام بمسح الماء المتساقط من على وجهه وهو يقول بصوت ترتجف نبراته من الإثارة:

- كنا نتحين هذه اللحظة منذ عصور يا سيدي سيد الماء..

ضيق (إنكي) عينيه وهو يقول له زاما شفتيه بقوة:

- أدين بالشكر لأجيال متعاقبة من كبار الكهنة.. لقد قتم بتهيئتي كما يجب لأصبح السيد الذي لا ندّ له..

انحنى كبير الكهنة له حتى كادت جبهته تمس الأرض المبتلة وهو يقول بمحبة:

- الشكر للسيد (أبسو) وحده..

أشار له (إنكي) لينهض قائلاً:

- يوجد لدينا الكثير لنفعله الآن..

اعتدل كبير الكهنة و(إنكي) يكمل:

- سنعيد بناء (إريدو) لتعود كما كانت مدينة الملوك.. ستتكفل الأنهار الوفيرة بخلق بيئة غنية تجعل المدينة قبلة لكل من ضاقت به سبل الحياة ويتمنى رغد العيش.. سنعود كما كنا أعظم مدن (سومر) السماوية..

بدأ الجمع المهلل لظهور الماء المتفجر ينفذ تدريجياً.. الكل يفكر في الكيفية التي يحقق منها أفضل استغلال ممكن لظهور سائل الحياة بوفرة في المدينة.. بينما رفع (إنكي) يمينه للسماء فبدأت موجات الأمطار تخفّ تدريجياً منعاً لسيول ستكون مدمرة أكثر منها مفيدة.. ثم تحرك سيراً على قدميه في اتجاه الزقورة فسارع الكاهن الأكبر بمجاراته وهو يقول:

- لن يكون من الصعب أن نصبح أعظم المدن ثانية.. خاصةً مع جنة الأنهار التي تجري الآن من بين أقدام أي شخص يمشي في شوارع المدينة..

ألقي (إنكي) نظرة متفحصة عليه وهو يسأله:

- ما الذي ترمي إليه؟ نبرتك توحى بشيء يقلقك..

تنهد الكاهن الأكبر وهو يرتقي التبة الرملية المؤدية للزقورة الضخمة خلف (إنكي) وهو يقول:

- لم يَقم كل الأسياد بتغييرات مدنية كما فعلت سيدي الحكيم.. هناك من يفكر في غزو باقي المدن بالقوة وهناك من يفكر في السيطرة على المملكة بالسحر..

ردّ (إنكي):

- لدينا الجيش المكوّن من الكتائب الثلاثة.. والذين يتوارثون دورهم كجنود وقادة منذ سنين.. عائلات بأسماء معينة ليس لهم من شغل شاغل سوى التدريب ليوم مثل هذا، ويقومون بتوريث هذا السلوك لأبنائهم.. جيش (إريدو) جيش نظامي قوي منظم.. بالإضافة لاستيرادنا لما نحتاجه من أسلحة من عدة مصادر حتى لا ينجح ممولنا الوحيد في ليّ ذراعنا أو التلويح بتهديد يمنعنا من التسلح.. لا تقلق أيها الكاهن المخلص مدينتنا ليست بالفتية أو سهلة المنال..

انتهت التبة الرملية وبدأ الاثنان بالفعل في الارتقاء عبر درجات سلمية حجرية، فقال الكاهن وقد بدأ يلهث:

- أتفق معك يا سيدي.. ولكن لا ضير من التشديد على موقفنا الدفاعي احترازيا لما قد يحدث ويباغتنا.. لا بد من مضاعفة استعدادات وتجهيزات الجيش..

هز (إنكي) رأسه موافقا قائلاً:

- لك هذا.. حرصا زائدا لن يكون بلا فائدة إن لم يكن ضارا..

ثم قال للكاهن وهو يشير لقمة الزقورة:

- لقد انتهينا الآن.. سأنتظرك بالهيكل..

ثم اختفى جسده بفعل سرعته الهائلة التي انطلق يحلق بها للأعلى، فسارع الكاهن بالرقود بين درجات السلم بدون أن ينتظر المقعد الحجري المتواجد بين كل طابقين والمخصص للراحة، وسمح لنفسه بأن يلهث بسرعة هائلة والعرق يتصبب من كل أجزاء جسده وهو يغمغم:

- يا إلهي.. كنت أنتظر هذه اللحظة بشدة!

في نفس اللحظة كان (إنكي) قد وصل لأعلى نقطة بالزقورة حيث يقع هيكله المقدس.. كانت الرؤية شبه ضبابية لكل شيء.. قطع الغيوم المحيطة بقمة الزقورة كانت تتخلل

الهيكل وحجراته لتصبغ كل شيء بأبخرة بيضاء خفيفة لا تعيق الرؤية ولكنها تضيء لمسة برد لاذعة في الأجواء.. حطت قدماه أمام المذبح مباشرة حيث ينتصب تمثال هائل لوالده السيد (أبسو).. اضطر (إنكي) للارتفاع ليواجه الوجه المنحوت لوالده وجهه مباشرة.. خامرته مشاعر عديدة تخالطت وامتزجت.. راودته أفكار وأفكار.. العظمة كلها للسيد (أبسو) حتى لو كان قد اختفى منذ قدم التاريخ.. كل مجد للسيد (إنكي) يتم نسبه على الفور لوالده السيد (أبسو).. (إنكي) متواجد جسديا ولكن (أبسو) هو خالد الذكر.. تتم وملامح وجهه تتغير لتعبر عن أسف جم:

- سامحني يا والدي.. هذا ليس شخصا.. وليس كما يبدو عليه..

رفع يده.. نبتت من الفراغ دوامة ثائرة من ماء.. أحاطت الدوامة بالتمثال واعتصرته بقوة.. ضغط الماء أصبح قاسيا وجعل أطراف التمثال الحجرية تتشقق.. ثم دوى انفجار هائل للتمثال مزقه لمئات القطع المتناثرة التي تطايرت في كل مكان بالتزامن مع هبوط دوامة الماء لتسقط أرضا مكونة بركة صغيرة.. نظر (إنكي) مليا للبركة الآخذة في الانتشار والتلاشي على أرضية الهيكل لتبدأ قطرات منها في التقاطر على درجات الزقورة قاطعة رحلة طويلة نحو الأرض.. ثم قال لنفسه:

- لقد أصبح الهيكل قبيحا الآن..

ثم أدار راحتي يديه للأعلى فانبثقت مياه جديدة مكان التمثال السابق ل(أبسو)، قام (إنكي) بقولبة الماء ببراعة بحركات يديه ليبرز أمامه خلال لحظات تمثال هائل الحجم من ماء يمثل السيد (إنكي) نفسه وقد كان واقفا رافعا يميناه ودوامة صغيرة من ماء لا تنفك تدور حول أصابع يده.. كان التمثال حيا بشكل مذهل.. دقيق التفاصيل خاصة ملامح الوجه الدقيقة.. الماء يدور ويتحرك بداخل جسد التمثال بدون أن يتحرك للخارج بما يفسد تماسكه.. معجزة طبيعية بكل المقاييس لا يقدر عليها إلا سيد الماء..

شعر (إنكي) بالراحة أخيرا فحرك قدميه ليقف عند طرف الهيكل، ملقيا نظرة خاطفة على مدينته التي كانت كلها واضحة من منظور رؤيته الواقع على أعلى نقطة بالمدينة بأسرها.. المدينة التي صارت تتلألأ بضوء الشمس المنعكس على الأنهار التي تتخلل كل مبانيها.. أخذ نفسا عميقا أخرجه ببطء وهو يبتسم ابتسامة نصر وذهنه لا يكف عن التفكير في الخطوة التالية..

(السيد (إنكي).. لا يوجد غيره يمكننا الاعتماد عليه في هذه الظروف..)

تناهى لسمعه الخارق اسمه وقد تم ذكره من جماعة من الكهنة كانوا على أبواب مدينة (إريدو) الآن.. وللأسياذ صفة مميزة جدا.. يستطيعون سماع من ينطق باسمهم ولو على بعد أميال.. وكانهم وُهبوا القدرة على سماع صلوات من يستنجد بهم ويرغب في إرضائهم مهما كانت المسافات.. وكانهم آلهة بعالمهم بالفعل..

فوجئ الكهنة ب(إنكي) يهبط من السماء بينهم بسرعة ليستقر فوق رؤوسهم.. سرعته خلقت موجة من تراب عفرت ثيابهم ووجوههم للحظات.. تراجعوا بوجل مع رؤيتهم له بهيئته التي يحفظها جميع أهل (سومر) السماوية قبل أن يركعوا بخضوع مغمغمين بكلمات غير مفهومة دون أن يبالي أحدهم بتنفيض ما علق بثيابه ووجهه من تراب.. حدق (إنكي) في وجوههم.. إنهم كهنة معبد جارتهم مدينة (أور) هذا يبدو جليا.. أشار لهم بسبابته قائلا بنفاد صبر:

- اعتدلوا أيها الكهنة وهاتوا ما عندكم..

في نفس اللحظة وبمدينة (أور) نفسها.. وبقلب المعبد الرئيسي جلس قرد أحمر مشعر قصير -الساحر (ميرميكال) سيد الأشكال- على رماله الصفراء يحدق لوجه (إنكي) الذي بدا له جليا من خلال كرتة السحرية الناقلة للأخبار.. والذي قادته إليه متابعتة لمسيرة تجمع كهنة (أور) السرية -أو هكذا ظنوا- للاستنجاد بمن ينجدهم من يديه بعد أن عرفوا حقيقته..

لَوْح بأصابعه لتختفي الصورة وتختفي معها الكرة السحرية وهو يزمجر بحنق قائلا:

- السيد (إنكي).. لم أكن أتوقع هذا صراحةً..

29-(آشور)

(آشور) السماوية..

مدرسة ملحقة بمعبد (آشور) الرئيسي..

- حدّثني عن أصل (آشور) البشرية؟

نظر الفتى الشاب الذي لا يبدو عليه تخطيه العشرين من عمره- للوجه المتغضن لمعلّمه وممتحنه وهو يجيب على الفور بدون تفكير:

- (الآشوريون) هم مجموعة أقوام بعضهم أصوله سامية والبعض الآخر غير ساميين ولا يُعرف من أين جاءوا.. .. بدأت (آشور) كدويلة مستقلة بالشمال ولكنها تأثرت بجاراتها من الجنوب في الحضارة والنحت والعمارة وكانوا يكتبون بلغتهم المسمارية.. اقترب منه معلّم آخر وانحنى نحوه ليسأله:

- حدثني عن الأقاليم الذين مثل وجودهم تحدياً لهم على مرّ العصور؟

نظر الفتى في وجهه مباشرةً وهو يجيب بطلاقة وكأنه يتحدث عن أمور يحفظها غيباً:

- كانت (آشور) البشرية تقف في مهب الريح ما بين سيطرة (سرجون) ثم ملوك (أور) ثم (حمورابي)، وما بين أقوام (الحيثيين).. وهم أقوام قادمين من الغرب والمحبيين للحرب والذين استوطنوا (آسيا) الصغرى منذ القَدَم وتحكموا في جبالها الغنية بالمعادن وكذلك الغابات المغطّية للجبال والسهول والوديان على جانبي الجبال الغنية بالمحاصيل.. يعود أصلهم لأقوام (هندوأوروبيين) هاجروا من الشمال والشرق من جبال (القوقاز) عام 2500 ق م بتاريخ البشر واندمجوا مع (الأناضوليين) القدماء المتواجدين هناك وحكموهم لينشأ (الحيثيون) من هذا الاختلاط.. وقد عرفوا التجارة والكتابة على الرقم من تجار (بابل) و(آشور).. وبمرور الوقت كوّنوا مملكة عظيمة..

ومع هذا التهديد تعلمت (أشور) كيف تدافع عن حدودها سواء الشمالية أو الجنوبية لتتأسس كمدينة على أساس حربي..

وقف عقبة في طريق تحكمها ب(آسيا) الصغرى وجود (الميتانيين) شمال غرب (أشور) ووجود الولايات الغنية ل(الفينيقيين) على شاطئ البحر المتوسط.. ووجود (الأراميين) و(العبرانيين) أيضا شكّل تهديدا قويا..

أشار له المعلم بالاسترسال فأضاف الفتى:

- أجداد (الميتانيين) كانوا من البدو الذين تعلموا تربية الخيل والتحكم بها منذ القدم، واستخدموها في الحرب وطوّعوا لها المركبات الحربية والتي كانت سببا في تفوقهم الحربي في كل معاركهم الحربية.. وكذلك كانت تقع في منتصف الطريق التجاري بين أقوام شرق (أشور) وبين أقوام الغرب، واستطاعت احتلال (أشور) ردحا من الزمن وسيطرت عليها وأوقفت من مدها التوسعي..

أما (الفينيقيون) فقد كانوا أقدم مثال لتجمعات الأجناس بالتاريخ على الساحل الشرقي للبحر المتوسط.. فمنهم (الهندوأوروبيون) بالشمال و(الساميين) بالجنوب.. تحكمت أساطيلهم بالبحر وشكلت خطرا على (أشور).. ولا ننسى أن (الساميين) كانوا قد وصلوا في حدود سيطرته لهذه الأقاليم..

كذلك كان قوم من (الساميين) هم (الأراميون) قد استوطنوا بالغرب وبنوا حضارة عظيمة فخمة تميزت بالقصور والمباني العظيمة.. بما تيسر لهم من آثار (الحيثيين) و(المصريين).. تميز (الأراميون) بشكل خاص في تطور الحضارة وتغلغل التجارة.. فوصلت حدود تجارتهم من الغرب وحتى الرافدين، ناشرين معهم كتابتهم ذات الحروف الأبجدية الشرقية والتي كانت تتميز بالقلم والحبر كالمصريين القدماء، واحتلت إيصالاتهم ذات الأبجدية الشرقية محل الرقم الطينية ذات الكتابة المسمارية.. ونشروا معهم لغتهم (الأرامية) لدرجة أنها كانت الأكثر شيوعا في (أشور) من الأشورية نفسها.. وكان التاجر (الأرامي) عندما يتسلم معاملة مكتوبة بالمسمارية على رقيم طيني كان يخط عليها ملاحظاته بالقلم.. وانتشرت اللغة الأرامية لتشمل الهلال الخصيب كله..

وإلى جنوبهم تواجد قوم آخرون من (الساميين) هم (العبرانيون) يقومون باحتلال البلاد ويفرضوا سيطرتهم عليها.. ولا أعتقد أنه يجب إغفال شأن (العيلاميين) شرقاً ولا (الكلدانيين) بالجنوب..

هز المعلم الثاني رأسه مستحسناً الإجابة، بينما اقترب الأول من الفتى وهو يسأله:

- وهل تأثرت (أشور) حضارياً بأي من جيرانها؟

رد على الفور:

- أفادت (أشور) البشرية من خبرات كل ما احتكت به من حضارات.. استخدمت الأحجار لبناء أساسات عظيمة للمباني كما (لأراميين)، ولكنهم بنوا المباني بالطوب كما فعل (البابليون) وبنفس طريقتهم في النحت والعمارة.. عبدوا نفس آلهته ولكنهم لم يتخلوا عن كبيرهم (أشور).. وكان رمزه في البداية شجرة الحياة والتي كانوا يزينونها بالربيع، ولكن مع الوقت أصبح رمزه الشمس المجنحة وصار إلهاً للحرب.. بجانب الإلهة الرسمية (عشتار) التي كانت تُلقَّب ب(إينانا) فيما سبق..

ابتسم المعلم الأول رغماً عنه وهو يعلق:

- تتحدث وكأنك أحد البشر.. إنها السيدة (إينانا) دائماً وأبداً بعالمنا السومري..

قال المعلم الثاني مخاطباً المعلم الأول:

- هكذا هو الطالب المحترف.. يتقمص روح البشر عندما يتحدث عن تاريخهم..

ثم مال نحو الفتى ليسأله مجدداً:

- حدثني عن الشعوب (الآرية)..

أخذ الفتى نفساً عميقاً ليجمع أفكاره ثم انبرى يقول:

- استقرت شرق بحر (قزوين) قبائل (هندوأوروبية) -بأقصى الشرق- عام 2000 ق م بتاريخ البشر.. هؤلاء القبائل هم الشعب (الآري).. ولم تكن لهم لغة ولكن تطور عندهم الدين بشكل خاص لعبت فيه النار دوراً هاماً وكان لديهم جماعة من الكهنة يطلق عليهم مشعلي النار.. تشتت شملهم 1800 ق م لينقسموا لمجموعة شرقية وأخرى غربية.. اتجهت الشرقية نحو (الهند) واستقرت هناك، وفي كتبهم المقدسة (الفيدا) يتردد صدى

أيام وحدثهم الآرية القديمة.. بينما احتفظ من اتجه غربا بلفظ آري وانبتق منهم
(الميتانيون) و(الميديون) و(الفرس)..

تدخل المعلم الأول ليسأله:

- وهل يعلم البشر هذه المسميات؟ أعنى هل يعلم الآري أنه آري لفظاً؟

ابتسم الفتى للمرة الأولى وهو يجيب ببساطة:

- لا بالطبع.. فباستثناء الأجناس التي شاع لقبها منذ نشأتها، هناك أجناس قمنا نحن
باختيار المسمى الملائم لها وقمنا بتمريره للبشر عبر اتفاق جميع حكماء العالم السماوي
فيما يحقق في النهاية استقرار عالم البشر وترابطه مع عالمنا.. وخير مثال لهذا هو لفظ
آري الذي ناقشناه منذ قليل.. فهم حتى الآن لا يعلمون أنه هذا اللفظ سيقتم تاريخهم
بالمستقبل ولكننا خططنا لهذا كما نخطط لهم كل شيء يتعلق بحياتهم..

علق المعلم الثاني بسخرية:

- يا لنا من جنس حكيم ورحيم!

عاد المعلم الأول يتدخل في الحوار قائلاً:

- هذا جيد يا ابن السيد (آشور).. كل ما لديك من معلومات تاريخية يستحق الإشادة..
ولكنك لست هنا من أجل الماضي فقط.. بمعنى آخر لم يجتمع كبار معلمي مدينة
(آشور) السماوية ليملأوا عقل الفتى السيد سليل سيدنا الأعظم (آشور) بتاريخ الأقدمين
فقط.. هناك ما هو أهم وأسمى.. أنت هنا من أجل المستقبل.. مستقبل عالمنا وعالمهم..

في هذه اللحظة قام رجل عجوز كان جالسا منذ بدء الجلسة على مقعده خلف
المعلمين.. إنه معلم (آشور) الأكبر والموكل بتعليم الأمير الفتى ابن السيد (آشور) كيف
يصبح سيديا يليق بمقام المدينة العظيمة.. تراجع المعلمين لما رأوا منه هذا التصرف
وقاما بخفض رأسيهما أرضا باحترام.. اقترب المعلم الأكبر من الفتى بخطوات مرتجفة
وظهر قوسته السنون، ثم قال له ببطء وبصوت رخيم:

- ما أشبه الولد بوالده! لديك موهبة سرعة التعلم والحفظ والفهم.. تميّز والدك بقوة
تؤهله ليكون أعظم أسياد (سومر) السماوية.. لا يوجد حدود لقوته وقدراته.. لذا

فوجودك بجانبه سيجعل من (آشور) مدينة لا تقهر وستدين لها كل المدن والبلاد بالولاء والطاعة.. الارتباط الحتمي بين العالمين يجبرنا على انتظار اللحظة المناسبة لنا لنسود عالمنا السماوي.. وحتى تحين هذه اللحظة لا نقف مكتوفي الأيدي.. نحاول قدر جهدنا دفع قرنائنا البشر ب(آشور) للسيطرة على عالمهم ولكن بطريقة منهجية ومدروسة لا تحدث خلا بين العالمين.. حينها لن ينجح كائن في صدّ هجوم (آشور) السماوية الكاسح..

ثم زادت سرعة كلامه وهو يكمل:

- موقع (آشور) البشرية مفتوح ومكشوف مما يجعلها مهددة باستمرار من جيرانها.. لهذا نحاول قدر جهدنا حثهم على الاهتمام بالجانب العسكري.. واحتلال (الميتانيين) الطويل لهم جعلهم يدركون أهمية القوة العسكرية الرادعة المؤمنة لحدودهم.. لا سيما أنها مدينة زراعية تحتاج لطرق تجارية متنوعة لتعوض ما لديها من نقص في الأخشاب والمعادن خاصة الذهب والفضة.. وليس بأفضل من غزو مصادر تلك المواد لنيلها بدلا من دفع الكثير من مواردها الزراعية لشرائها.. إنهم شعب قاسي محارب بالفطرة ولكننا نحاول منذ فترة التركيز على جعلهم يقومون بتأريخ وحشيتهم وقسوتهم من خلال منقوشات ومنحوتات تبرز هذا الجانب منهم بشكل مبالغ فيه كحرب نفسية تسبق الغزو القادم لا محالة للعالم القديم من (آشور) نفسها.. سنجعل أعداءهم يرمون بسلاحهم خوفا منهم بمجرد رؤيتهم لهم ونكسب أصعب الحروب بأقل جهد..

ثم سأل الفتى وقد ضيق عينيه:

- ماذا ترى في (الحيثيين) كخطر محتمل؟

رد الفتى:

- بنيان دولتهم يتقوض وهم على وشك السقوط.. حروبهم المستمرة أنهكتهم عامةً وحروبهم ضد (المصريين) استنفدتهم تماما خاصةً..

- و(الآراميين)؟

- هجماتهم المتكررة تمثل خطرا دائما ولكن يعيبيهم تبلور ممالكهم بأماكن ثابتة مما يسهل الهجوم عليهم وضربهم ككيانات منفردة..

- والجنوب؟

- أغلب الدول في طريقها للأسفل.. و(بابل) خير مثال على هذا..

- و(المصريين)؟

- ليسوا في أفضل حالاتهم.. وبعدهم عنا يقلل من خطرهم رغم قوتهم وشدتهم..

- و(الميديون) و(الفرس)؟

- المستقبل لهما كما هو لنا أيضا.. لذا من يتحرك ويبدأ السيطرة على الآخرين سيكون له السبق في تكوين امبراطورية عظيمة..

تراجع كبير المعلمين خطوة للخلف في حين نددت آهة إعجاب بالفتى من بين شفتي أحد المعلمين، ثم قام الكبير بسؤال الفتى:

- سؤال أخير.. ماذا تفعل الآن لو أردت دفع (الآشوريين) البشريين لبدء سباق القوة والانتصار قبل غيرهم؟

زم الفتى شفتيه بقوة وهو يقول بنبرة قوية:

- سأهتم بالجيش وأقوم بتنويع صفوفه.. سأنظم الحملات العسكرية وأجردها لكل الحدود المتاخمة.. سأجعلهم يستغلون عنصر الحديد الوليد والقوي لتكوين جهاز حربي قوي يغص بالأسلحة الفتاكة وآلات الحصار الضخمة الفعالة.. ليتكون جيشهم من مزيج فريد من العربات والدبابات لا تقف أمامه أسوار أية بلدة مهما بلغت شدة تحصينها.. سأقوم بضم أقاليم كثيرة وأحكم سيطرتي على طرق التجارة الرئيسية.. سأجعل الهدايا تتدفق من كل البلاد خوفا وطمعا.. جنبا إلى جنب مع تفاعل حضاري يزيد من شأن حضارة (الآشوريين) بالعالم القديم عبر التاريخ..

بدا الاهتمام واضحا على ملامح وجه كبير المعلمين وسأل:

- وهل سيطرة مثل هذه ستمر مرور الكرام على الجيران؟

قال الفتى مبتسما:

- لقد قلت أن السؤال السابق هو الأخير!

افتّر ثغر كبير المعلمين عن ابتسامة رضا رغما عنه، ولم يلاحظ ابتسامات جاهد المعلمين لإخفائها احتراما لكبيرهم الذي قال للفتى مستحسنا:

- لديك سرعة بديهة وقوة ملاحظة أعترف بهما أيها الأمير..

سارع الفتى بالرد على السؤال بعد أن استمتع بإثارة إعجابهم:

- لن يستسلموا بسهولة بالطبع.. سيعتورهم الغضب وسيدعون للتخلص من سيطرة (الآشوريين).. ستُعقد التحالفات وتتضم الجيوش لبعضها البعض.. حتى دول بعيدة مثل (مصر) ستبعث بالجيوش أو تدعم بالمدد من أموال ومعدات..

قال كبير المعلمين بتصميم:

- لهذا سنحاول أن نجعل نظامهم الحربي نظام قاسي قوي بلا ثغرات..

ثم أضاف وهو يشد على ذراع الأمير ابن (آشور) بحنوّ:

- ستكون خير معين لوالدك السيد (آشور) سيدي الأمير.. لا أظن أنني سأرى هذا اليوم حيا ولكني أراك تتقلد مقاليد حكم (آشور) بجانب والدك..

سأله الفتى بلهفة:

- هل حانت إذاً بداية تدريباتي للرمي بالسهام؟

قال أحد المعلمين بفخر:

- والدك السيد (آشور) هو أعظم كائن بعالمنا السماوي يمكنه رمي السهام!

دوّى انفجار مباغت بقلب الحجرة أطاح بأجساد الأربعة لتتفرق بين الأركان الأربعة.. برزت كرة كبيرة من دخان اسود حالك من مقر الانفجار وظلت تتضخم باستمرار.. اعتدل الفتى على الفور بحركة سريعة ولم يجعل المفاجأة تؤثر عليه كثير.. تراجع المعلمان زحفا للخلف نحو الجدار بمنتهى الفزع وقد امتقع وجهاهما بشدة وانعقد لسانيهما.. بينما جحظت عينا المعلم الأكبر ولم يتحمل جسده السقطة فبدأ يلفظ أنفاسه الأخيرة.. نظر الفتى لكرة الدخان بتعجب لوهلة قبل أن ينطلق يثب بحرص نحو كبير المعلمين، وأحد المعلمين يردد وقد انحلت عقدة لسانه:

- ماذا يحدث؟ ماذا يحدث؟ أي سحر هذا؟

شق الفراغ سهم حديدي نبت من قلب الكرة السوداء واخترق عنق الفتى بمنتهى الدقة لتبرز مقدمته من مؤخرة عنقه.. تخاذلت قدما الفتى وسقط على وجهه ويدها تتحركان لتلمسا السهم القاتل.. بدأت كرة الدخان السحرية تتلاشى ببطء كما ظهرت فتحرك أحد المعلمين متغلبا على خوفه وقد غمره زعر مبين من هول ما يحدث.. كبير المعلمين والأمير ابن (آشور) يحتضران.. عملية اغتيال سحرية سريعة ودقيقة أطاحت باثنين من أهم أشخاص (آشور).. لفظ كبير المعلمين أنفاسه الأخيرة بينما جاهد الأمير للتحدث ولكن خرجت الحروف متحشجة غير مفهومة.. أمسك المعلم برأسه بلوعة ودموعه تنهمر من عينيه أنهارا.. أشار له الأمير نحو كرة الدخان ولكنها كانت قد اختفت بالكامل.. ازرق وجهه وهو يجاهد لأخذ أنفاس أخيرة فتحرك المعلم الثاني أخيرا شاعرا بكدمات ورضوض مزقت جسده.. أحاط المعلمان بالأمير وأحدهما يسأل الثاني بيأس:

- ماذا نعمل؟ إنه سهم قاتل.. سهم من المادة الأرضية التي تنجح في قتل الأسياد..

توقفت أنفاس الأمير ثم سقطت رأسه على صدره وقد سكنت خلعته تماما.. أطلق العلم الأول صرخة ألم طويلة حملت كل ذهوله وغضبه في حين تهاوى الثاني أرضا زائغ النظرات وهو يردد:

- السيد (آشور) لن يقف ساكنا.. سينتقم له حتى لو اضطر لتدمير (سومر) السماوية بالكامل..

تخلل المعلم الأول بأصابعه خصلات شعر الأمير ونظراته تسيل على وجنتيه، ثم ألقى نظرة خاطفة على جثة كبير المعلمين التي افترشت الأرض بجوار الجدار.. ثم قال لنفسه بصوت اختنق بالعبرات متسائلا:

- ولكن من وكيف؟؟

30- معركة (ماراد)

انعكست شمس الظهيرة اللاهبة على الأبراج الشاهقة المحيطة بمدينة (ماراد) والمتربعة فوق سورها الدائري بطول السور كله.. دائرة كبيرة من السور ارتقت فوقها تلك الأبراج مستطيلة الرؤوس وقد احتشد بكل برج عدد كبير من الرماة متحصنين بالحجارة قابضين على أكنثهم منذ عدة ساعات بدون تراخي وكأن الحرب ستقوم بعد دقائق فقط.. تواجد عدد بسيط من الجنود على الأسوار نفسها.. بينما تواجد أغلب الجنود خارج المدينة على مسافة يسيرة من الأسوار.. وعدد لا بأس به تواجد بداخل المدينة تحت الأسوار في حالة تأهب كاملة..

احتشد عدد من الجنود عند البوابة الشمالية حيث من المتوقع أن يبدأ الهجوم على المدينة.. وكذلك تواجد عدد آخر من الجنود فوق البوابة الشرقية لتأمينها.. وقف كل من (نينورتا) و(إيرا) فوق البوابة الشمالية متأهبين لا يكف أي منهما عن النظر يمينا ويسارا وقد توقع كل منهما أن تبدأ الحرب في أي لحظة.. وخلفهما وقفت العرافة (غولا) وقد عقدت ذراعيها ونظرت السماء بشرود تام وكأنها ليست معهم.. ألقى (نينورتا) نظرة على الزقورة الرئيسية للمدينة وما أحاط بها من منازل فارغة، ثم قال ل(إيرا):

- من الجيد إجلاء جميع السكان لمدينة (نيبور).. لا نريد هنا سوى المحاربين فقط.. ووجود ذويهم بالداخل سيضعف من معنوياتهم ويجعلهم يفكرون قبل أن تضرب سواعدهم بالسيوف..

غمغم (إيرا):

- من المفترض أن يكون وجود الأهل بالخلف هو أكبر دافع لأي محارب ليحارب حتى آخر قطرة دم من أجلمهم.. ولكن الوضع هنا يختلف.. هذه حرب لم يشهد عالمنا السماوي مثيلا لها من قبل.. لا بد من حساب كل الاحتمالات حتى نادر الحدوث منها.. ووجود الأهالي قد يكون نقطة قوة ولكن من السهل استخدامه كنقطة ضعف.. ولا أريد أية نقاط ضعف محتملة في معركتي هذه..

ابتسم له (نينورتا) قائلاً:

- إنها معركتك بالفعل.. (عسق) يريد أن يحل محلك..

قال (إيرا) بلا مبالاة:

- لم يعد الأمر يتعلق بالمنصب.. معركة كهذه يفوز بها فقط من يخرج حيا..

صمت (نينورتا) ولم يعقب.. كلمات (إيرا) تحمل قدرا كبيرا ومخيفا من الصحة.. وهذه الحرب اتخذت منحى أكبر بكثير من حجمها الأصلي.. هم ليسوا بانتظار المارد (عسق) فقط وجنوده.. هم في انتظار هجوم وحشي من سيدة الصحاري بعقاربها وكينونتها الجديدة.. وما خفي كان أعظم..

ألقي نظرة خافتة نحو (غولا) الشاردة ثم سألها:

- هل من جديد؟ لقد أكدت لنا أن الجيوش على الأبواب لذا قمنا بتهيئة الدفاعات منذ الفجر.. مرت ساعات ولم يحدث شيء..

لم ترد عليه العرافة وكأنها لم تسمعه.. ظلت على وضعها الشارد المحقق بالسماء طويلا لفترة ناهزت الخمس دقائق تقريبا.. لم يضيف (نينورتا) شيئا وكأنه اعتاد منها على ردود فعل متأخرة كهذه.. حركت (غولا) رأسها أخيرا لتتنظر نحوه ثم قالت بهدوء:

- الهجوم قادم.. الهجوم قد بدأ بالفعل..

نظر (نينورتا) نحو (إيرا) بدون أن يعلق.. تنهد (إيرا) بنفاد صبر وهو يقول:

- (غولا) العرافة لا تخطئ أبدا.. وهذا لا يعني إلا أن هناك خدعة ما تُحاك حولنا..

أطرق (نينورتا) قليلا وهو يتمتم:

- أو بالاسفل منا!

خُيِّل لكليهما أن الزقورة المركزية الرئيسية تهتز.. اهتزازة بسيطة غير ملحوظة.. بدأ الجنود المحيطين بالزقورة والمتواجدين بينها وبين الاسوار بداخل المدينة- ينظرون حولهم بقلق.. إنهم يحسون باهتزازة خفيفة تأتي من أسفلهم.. زادت حدة الاهتزازات.. بدأ صوت مكتوم يأتي من أغوار سحيقة.. يأتي من باطن الأرض.. تزايدت حدة الصوت الغامض تدريجيا بالتزامن مع سلسلة من الاهتزازات أصابت الزقورة.. وكأنه زلزال كامن يجرب زيادة قوته شيئا فشيئا لدك الزقورة.. تراجع الجنود بوجل.. شد كل

منهم قبضة يده على سيفه بدون سبب مادي يجعلهم يفعلون هذا.. وكأنهم يستمدون من أسلحتهم اطمئنانا زائفا تجاه هذا الخطر المجهول.. الزقورة تهتز بقوة الآن.. الصوت يتعالى حتى أصبح مسموعا للجنود بالخارج.. سارع (إيرا) بالصياح في جنوده:

- لا يتحركن أحد من الجنود سواء بالداخل أو الخارج.. لا تفتحوا البوابات.. لن نسقط في فخ يجعلنا نفقد السيطرة قبل بدء المعركة الحقيقي..

غمغم (نينورتا) وهو يلاحظ بدء ترئح الزقورة يمينا ويسارا بعنف وكأنها لعبة خشبية خفيفة تتلاعب بها يد جبار خفي:

- أعتقد أن المعركة الحقيقية قد بدأت بالفعل!

صار للصوت الغامض هديرا مخيفا.. بدأت دائرة تتكون حول الزقورة نابعة عن شيء ما بالأسفل يحاول الظهور فوق سطح الأرض.. بدأت الزقورة تتداعى وأبخرة ترابية تتصاعد من تحت الأرض لتحيط بها قبل أن تبدأ في الانهيار الفعلي.. في نفس اللحظة التي برزت أطراف أذنان العقارب التي كانت كامنة تحت سطح الأرض وقامت بتقويض دعائم الزقورة بالفعل.. تفجرت الأرض حول الزقورة التي بدأت رحلتها للغوص بباطن الأرض.. ظهر جيش العقارب من وسط هذه الانفجارات مطلقاً صيئاً مندمجا زلزل المكان.. حاول الجنود التراجع لجدران الأسوار الداخلية تتعقبهم الكماشات والمخالب وأطراف الذبول السامة..

بدا (إيرا) هادئا للغاية وهو يعطي أوامره لجنود الأسوار.. في نفس اللحظة التي انفجرت الأرض أمام البوابة الشمالية الرئيسية ليبرز جيش جديد من العقارب تلاه ظهور السيدة (إيشارا) سيدة الصحاري والعقارب.. متكفنة بالأقمشة ناصعة البياض، تطلق ضحكة ساخرة مجلجلة وهي تطير بجسدها للأعلى لترتقي فوق مستوى جيشها، وهي تقول ساخرة:

- مفاجأة غير سارة بالتأكيد!

أدار (إيرا) وجهه نحوها قبل أن يبتسم بشراسة بدون أن يعلق، مصدرا أوامر جديدة للجنود المرابطين بالخارج بجوار الأسوار..

تحرك اثنان من الجنود فوق الأسوار وفقا لخطة مسبقة.. بدأ الاثنان ركضهما من نفس النقطة ثم اتجه أحدهما يمينا والآخر يسارا.. وكل منهما يمسك بيده طرفا لشيء مضغوط أشبه بمادة لينة.. أكمل سيرهما وهما يقومان بفرد تلك المادة أثناء تحركهما.. ابتعدا عن بعضهما البعض حتى وصل كل منهما لنصف المسافة ليلتقط اثنان آخرون طرف تلك المادة منهما ويكملا عدوهما في الاتجاه المقابل لإكمال دائرة كاملة لم يكف أيهما خلال حركته في إلقاء باقي المادة للأسفل..

تعالت صيحات الجنود.. أعمل فيهم جيش العقارب الطعن والتمزيق.. نجح بعضهم في قطع بعض الأرجل أو المفاصل أو أطراف الذيول السامة.. بل أن واحدا منهم نجح في فصل رأس عقرب عن جسده.. ولكن كانت الغلبة تميل نحو العقارب لقوتهم ووحشيتهم وزيادة عددهم بالإضافة لضخامة حجم العقرب الواحد والذي تجاوز طوله طول ثلاثة من الجنود واقفين فوق رؤوس بعضهم.. اكتملت مسيرة الجنديين ليكتمل فرد تلك المادة من أعلى نقطة بالأسوار لتسقط الشبكة بالكامل كدائرة كبيرة مغطية لأجساد العقارب ومكبلة إياهم.. ومعهم مجموعة بسيطة من الجنود علقوا معهم بداخل الشبكة.. سارعت العقارب بتوجيه مخالبها وكماشات نحو الشبكة لتقطيعها و(إشارا) تغمغم بسخرية:

- هذا لن ينجح في إيقافهم أو حتى خدشهم.. تلك المادة المكونة للشبكة أشبه بورقة مهترئة أمام مخلب حاد قاطع..

لم يكن (نينورتا) يسمعها.. ولكنه قال لنفسه وهو يميل بشوكتة القصيرة ثلاثية الرؤوس ويلمس بها طرف الشبكة:

- هذه الشبكة ضعيفة التكوين.. ولكنها موصل جيد للصواعق والكهرباء!

تكونت صاعقة محدودة بأطراف أصابعه الممسكة بالشوكة الثلاثية قبل أن تسري الصاعقة بطرف الشبكة ثم تسري كالنار في الهشيم لتصل لكل أجزاء الشبكة كلها في لحظة واحدة.. تيار هائل من الكهرباء الصاعقة نسف الشبكة وسرى عبر أجساد كل العقارب الملامسة لها عبر المخالب والكماشات ليصعقها بقوة لا محدودة مزقتها كلها لأشلاء تناثرت على شكل دائرة واسعة أحاطت بالفجوة الكبيرة بالأرض التي غاصت بأعماقها الزقورة الرئيسية..

اعتدل (نينورتا) وهو يسمع (إيرا) يقول له مستحسنا:

- أحسنت يا سيدي يا ابن (إنليل) وسليل (أنو).. سيدا الصواعق!

غمغم (نينورتا) ملاحظا جيش العقارب الذي كان ينقض على الجنود الملاصقين للأسوار الخارجية:

- وأنت أيضا أحسنت بوضع الخطة وبتقليل عدد الجنود بداخل المدينة للحد الأدنى.. كنت تتوقع هذا..

زمت (إيشارا) شفيتها بشيء من العصبية وهي تقول لنفسها:

- أفسدوا عليّ المفاجأة..

ثم نظرت نحو (نينورتا) مضيفة:

- لم يكن من المفترض وجود أحد الأسياد في دفاعات هذه المدينة.. فقط قائد من الأنوار..

تحرك جيش العقارب لينقض على الجنود.. تراجع صف الجنود بطريقة مدروسة للخلف حتى التصقت ظهورهم بجدار الأسوار.. فوجئ جيش العقارب بالأرض تميد من تحت أزواج أقدامهم لتسقطهم في فخ تم نصبه من قبل.. خندق عميق يوازي أسوار المدينة تم تغطيته من الأعلى بمهارة ليختفي عن الأعين ويبدو فقط كطبقة من الرمال الثابتة.. سقطت عشرات العقارب بالخندق وبدأوا يتكومون بداخله فوق بعضهم البعض.. بينما تراجع من كان بالصفوف الخلفية مبطنًا من اندفاعه، صدم بعضهم البعض ونجمت فوضى دفعت بالمزيد لأعماق الخندق.. كانت (إيشارا) تضغط بأسنانها على شفيتها السفلى بغیظ وهي ترى (إيرا) يلوح للرماة فينطلق سيل من الأسهم تألقت أطرافها بالنار.. هبطت الأسهم على عقارب الخندق وأصاب بعضها تلك المادة القابلة للاشتعال والتي تم دهان جدران الخندق بها مسبقًا.. اشتعلت النيران لتعم الخندق كله في لمح البصر.. وانتقلت لأجساد العقارب بسرعة لتحترق وتتحرك مترنحة ككتل ضخمة مضيئة باللهب قبل أن تتحول لرماد.. ثم أخرج الجنود الملاصقين للأسوار حرابا ماضية كانت مثبتة بالأسوار ثم يطلق كل جندي حربه ليهوي سيل من الحراب نحو من تبقى من العقارب خلف الخندق حيا، فتخترق أطراف الحراب أجساد العقارب ويفقد

أغلبها قدرته على الحركة، وبعضهم يخرّ ساقطاً ميتاً مع اختراق الحربة لرأسه الصغيرة.. مع غمغمة (نينورتا) الساخرة:

- غرورها جعلها لا تنتبه لفخ أقمناه لها تحت الأرض حيث تكمن مملكتها! إنها واثقة من نصرها بشكل مبالغ به..

اقتربت (إيشارا) ببطء من البوابة الشمالية حتى صارت قريبة من (نينورتا) و(إيرا).. رفعت يديها من تحت الأقمشة لتبرز الأصابع البيضاء ذات الأظفار الأشبه بالمخالب.. ثم صفت ببطء بطريقة تمثيلية وصوتها يخترق الأسماع قائلاً:
- أحسنتما صنعا.. تستحقان بالفعل أن تكونا نديين لنا..

لوح لها (نينورتا) مهدداً بسيفه الذهبي بينما كان يهمس ل(إيرا):

- لم تستخدم كينونتها التي استولت عليها من (إيرا كال) بعد..

تراجعت (إيشارا) ببطء بعد قولها السابق.. كان الجنود قد بدأوا يهللون فرحين بنصرهم على جيش العقارب بعد أن أفنؤهم عن آخرهم.. قال (إيرا) وهو ينظر حوله بتركيز:

- لم نخسر سوى قدر قليل من جيشنا.. لم تنجح في مباغتتنا..

قال (نينورتا) بهدوء:

- لم نكن لنعلم بوجودها لولا تحذير (إيرا كال) لنا.. لولا إبقائها على حياته لربما قضت هذه المفاجأة على جيشنا قبل بداية المعركة..

تدخلت العرافة (غولا) لتضيف ببرود:

- وربما كانت كل هذه الخطوات التي قمتما بها مجرد خطوات أراد منكم أعداؤكم القيام بها.. خطوات تقومان بها تنفذان بها رغبات خصومكما بدون وعي..

سأل (إيرا) بدهشة:

- كيف هذا؟ لقد تدمر جيشها بالفعل!

((إيرا).. أين أنت أيها الجبان!)

كانت خطواته ترج الأرض رجا.. المارد (عسق) والذي ظهر أمام البوابة الشمالية وكأنه يتنزه وليس مُقدِّمًا على حرب ضروس.. كان يهز رأسه باستهانة وقد وقف عاقدا ذراعيه على صدره وقد ثنى إحدى ركبتيه بسخرية.. لم يجرؤ أي من الجنود القريبين منه على الاقتراب.. اكتفوا برفع سيوفهم بتهديد فارغ.. ضيق (إيرا) عينيه وهو ينظر خلف المارد وحاولا اكتشاف أية جيش أو جنود أو حتى وجود (إيشارا) نفسها التي اختفت بغتة.. كانت الساحة خالية تماما.. يدرك بكل جوارحه أنه فخ لاستدراجه للخروج من أسوار مدينته ولكنه لا يرى بوضوح هذا الفخ.. شعر بشيء من العصبية وهو يقول:

- لست أفهم ما الذي يحدث هنا حقا.. نحن من فزنا بالمواجهة الأولى وقمنا بسحق جيش قوي لم يهزمه أحد من قبل في تاريخ (سومر) السماوية.. فعلناها بسهولة وسرعة وذكاء.. لماذا لا أشعر بأنني على مشارف النصر النهائي حتى الآن؟!

غمغم (نينورتا) بهدوء وهو يحرق مباشرةً بوجه (عسق):

- هل تريد أن أهبط له وأصرعه في لحظة واحدة؟
ردّ (إيرا):

- ربما هذا ما يطمحون إليه..

ثم قال بعزم:

- سأنازله..

نظر (نينورتا) نحو (غولا) فوجدها واجمة لا تنطق.. فقام بالتربيت على كتف (إيرا) قائلاً له:

- اقتله!

ابتسم (إيرا) بحماس ثم نظر نحو (عسق) الذي كان واقفا كجبل عضلي لا يتزحزح، ثم استدار لينزل الدرج من أعلى البوابة، فلما لمح المارد اختفائه أطلق ضحكة ساخرة وصاح باستهزاء:

- الخاسر لديه شيء من الشجاعة..

ثم أضاف وهو يقبض عضلات جسده بقوة وقد اعتدل في وقفته:

- ولكن ماذا يستفيد من الشجاعة من هو مقبل على الموت؟!!

وقف (إيرا) أمام البوابة.. أشار للجنود فقاموا بفتح البوابة ببطء.. فلما انفتح مصراعا البوابة عن آخرهما تحرك (إيرا) ليعبر البوابة.. ولم تكد قدماه تخطوان خارج الأسوار حتى انفتحت أبواب الجحيم..

تفككت قشرة الأرض تحت قدميه بغتة لتسقطه أرضا.. برز من تحت الأرض عقرب هائل الحجم ناهز طوله ارتفاع الأسوار.. تواجد بقلب البوابة المفتوحة قبل أن ينغلق مصراعاها، ثم طوّح بكماشتيه يمينا ويسارا ليمزق المفصلات الضخمة للمصراعي وتجبر البوابة على البقاء مفتوحة للأبد..

انبثق من الفجوة التي غرقت بها الزقورة الرئيسية عشرات ثم المئات من الغزلان الضخمة المجنحة ذات الأنياب.. عرفهم (نينورتا) و(إيرا) بمجرد رؤيتهم لهم يتدققون من تحت الأرض، وكذلك من تلك الفجوة التي خلقها ذلك العقرب العملاق.. لذلك لم يتعجب أي منهما مع رؤيته لذلك السيد الذي ظهر من خلف (عسق) وحوله العديد من تلك الغزلان الوحشية المجنحة.. السيد (أمورو) الراعي المحتال الذي هو أشبه بالمرتزق وسط الأسياد.. ولاؤه فقط يتبع هواه ومصالحه الشخصية.. لا يستقر ببقعة ثابتة ويتنقل بين الصحاري مثيرا زوابعه الرملية العنيفة المدمرة والتي يضرب بها القوافل ويدمر كل ما يواجهه في طريقه.. طاعون الصحراء ووباء عالم (سومر) السماوي.. ويبدو أن (إيشارا) قد كسبت تحالفا معه بطريقة ما.. ظهوره كان مفاجأة موجعة ل(نينورتا) و(إيرا).. كان يقترب مندفا للأمام كالرياح تدفعه زوابع رملية عنيفة وتحيط به لتخفي أغلب ملامحه.. وغزلانه المفترسة المجنحة تحيط به وتدور حوله.. صاح المارد (عسق) وهو يعدو بسرعة منقضا على (إيرا).. بينما جلجلت ضحكات (إيشارا) وهي تعاود الظهور بجوار (أمورو)..

(لم تكن العقارب سوى وسيلة لخلق ممر سفلي يتم من خلاله الدفع بجيش الغزلان المجنحة لقلب مدينة (ماراد)! وتحدي المارد (عسق) لم يكن المقصود منه سوى فتح البوابة لثوان ينسفها خلالها ذلك العقرب الضخم!) هكذا فكر (نينورتا) وهو يرى جيوش خصومه



أمورو

تندفع من كل مكان بداخل وخارج مدينته.. صاح في رجاله بالداخل بالتماسك.. قبل أن يطير بجسده ليحط بجوار (إيرا) الذي كان يتراجع بحذر وهو يرى انقضاضة (عسق) ومن خلفه اندفاع (أمورو) و(إيشارا).. رفع (إيرا) سيفه وكذلك فعل (نينورتا).. تحمس الرجال مع رؤيتهم لسيدهم (نينورتا) يقف بجسده معهم مقاتلا فهجموا على الغزلان بمنتهى الفدائية.. كانت أنياب الغزلان تنشب في الأجساد وتمزقها.. فكانت سيوفهم تفصل قوائم الغزلان وتقص أجنحتهم.. سادت الفوضى بداخل المدينة مع اشتباك الجنود قليلي العدد مع الغزلان الوحشية.. تضاعفت الفوضى عند البوابة عندما تمزق بطن العقرب الضخم من أسفل ليخرج منه عشرات من العقارب الوليدة التي بلغ حجمها حجم المقاتل العادي.. هجم بعضهم على الجنود الملاصقين للأسوار الخارجية لينازله بمخالبه وكماشاته، بينما تجمع البعض الآخر فوق ظهر العقرب العملاق وقام كل عقرب منهم بتوجيه طرف ذيله نحو جنود (ماراد) لتنتقل منه زخات من سائل أسود كثيف هو سم فتاك كان يذيب الجلود ويحرق العيون..

هوى (عسق) بقبضته قاصدا (إيرا).. تراجع خصمه للخلف بينما وثب (نينورتا) ليلتقط قبضة (عسق) الضخمة بيده بسهولة، ثم هوى بشوكتة الثلاثية ليمس طرفها صدر (عسق) وتنبعث منها صاعقة محدودة انتشرت بجسده ودفعته للخلف بقوة جبارة أسقطته أرضا على ظهره ودخان أسود ينطلق من أطراف أصابعه..

زمر (عسق) وهو يشعر بجسده كله يؤلمه.. حاول النهوض ببطء رغم آلامه ولكنه فوجئ ب(أمورو) يضربه بقبضته على رأسه ليسقطه أرضا ثانية وهو يقول له بخشونة:

- الزم مكانك.. ليس النهوض بالشيء الذي أنصحك به إن أردت البقاء حيا!

نظر (نينورتا) نحو (إيرا) شذرا وصاح به:

- قد جنودك.. هم بحاجة لك الآن..

سارع (إيرا) بمغادرة البقعة التي ستتحول لأتون ملتهب بعد قليل بين الأسياد، وسارع بالاتجاه نحو الحرب الدائرة حول الأسوار بين جنوده من جهة وبين العقارب والغزلان المجنحة من الجهة الأخرى.. كانت حماسة الجنود شديدة ولكن تفوق عليهم خصومهم

بقدراتهم غير الطبيعية.. استل سيفه ونظر نحو العقرب العملاق.. الخطر الأعظم على جنوده الآن.. لا بد من الفتك به قبل القيام بأية خطة حربية..

خشن الملامح يرتدي عمامة بيضاء ينسدل من تحتها شعر طويل غير مهتم.. طويل القامة يرتدي أسمالا تغطي جسده ويمسك بحبال سميقة بقبضتيه.. ومن حوله تدور الغزلان والزوابع الرملية.. وبجانبه تقف (إشارا) محلقة على ارتفاع يسير ككتلة من الأقمشة البيضاء المغطية للجسد الذي لم يره أحد حتى الآن.. وقف أمام (نينورتا) الذي نظر نحوه بازدراء وهو يقول باحتقار:

- الراعي المحتال.. وجودك غير مرغوب به بعالمنا كله..

قال لها (أمورو) هازئا:

- ومن أنت لتقرر مثل هذا القرار؟ لم تعد سليلا ملكيا كالسابق.. حتى الآن لا يوجد سماوي يعرف من هو سيد أسياذ (سومر) السماوية..

قال (نينورتا) حانقا:

- إنه السيد (إنليل) أيها اللعين..

ابتسم (أمورو) هازا رأسه قائلا:

- جيد.. سأرسل له رأسك إذا تحيبتها حبالى الخشنة!

صاح (نينورتا) بغضب وهو يدير شوكتة الثلاثية قبل أن يقذفها نحو (أمورو) بقوة لتندفع كالسهم المارق وقد خلقت حولها شرارات كهربية جعلتها أشبه بلسان برق تتقدمه الشوكة الثلاثية.. حرك (أمورو) يديه فقفز بالحبال المربوطة حول قبضتيه فأحاطت بالشوكة بمنتهى السرعة ثم جذب الحبال جانبا فطارت الشوكة لتسقط مغروسة بالرمال المجاورة له.. ثم دارت زوبعة لترطم بلسان البرق المنذف وتشتت للسماء.. و(إشارا) تقول بحزن مصطنع:

- فقدت صواعقك أيها السيد..

قال لها (نينورتا) وهو يرفع سيفه ليطاير شرر كهربى من طرفه:

- نسل السيد (أنو) هم أسياذ البرق والصواعق.. نحن من نخلق صواعقنا..

قال (أمورو) بلهجة مخيفة:

- لقد ولّت أيام (أنو) ونسله!

ثم انقض على (نينورتا) مزجرا بخشونة.. فاردا يديه لتنتلق الحبال الغليظة نحو (نينورتا) وتطوّق جسده في لحظة واحدة.. أغمض (نينورتا) عينيه صائحا بغضب فأضاء جسده لوهلة بألف صاعقة مزقت الحبال كلها ودفعت بجسد (أمورو) للخلف وكذلك كل غزالانه المجنحة، وطال مدّ الصواعق ليمزق عددا من العقارب كانت قريبة منه..

نظر (إيرا) نحو النزال بين (نينورتا) و(أمورو).. كل ما يحتاجه من (نينورتا) هو صاعقة واحدة تمزق جسد العقرب العملاق وتغير ميل الكفة نحو خصومه.. ولكن كان (نينورتا) مشغولا جدا كما يبدو.. أخذ (إيرا) نفسا عميقا ثم انطلق يعدو نحو البوابة المحطمة حيث يرقد العقرب العملاق وفوقه عشرات العقارب الصغيرة تبخ سمها السائل في كل الأرجاء.. قابل عقربا صغيرا فسارع بجز عنقه.. هجم عليه غزال بأنيابه فراوغه بسرعة قبل أن يفصل جناحيه بضربة سيف أعقبها بأخرى اخترقت بطنه وأخرجت أحشائه لتندلى على الرمال.. اقترب من العقرب فزادت سرعة أنفاسه.. انتبه بعض من العقارب المعتلية لمتن خالقهم فسارعوا بنفث سمومهم نحوه.. أخذ مسارا متعرجا وقد صارت سرعته مخيفة.. تجاوز السموم التي تَلَقَّى أغلبها على درعه.. تقاطرت بعض النقاط على ذراعه اليسرى الرافعة للدرع وأصاب القليل ساقيه.. تحامل على نفسه حتى اقترب من العقرب العملاق.. صاح بانفعال وهو يميل بجسده أرضا ليصبح في وضع أفقي تسبقه ساقيه.. انزلق ليختفي جسده أسفل بطن العقرب.. نقل السيف ليمناه السليمة أثناء انزلاقه ثم زج بسيفه مصيبا عنق العقرب، وأدار السيف يمينا ويسارا ليقوم بتمزيقه قبل أن يضغظه للنهاية ليستقر النصل كله بداخل العنق.. أصدر العقرب العملاق خوارا وهو يترنح يمينا ويسارا.. تدرج (إيرا) بجسده ليفلت مبتعدا عن سقطة العقرب القاتلة.. واعتدل بصعوبة وهو يرى العقرب يميل ليفترش الأرض جثة هامدة، مع صيحة نصر مجلجلة أطلقها جنوده.. ولكن أظلمت الدنيا بوجهه عندما بوغت بلطمة غادرة من (عسق) أصابت جانب وجهه وأجبرته على السقوط أرضا وصوت طنين يغشى سمعه وثقل رهيب يكتنف عضلات جسده كلها.. والمارد (عسق) يضرب قبضتيه المضمومتين ببعضهم البعض صائحا:

- قم أيها الضعيف.. لا أود أن يقال أن لكمة واحدة قد أهدتني النصر عليك!

اعتدل (أمورو) وقد بدأت ملامحه تتسم بالعبوس.. طار بجسده للأعلى فتولد من جسده إعصار هائل أحاط به ثم انفصل عن جسده ليندفع نحو (نينورتا).. أشار (نينورتا) نحو الإعصار فانطلق لسان من برق أحاط بالإعصار وجمده.. ثم أحاطت بأطراف الإعصار الرملية شرارات كهربية زرقاء، حرك (نينورتا) يده ليوجه الإعصار نحو خصمه قائلاً بسخرية:

- واجه صنيعك أيها المحتال!

هوى الإعصار الصاعق على (أمورو).. شيء لم ير له (أمورو) مثيلاً من قبل أو أن يتخيل وجوده.. قام بتحريك غزلانه لتتلقى قوة الإعصار بدلاً منه.. طارت لتقف أمام جسده حائلاً حياً يمنع إصابته.. فرقها الإعصار جميعاً وقامت الشرارات بتمزيق أجسادها كل ممزق، ليكمل الإعصار الرهيب مسيرته نحو (أمورو) وكأنه لم يتأثر بتدميره لقطع كامل من الغزلان الوحشية المجنحة.. وهنا تحركت (إيشارا).. أو أكملت تحركها الذي كانت قد بدأت به بالفعل مع تحرك قطع الغزلان وكأنها تعلم أنه لن يصمد أمام الإعصار الصاعق..

أشارت بطرف يدها للأرض أسفل (أمورو) فانشقت لتكشف عن فراغ عميق.. ثم حركت يدها الأخرى لتجذب جسده بقوة لباطن الأرض، قبل أن تهيل عليه التراب بلمح البصر ليصبح فجأة تحت الأرض.. فيخطئه الإعصار ويصيب المكان الذي كان متواجداً به منذ أقل من الثانية..

وقبل أن يأتي (نينورتا) بأية رد فعل سارعت بتفجير الأرض تحت قدميه ليميل جسده جانبا، ولكنه لم يسقط.. اعتدل ليطير وقد تحولت عيناه لشعلتين من برق غاضب.. بوغت بعقرب جديد عملاق يقبض بكماشتيه على قدميه ويجذبه لأعماق الأرض.. نظر نحوه فلطمت وجهه بخات من سائل مسموم حارق.. قام (نينورتا) بمسح السم من على وجهه وكأنه ماء حميد ثم بصق بعضاً منه وصل لفمه، قبل أن يهوى بسيفه بعدة ضربات سريعة على مخالبه وأقدامه فيفصلها جميعاً عن جسده.. ثم أولج السيف الذي أصبح يشتعل بشرارات زرقاء- في منتصف الرأس الصغيرة للعقرب.. فسرى البرق بجسد العقرب قبل أن يخزّ جثماناً محترقاً بالأعماق.. ثم طار (نينورتا) قاصداً العودة

لما فوق سطح الرمال فرارا من هذا المكان الخائق ولكنه فوجئ بالرمال تنهال من أعلى لتفصله عن عالمه الذي يعرفه ويصبح سجينا بعالم (إيشارا) و(أمورو) السفلي تحت الأرض..

استنفر (إيرا) كل إرادته ليعود لوعيه بسرعة ولكن تضافرت إصاباته السابقة مع ضربة (عسق) المزلزلة لتبقيه على حافة الوعي.. مع سقوط العقرب العملاق صريعا بسيف (إيرا) عادت الغلبة لتصبح لجيش (ماراد).. تكاتلوا على العقارب الصغيرة التي سقطت من على متن العقرب العملاق وأعملوا فيهم القتل حتى أفنوهم عن بكرة أبيهم.. لم تصمد غزلان (أمورو) أمام سيول الأسهم التي انهالت عليهم بأيدي الرماة المتحصنين بالأبراج الشاهقة.. ولما رأوا المارد (عسق) يميل على جسد (إيرا) المنهك ليقتله هرعوا لنجدة قائدهم حتى ولو أيقنوا من استحالة هزيمة المارد.. فوجئ المارد بينما كان يكور قبضته إيذانا بضربة تشج رأس (إيرا) وتجهز عليه- باثنان من الجنود يضربان بسيفيهما قبضته.. نظر للدم السائل من جرحين صغيرين باستهانة ثم أمسك كل جندي بيد قبل أن يشدد قبضته فيمزق جسديهما بين أصابعه.. هجم ثلاثة آخرون وعرزوا سيوفهم بإحدى ساقيه.. صاح بألم غاضب هذه المرة وهو يركلهم بساقه فتطير أجسادهم بعيدا.. فوجئ بخمسة يقفون بينه وبين جسد (إيرا) شاهري سيوفهم.. غمغم بسخط:

- تريدون الموت.. هذا سهل!

ثم طاح بقبضتيه فيهم يمزق الأطراف ويهشم الرؤوس.. وقد ناله حنق بالغ من تصرف هؤلاء الجنود المحبين لقائدهم لحد الموت في سبيله.. فلما انتهى من آخر مجموعة نظر نحو (إيرا) فلم يجده.. وشعر بعمود من نار يخترق جنبه وينفذ من الخلف للأمام، ورأى طرف نصل سيف (إيرا) ظاهرا من جنبه فأطلق خوارا يمتزج فيه الألم بالسخط وهو يمسك طرف السيف بيده وينزعه من جسده مستديرا لخصمه الذي استغل الوقت الذي وفره له جنوده ليعود لوعيه ويباغته من الخلف..

كانت حالة (إيرا) مزرية للغاية وقد غطت الدماء أغلب جسده.. بينما لم ينزف (عسق) بشكل مؤثر إلا من ضربة سيف (إيرا) الأخيرة.. سارع (عسق) بالانقضاض على (إيرا) مزمجرا.. تفادى (إيرا) الانقضاضة برشاقة منحنيا لينتقط سيفا ملقيا أرضا

لأحد جنوده الصرعى ثم دار بجسده ليغوص بالسيف في جانب (عسق) الثاني.. أطلق المارد صيحة ناقمة أكثر منها متألّمة وهو يدير جذعه رغم إصابته ويمد يده ليمسك بعنق (إيرا).. ثم استدار بكامل جسده نحوه وهو يرفعه عاليا من عنقه عاصرا إياها بقوة غاشمة مزجرا بقسوة لا حدود لها.. فتحشرجت أنفاس (إيرا) وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة محاولا عبثا التملص من قبضة المارد الاسطورية..

كانت الغزلان المجنحة بداخل المدينة قد أفنت كل المقاتلين محلقةً لخارج المدينة لتساند بني جنسهم ضد المقاتلين المتحمسين.. تساوت كفة القتال مع انضمامهم للمعركة الطاحنة الدائرة.. وتضاعف عدد القتلى من الجانبين سواءً مقاتلي (ماراد) أو الغزلان المجنحة..

أطلق (نينورتا) الصواعق عشوائيا في كل الاتجاهات فلم يكن يستطيع أن يرى أي شيء يحدد به سقف القبر الذي وضعته به (إيشارا).. بوغت بقوة ريح عاصفة تضربه في صدره وتدفعه للخلف بعنف، حاول الاعتدال فلطمته ريح أكثر ضراوة.. إنه (أمورو) يستمتع بقتال (نينورتا) بعالمه الذي يحفظه عن ظهر الغيب، ويقوم بإرسال زوابعه الرملية لتضرب جسد (نينورتا) العاجز.. لم يجد سيد الصواعق الوقت أبدا للّمّ شتات نفسه.. سلسلة متتالية من العواصف ظلت تضربه باستمرار وبلا توقف.. حاول يائسا ضرب صواعقه ولكنها كلها كانت تأتي شاردة لا تعلم هدفا تتجه نحوه.. ظلام تام جعله كالأعمى في مواجهة خصم يملك كامل حواسه وسط الظلام.. حاول استهداف ما ظنّ أنه السقف.. لم يكن يدرك أن أغلب صواعقه كانت تنطلق بعيدا عن اتجاه السماء.. وحتى ما كان يشق طريقه الصحيح للأعلى كانت (إيشارا) تسارع بإهالة التراب على مساره لتعيد الأمر لنقطة الصفر.. ومضات الصواعق والتي كانت تعمل كمصابيح مؤقتة لم تنجح في مساعدة (نينورتا).. فأحيانا كانت تُظهر (أمورو) يمينا وأحيانا يسارا.. يضرب الصواعق بحسب ما تنقله له هذه الومضات فيفاجأ ب(أمورو) مجددا في مكان آخر يطلق بزوابعه الرملية العنيفة.. كانت كل محاولاته ضربا من الجنون والعبث.. ثم ازداد الوضع سوءًا بظهور قطيع من العقارب الضخمة كانت تنخر طريقها وسط طبقات الأرض لتتنقض كلها على (نينورتا).. عقارب عاشت جلّ أيام حياتها بباطن الأرض فتتحرك بيسر بقلب الظلام ترى بحواس خاصة ليست العينان إحداها.. إذا فجيش العقارب الهالك بين جدران مدينة (ماراد) لم يكن سوى مجموعة أشبه

بالمستكشفين غير المؤهلين لحروب جادة كهذه العقارب الضخمة التي تسود عوالم جوف الأرض المظلمة.. ضربات (أمورو) قوية وخطيرة ومؤثرة ودقيقة لأبعد حد.. ولكن مهما كانت مهارته للرؤية بالظلام وحفظ تفاصيل عالمه فلن تكون ضرباته بهذه الدقة.. ضرباته نفسها فوق سطح الأرض في النور ليست هكذا دقيقة.. لم يشك (نينورتا) لوهلة أن (إشارا) تستخدم كينونتها الآن لرؤية وتحديد موقعه ثم تقوم بتوجيه العواصف الفتاكة لتضرب جسده.. جسده الذي لن يصمد طويلا أمام هذا المزيج من العواصف وضربات العقارب هائلة الحجم.. والفرار من محبسه هذا أصبح مستحيلا الآن، فهو يبدو كمن يضرب خصمه وهو مغمض العينين، بينما يقف خصمه أمامه مباشرة مكشوف العينين يضحك بسخرية وهو يركّز ضرباته كلها عليه.. لا يستطيع تعدي محبسه المظلم تحت الأرض ولا يستطيع المقاومة، أمره محتوم.. لذا اتخذ أكثر قرار يكرهه في حياته كلها.. لاذ بالفرار..

أغمض عينيه ليتحول جسده لكيان من صواعق هامسا:

- إلى (نيبور)!

اختفى جسده على الفور بفضل إحدى صفات أسياد الصواعق نسل (أنو) والتي تمكّنهم من الانتقال أنيا من أي مكان لمدينتي (نيبور) و(الوركاء).. أطلق (أمورو) صيحة غاضبة وهو يهتف:

- يدعونني بالمحتال.. الهارب الجبان!

في نفس اللحظة كانت قبضة (عسق) تحطم عنق (إيرا) ليسقط جسده أرضا وقد لقي مصرعه على الفور.. فأطلق (عسق) صيحة نصر متشفية رهيبة تخطت الأفاق.. لما رأى الجنود موت قائدهم، و علموا أن سيدهم (نينورتا) قد فرّ من العركة لينقذ حياته، سارعوا بإلقاء أسلحتهم أرضا في إعلان واضح لاستسلامهم، ألقت عليهم (إشارا) نظرة استهجان وهي تصيح بتلذذ:

- لا فائدة منكم في جيشنا.. ونحن لا نأخذ أسرى!

استغرقت المذبحة أقل من دقيقة لتنتهي بالجنود وقد استحالوا كتلا من اللحم الممزق
افترشت أرض مدينة (ماراد) داخل وخارج أسوارها.. أشارت (إيشارا) لعقاربها
السفلية وهي تقول لهم بجذل:

- لم تعد مدينة (ماراد) بدءًا من الآن.. إنها مدينة العقارب!

ظهر (أمورو) فوق الأرض عبر انفجار بطبقة التراب الرملية، ثم هز جسده لينفض
عنها الرمال وهو ينظر نحو الجنوب قائلاً بسخرية:

- لم أكن أصدق السيد (نينازو) عندما أخبرنا أنه سيسهل هزيمة (نينورتا) وتدمير مدينة
(ماراد).. لقد اضطررت لموافقته على الاعتراف بسيطرة (كيش) على العالم السماوي
فقط اتقاءً لشره.. ولعدم رغبتني في خلق عداوات فرعية.. جريء هذا السيد حقاً ليأتي
وحده مفاوضاً إيانا..

قالت (إيشارا) ساخرةً:

- جاء يمتطي متن سيد وحشي ضخم.. لا تنسَ هذا..

ثم أضافت وهي تقوم إعطاء الأوامر لعقاربها بتدمير المدينة عن بكرة أبيها بمنتهى
الوحشية بحيث لا يبقى فيها مبنى واحد:

- تشابه ما نريده نحن وسيدا (كيش).. كلانا يريد تدمير (ماراد) و(نيبور).. ولكن ما
نريده أنا وأنت بشكل شخصي هو (إنليل)..

- سيدا (كيش) يريدانه جثة هامدة.. اتحدث رغباتنا..

قالت بخبث:

- لن يعلم مغزانا من الاستيلاء على (نيبور) أبداً..

قال شامتا:

- سيعلم بعد حين.. سيعلم الجميع..

ثم أضاف بوحشية:

- الآن نحو (نيبور).. لننتبع الهارب!

31- راحة الهزيمة

(نيبور) السماوية..

جلس (إنليل) مهموما بمعبده يفكر في الوضع العصيب الذي آلت إليه الأمور بمملكة (سومر) السماوية كلها والذي يهدد وضعه كملك شرعي كوريث للراحل (أنو).. ترك (ماراد) بين يدي (نينورتا) وهو يعلم قوة المعركة التي هو بصدد خوضها ضد سيدة الصحاري.. ولكن الوضع خطير هنا ب(نيبور) فهي المدينة التي تخصه هو شخصيا وبالتالي لو سقطت فهذا يعني سقوط حقه في التمسك بالملك.. مدينة (الوركاء) هي الهدف الرئيسي لكل من تسوّل له نفسه المطالبة بالحكم.. وأبرزهم الآن هو (زابابا) والذي ارتكب جريمة اغتيال (أنو) وبالتالي يرى أن حكم المملكة السماوية هو حق له بالقوة الغاشمة.. ولكن (زابابا) بمدينة (كيش) بأعلى البلاد بينما (الوركاء) بأسفل البلاد.. طريق طويل بين المدينتين يمرّ ولا بدّ على مدينة (نيبور).. لذا التحصن بمدينة (نيبور) يُعتبر هو خط الدفاع الأول لمدينة (الوركاء).. الجيوش كلها على أهبة الاستعداد وفي انتظار أي هجوم بتحفز.. دفاعات المدينة ليست محكمة بشكل كاف ولكن وجود (إنليل) وحده أقوى رادع لأي غازي.. قد يكون (نينورتا) ابنه سيدا للصواعق مثله ومثل (أنو)، ولكنه لم يكتسب بعد قوة أي منهما.. لديه قوة لا يستهان بها كفيلة بسحق أي سيد بسهولة، ولكنه لم يصل بعد لحدود قوة والده (إنليل) وجده (أنو).. (أنو) الذي تطلب الأمر ثلاثة من الأسياد متحدين للقضاء عليه.. وليس (إنليل) بأقل قوة من أبيه (أنو).. وماذا عن (إينانا)؟!

ضاق صدره مع تذكره للابنة المتحمسة كثيرة التفكير.. لا يعلم لها مكانا.. اختفت تماما ولم يعد لها أي وجود ب(سومر) السماوية.. ليست ميتة حتى الآن ولكن يستحيل الاستدلال على مكانها.. الهالتان السماويتان التي تملكهما سيفيدان للغاية في الحرب القادمة ولكن لم يكن هذا مبلغ همّه فيما يخصها، يغمره قلق الأب على ابنته الوحيدة.. يتمنى أن يراها قريبا ويحتضنها بين ذراعيه، ولو تنامى لسمعه أن أحدا ما قد مسها بسوء فلن تكفيه صواعق العالم كله لتمزيق جسده إربا..

هبطت صاعقة مباغطة من السماء حطت أمامه مباشرةً لتسفر عن (نينورتا) وقد تمزقت ملابسه وامتلاً وجهه بالكدمات وتحطمت خوذته.. نظر له (إنليل) بدهشة للحظة وقد فهم على الفور ما آلت إليه معركة (ماراد).. مدّ ذراعه ليحتويه على صدره للحظات قبل أن يعتدل (نينورتا) ثانيةً فيسأله (إنليل):

- هل سقطت (ماراد)؟

تنهّد (نينورتا) بضيق وهو يجيب:

- خسرنا جيشنا هناك وتلاشت الزقورة الرئيسية.. أعتقد أن (عسق) قد نال مراده وقتل القائد (إيرا).. تحالفت (إيشارا) مع الراعي المحتال (أمورو) سيد الدمار ليساعدها في هذه الهجوم.. لم تكن معركة متكافئة يا أبي..

صمت (إنليل) وهو يدير هذه المعلومات الجيدة بعقله.. لقد هجم على (ماراد) سيدان.. سيدان اجتمع فيهما القوة الغاشمة السفلية مع عدم الانتماء.. وسيتجهان وبلا شك ل(نيبور) الآن وقد أسكرهما نصرهما الحديث.. لو ضم تحالفهما أي مفاجآت جديدة لن يكون النصر حليفاً لأسياد الصواعق.. كيف تدهور الحال بهم هكذا بين عشية وضحاها؟!

وكان المصائب لا تأتي فرادى، جاءه أحد الحراس يهرول هاتفاً:

- سيدي.. رسالة عاجلة من (إيسن)!

أشار له (إنليل) بيده ليدخل الرسول وهو يسأل (نينورتا):

- والعرافة (غولا).. هل انتهى أمرها؟

رد (نينورتا) بتردد:

- لم أرها منذ احتدام الاحداث.. ولكن خروجها حية هو المستحيل ذاته!

زفر (إنليل) بضيق مع دخول الرسول.. انحنى الرسول ثم اعتدل مع إشارة (إنليل) وهو يقول بلهجة رسمية:

- لقد وصلتنا إشارة بمشاهدة أحد الاسياد المرؤضة..

سأل (إنليل) بانفعال:

- التنين (موشوسو)؟

رد الرسول:

- نعم يا سيدي..

أشار (إنليل) ل(نينورتا) هاتفا:

- قم بارتداء دروع جديدة استعداد للحرب القادمة.. لا نملك رفاهية الراحة..

تتحنح الرسول فنظر له الاثنان بدهشة، فقال بسرعة:

- رآه بعض الرحالة بالصحراء الواقعة غرب مدينة (إيسن).. لقد جاءتنا الرسالة من (إيسن)..

اتسعت عينا (نينورتا) بذهول مرددا:

- (إيسن)!

قال (إنليل) وقد انتابته عصبية لم تنتابه مثلها من قبل:

- اللعين الماكر.. لقد دار حول (نيبور) مستغلا وجود تنينه متجها للجنوب عن طريق الغرب.. إنه يتجه رأسا ل(الوركاء).. يتجه لمدينة (أنو) و(إينانا)..

غمغم (نينورتا) مكملا:

- في غياب كل منهما!

ثم قال لأبيه بانكسار:

- لم يعد لدينا أمل في هذه الحرب.. لا يمكننا الدفاع عن المدينتين في آن واحد.. لم يعد لدينا ما نخسره ب(الوركاء) فجدي مات وأختي مفقودة..

صمت لحظة ثم قال بتناقل:

- لا داعي للدفاع عن (نيبور).. لنهرب!

تمتم (إنليل) بلا مبالاة:

- أنت سيد الصواعق أم سيد الفرار يا بني؟!

لم يرد (نينورتا) تاركا والده يفكر.. قال (إنليل) بعد فترة تفكير عميق:

- أعداؤنا لا يقيمون للحياة وزنا.. لا يعترفون بمبادئ كالشرف أو النزاهة.. لن يتركوا جنديا ولا مدنيا إلا وسيجزون عنقه.. ستكون مذبحه دموية لا مثيل لها.. ولكن.. لا أفهم حقا لماذا يتجه محارب (كيش) مجددا ل(الوركاء)، لقد كان هناك بالفعل عند اغتيال السيد (أنو) مع وحشه المروض وكان بإمكانه حينها فعل ما يريده.. لماذا غادرها ثم عاد ليتجه نحوها مرة أخرى؟ لا أفهم تفكيره..

- لا داع للتفكير الآن.. ستحدث المذبحة في كل الأحوال.. ولكننا سنكون قد خسرنا حينها حياتنا وخسرنا معها كل فرصة لاسترداد حكم جدي..

عبست ملامح وجه (إنليل) بشدة وهو يصيح:

- تبا للحكم.. لا أريد حكم (سومر) السماوية.. كل ما أريده هو حياة أهل (نيبور) و(الوركاء)..

سأله (نينورتا) بيأس:

- وكيف السبيل لهذا بدون إراقة الدماء؟!

أطرق (إنليل).. أطرق طويلا جدا.. غلبه تفكيره فلم يستطع أن ينطق وانعزل عن العالم وفكرة واحدة وحيدة لا تنفك تحيط بعقله وتضغط عليه ليقبلها طوعا أو كرها.. غلب على أمره فنهض قائما وقد شعر (نينورتا) بأن ظهره قد انحنى وكأنه ما يحمله من عبء قد فاض وثقل عليه جسديا.. نظر ل(نينورتا) نظرة عميقة وهو يقول بلهجة حاسمة غير قابلة للنقاش:

- ستختفي من (نيبور) ومن علامنا السماوي كله وتستقر في عالم البشر حتى حين.. اتجه لمكان سأحدده لك ستجد به حلفاء من البشر على صلة بعالمنا السماوي.. أصدقاء قدماء للسيد (أنو) شديدي الولاء له ينتظرون ردّ فضائل قد فعلها لنسلم عبر العصور.. سيقومون بإخفائك حتى تهدأ زوبعة التمرد والانقلاب هذه.. مستقبل أسياذ الصواعق يعتمد على قدرتك البقاء للعودة للانتقام واسترداد ما هو حقّ لك..

استشعر (نينورتا) السوء من ما قاله (إنليل) فسأله بتعجب:

- ماذا ستفعل أنت؟

أجابه بمرارة تتقاطر من بين حروفه:

- سأسلم نفسي حقنا لدماء أهل (نيبور)..

- وهل سيمنعهم هذا من ذبح المدنيين؟

- لنأمل هذا!

- وهل سيمنعهم هذا من قتلك؟

- لنأمل هذا أيضا!

صمت (نينورتا) يتجرع مرارة قرارة (إنليل).. شعر بغصة تمنعه من مجرد ازدراد لعابه.. سأل بخفوت:

- وماذا عن أهل (الوركاء)؟

قال (إنليل) بنبرة حزينة:

- أعتقد أن الوقت اللي احتاجته رسالة رؤية التنين لتصلنا كانت كافية ليكون قد وصل بطيرانه السريع للمدينة وقام بحرقها عن بكرة أبيها! ربما في النهاية غياب (إينانا) في هذه الأوقات ليس بالشيء السيء!

ثم ربّت على كتف ابنه قائلا بدون أن ينظر في وجهه:

- هيا يا بني.. تحرك لتبتعد قبل أن تصلنا جيوشهم.. لا أستبعد أن يكون (زابابا) على رأس تحالف (إيشارا) و(أمورو) المهاجم ل(نيبور) بعد لحظات..

ثم أضاف بعد تردد:

- لا تتهاون معهم يا بني مستقبلا.. انتقم منهم ومن حلفائهم ومن يأتي من نسلهم.. واجعلها آخر مرة تفرّ فيها من ميدان قتال..

شدّ (نينورتا) على يديه قائلا بتأثر:

- أعتقد إذا أنني لن أراك ثانياً..

ابتسم (إنليل) ابتسامة باهتة تفوح بالذكريات والأمل البائس وهو يقول:

- ربما في حياة أخرى لو كان جدك (أنو) صادقاً في رسالته..

مطّ (نينورتا) شفّتيه بتأثر وألقى نظرة سريعة على (إنليل) قبل أن يزفر بضيق وينطلق مغادراً المعبد والمدينة كلها كالإعصار الثائر.. ولم يكذ يغادر حتى أنت (إنليل) الأخبار بأن جيشاً هجيناً من العقارب الضخمة والغزلان المجنحة ومحاربي (كيش) الأشداء قد لاح في الأفق يقودهم المارد (عسق) خلف اثنين من الأسياد.. فشد قامته وقام متثاقلاً قائلاً لنفسه بهمس:

- ما كان قد كان.. وما سيكون سيكون!

32-ترويض الوحش

عبرت (نينشوبور) البوابة بخطوات وجلة تقدم قدما وتؤخر الثانية.. التفتت للخلف لتلقي نظرة على الحكيم (ماندانو) الذي كان واقفا فوق بوابة (إينانا) الزرقاء الضخمة يبتسم لها بحنوّ وتأيد.. ردت ابتسامته بأخرى باهتة قبل أن تعود لتتنظر أمامها، لتلك البقعة الخضراء الكثيفة التي تراءت لها على مدّ البصر ومثلت غابات (الوركاء) الأشبه بعدة متاهات متصلة، والتي يكمن بين جذوع أشجارها وخلف الأوراق الخضراء الضخمة الوحش (خومبابا) والذي من المفترض أن تقوم بترويضه هي ليساعدهم في حماية (الوركاء) وكذلك رحلة البحث عن (إينانا) المفقودة..

كان الجو حارا بشدة.. ألهبت شمس العصيرة ما تكشف من جلدها وشعرت بالعرق ينحدر من على جبينها ليحرق عينيها.. فركت عينيها بقوة وهو تلهث.. لم تدخل الغابة بعد وهي على وشك الانهيار فعليا.. تذكرت وجه سيدتها (إينانا).. طريقة كلامها ومشيتها وعدة مواقف جمعتهما معاً.. وتذكرت تضحية (زاموك)، المسكين الذي فقد حياته ثمناً لمساعدة (إينانا).. زمت شفيتها بتصميم وقد انتابتها حماسة جديدة شملتها وزادت من عزيمتها في تحقيق المهمة الموكلة إليها.. وصارت تسير بخطوات أكثر سرعة وتحمل ثقة أكبر بكثير مما سبق..

لم تكن المسافة هينة.. الغابة بعيدة حقاً رغم ما يبدو من النظر إليها أنها قيد خطوتين أو أقل.. خيل إليها أنها رغم سيرها فالمسافة تظل ثابتة بينها وبين مدخل الغابة.. جدّت في سيرها وهي لا تحيد ببصرها عن الأشجار الضخمة التي زينت مدخل الغابة القريب على مدّ البصر.. تذكرت مهمتها فتسارع وجيب قلبها المحموم.. لم ير أحد الوحش (خومبابا) من قبل.. خرافات تناقلتها الألسن على مر العصور عن وجود وحش ضخم شديد الفتك اتخذ من غابات (الوركاء) مستقراً وموطناً منذ القدم.. منذ عصور سبقت عصور الأسياد الحالية.. عصور القدامى من الأسياد.. لم يحاول أحد ترويضه بل على النقيض لم يجرب أي شخص مجرد الاقتراب من حدود الغابات عن قصد.. وكل من ولجها جاهلاً صار مصيره أن أضيفت جمجمته كزينة على مدخل الغابات بجوار العشرات من الجماجم الأخرى.. وهو الدليل الوحيد الذي يثبت وجود الوحش (خومبابا).. جماجم ضحاياه..

تعمقت في أفكارها طويلا حتى وجدت نفسها على مقربة من الغابات.. لقد أصبحت أمامها بالفعل.. ولاحظت وجود شجرتين شديديتي الضخامة وكأنهما مصراعا باب نباتي خيالي للغابة.. جذعان انتصبا كوتدين تعمقت جذورهما بأعماق الأرض وارتقت أوراقهما العريضة المخيفة لتصل لعنان السماء.. أما عن ما بينهما فقد جعلها ترتجف رعبا..

حزام الجماجم.. حزام طويل عريض سميك لم تدرِ مم تكون في البداية وإن بدا شيئا مألوفا ومقززا.. تعلق به عشرات من الجماجم مختلفة الأحجام.. منها ما تحلل جزئيا ومنها تبقى منه فقط الجزء العلوي.. وكانت كلها موجهة لتتنظر للأمام وكأنها تحرق بنظرة تهديد ووعيد وتحذير لكل من تسوّل له نفسه الاقتراب من غابات (خومبابا) الرهيب.. أغمضت عينيها للحظات وهي تتنفس بسرعة وآلام حارقة تغزو صدرها.. لا يبدو هذا جيدا.. كانوا هؤلاء رجالا أولي بأس وقوة وها هم الآن مجرد عظام معلقة بين الأشجار كتذكار شرير.. فكيف ستستطيع هي الفرار من مصير سيء كهذا؟

فتحت عينيها وهي تحاول السيطرة على نفسها.. لن تستسلم الآن فالرحلة المخيفة لم تبدأ بعد.. تقدمت للأمام لتعبر المدخل ما بين الشجرتين وتحت حزام الجماجم محاولة ألا تنتظر.. ولكنها اضطرت رغما عنها لإلقاء نظرة خاطفة على جزء من الحزام نفسه الذي تعلق به الجماجم عندما كان قريبا منها جدا.. هل هذا جدا؟؟ هل هذه الخيوط المتجمعة والملتفة حول بعضها البعض لتكوّن مادة الحزام هي مجرد جلود للضحايا وقد تحولت لضفائر مينة معقودة الأطراف على جذعي الشجرتين؟ هذا مخيف حقا ومثير للاشمئزاز لأقصى درجة..

تركت الشجرتين والحزام الحيّ الميت خلفها.. هجم عليها ظلام حالك وكان النهار استحال ليلا في لمح البصر.. تكاثفت الأوراق العريضة في سماء الغابة لتصنع حائلا سميكا منع ضوء الشمس من المرور.. رفعت يدها أمام وجهها لتكتشف أنها ترى أصابعها بالكاد.. شعرت بقبضة باردة تعتصر قلبها مع حلول هذا الظلام المخيف.. ظلام جثم على روحها وشعرت به يحاول إثنائها عن عزمها ودفعها للفرار ركضا بمنتهى الرعب.. حلت برودة قارسة كالتلج على أطرافها رغم حرارة الجو بالخارج فلم تدر هل هذا بتأثير الغابة نفسها أم مجرد أثر لخوفها.. نفضت وجهها وهي تنظر أمامها لعدة طرق تفرعت أمامها.. ثلاثة طرق امتدت أمامها وكأنها تزيد من حيرتها.. عليها

أن تختار أحدهم.. وبمجرد أن تتقدم ستنتهي علاقتها بعالمها القديم خارج الغابات
ويصير مستحيلا العودة إليه.. لقد بدأت المتاهة وعليها أن تقرر الآن وبشكل حاسم ماذا
تريد ان تفعل.. هل تتقدم أم تتخلف وتعود أراجها مستسلمة..

تتهدت بضيق فهي قد اتخذت قرارها مسبقا ولن تحيد عنها.. عليها فقط أن تكون
عقلانية في تحركاتها محاولة قدر الإمكان ألا تفقد اتجاهاتها بالداخل.. فليس أسوأ من
أن يلتهمها الوحش حية إلا أن تقضي حياتها تعدو وسط ممرات من تيه تنتهي حياتها
وسطها جوعا وعطشا.. تحركت لتجمع عددا من الأحجار الصغيرة المتواجدة حولها
بهمة ونشاط.. بدأت الرؤية تتضح تدريجيا مع الوقت بعد أن اهتادت الظلام جزئيا
لتصبح الأمور أكثر وضوحا ولكن ليس بشكل كامل.. جمعت عددا كافيا من الأحجار
بعد أن وضعت كمية بجيوبها ملأتها عن آخرها.. اتجهت لجذع شجرة قريبة وقامت
بالإمساك بحجر مدبب الطرف ثم ظلت تكشط الجذع بسرعة وقوة لفترة طويلة حتى
تقشّرت الطبقة الخارجية وظهر الجزء السطحي من اللحاء وقد بدأ ينزّ سائلا أخضر
اللون.. توقفت لحظة تلتقط أنفاسها من فرط ما بذلته من مجهود بدني قوي لم يتحمله
عضلاتها المرفهة الرقيقة بسهولة، ثم قامت بالزجّ بحجارتها بهذا السائل لتكتسب كلها
لونا أخضرا مميزا.. أخذت نفسا عميقا ثم يمت وجهها شطر أول طريق يواجهها جهة
اليمين وقامت بالعبور من خلاله..

تحركت ببطء وهي تنظر في كل اتجاه.. تنظر للأرض بين قدميها خوفا من أي فخ أو
زاحف مهلك.. تنظر أمامها لربما لم تكن خطوتها القادمة لتخطو فوق أرض صلبة..
تنظر فوقها وذات اليمن وذات اليسار بحثا عن شيء ما لا تعلم ما هو ولكنها تخشاه
بشدة.. أصوات خافتة متعددة تأتي من كل مكان.. منها ما شعرت به قريبا وكأنه تحت
قدميها ومنها ما بدا آتيا من أعماق الكون الفسيح من خارج حدود عالمنا.. منها ما بدا
مألوفا كصوت نعيق غراب أو زعيق بومة أو عصف ريح أو فحيح أفعى -أفزعها هذا
بشدة كلما سمعته حتى لو كان بعيدا.. ومنها ما بدا كشيء عجيب تمتاز فيه عدة
أصوات متحدة في صوت واحد لتعطي نغمة غير مفهومة وغير مألوفة، وهو ما أثار
فزعها أكثر حتى من فحيح الأفعى! واجهها مفترق طرق آخر ينقسم لقسمين.. تخيرت
الأيمن وقامت بوضع حجر أخضر على مقدمة الطريق لتعلمه حتى تستطيع معرفة
مسارها السابق في حالة عادت من هذا الطريق.. وهكذا سار الأمر على هذا المنوال..

تكتشف الطرق والممرات.. تحمي نفسها من التيه بواسطة أحجارها الخضراء المميزة.. استكشفت عددا كبيرا من الطرق حتى انتهت أحجارها الخضراء فقامت بالتزود بعدد من الأحجار الجديدة ثم قامت بتلوينهم بلون اللحاء الأخضر.. لم تدر كم مر من الوقت.. ربما ساعات.. نال منها التعب وشيء من العطش.. خلعت نطاقا جلديا كانت ترتديه وقد ثبتت به وعاءٌ أشبه بجرة دائرية مملوءة بالماء البارد.. جرعت منه بنهم ثم أعادت ارتداء نطاقها.. كان هذا عندما تنامى لسمعها صوت آتٍ من مكان بعيد خلق بجسدها رعشة هائلة.. لم تدر ما كنهه ولكنه أثار بداخلها كوامن الفرع ولواعج الحزن وسقم الجسد.. شعرت بكآبة تلفها ورعب يكتنفها مع سماعها لهذا الصوت، ولاحظت أن كل ما عداه من أصوات ماضية قد اختفى تماما وكأنه يفسح له مكانا ليسود..

وكان الصوت يأتي من جهة اليسار.. لذا سنتجه نحو اليسار.. فلا يوجد سوى تبرير واحد لوجود صوت شنيع مثل هذا.. لا بد وأنه صوت الوحش..

تحركت بحذر مستخدمةً أحجارها الملونة.. جعلت كل احتمالات مسيرتها تتجه يسارا نحو مصدر ذلك الصوت.. لاحظت مع توغل الوقت واقترابها من مصدر الصوت اختفاء كل الأصوات الأخرى تماما.. ساد الغابات صمت رهيب ليس طبيعيا على الإطلاق.. حتى صوت ضغط قدميها على حشائش الأرض لم يصبح يصدر ذلك الصوت المعتاد الخافت الناجم عن تكسر الأوراق الجافة الضئيلة والأغصان الرفيعة المتحللة.. زادت حدة الصوت الغامض وصار أشبه بعويل صاخب ولكن بنبرة خشنة وغازبية.. مزيج لم تدر كيف تصفه أو تصف شعورها إزائه، ولكنه كان شعورا مريضا.. تقترب أكثر وقد تبدلت مشاعرها وصارت متقبلة الموت أكثر من أية لحظة سابقة في حياتها كلها.. وإن كان الموت من أجل (إينانا) فليكن عن طيب خاطر.. ولن تكون بأقل من (زاموك) ذلك اللص الذي ضحى بحياته بدون تردد من أجل (إينانا).. ولكن هل كان ذلك بالفعل من أجل (إينانا) أم من أجلها هي؟

هبت ريح لينة حارة عليها في هذه اللحظة.. بددت حرارتها البرودة العجيبة التي سادت الغابات والتي كانت تشعر بها منذ دخولها لِمَا بعد حزام الجماجم.. الصوت صار قريبا جدا الآن.. ليس بأبعد من الأشجار المواجهة لها.. عويل خشن حاد، تناقضت خشونته مع نبرته ذات اللوعة بشكل منفر.. زادت درجة حرارة الريح الآن لتصبح غير محتملة.. لاحظت تحرك أغصان الأشجار التي أمامها وكأن كائنا ما يتحرك بينها

فوجلت وسارعت بالوثب للخلف، كان هذا حين التهم تلك الأشجار لسان من نار أنهى عليها في لحظة تاركا إياها مجرد أخشاب محترقة تتأكلها بقايا النار ذات الأجيح..
وحينها كانت اللحظة الأولى لها لترى الوحش (خومبابا) شخصيا..

زحفت على قدميها بذعر وقد شلّ لسانها وعضلات جسدها بشكل تام.. شعرت بالصورة أمامها تتموّج بسرعة فلم تر شيئا للحظات اكتفت فيها بالمزيد من الزحف المتراجع المملوء بالفزع.. اكتفى الوحش بأن ظل ساكنا فوق الأغصان المحترقة يتأملها بفضول.. لما ثبتت رفرفة عينيها رأته بوضوح..

ضخم الجثة بشكل لا يمكن تصوره.. ساقان من عضلات يناهزان طول الأشجار الضخمة ارتفاعا.. رداء من أوراق شجر عريضة تغطي جذعه وتواري سوءته لتبرز فوقها عضلات صدر مهيبية وكتفين وذراعين هما كتلة من عضلات لا يمكن تخيل وجودها بجسد أي كائن حي.. لون الجلد أخضر اللون وكأنه شجرة عظيمة متحركة تنبض بالحياة.. أما عن وجهه فقد كان هذا مكن الرعب كله..

الوحش (خومبابا)



شيء أشبه بوجه الثور إن كان هناك ثورا دميم الملامح.. عيان مشقوقتان طوليا تطل من داخلهما شعلتان من نار متأججة.. قرنان ملتفان وملتويان ليمتدا أفقيا على امتداد جانبي وجهه.. أنياب رفيعة مدببة منذرة.. وكان يفتح فمه فيبدو وكأنه يبتسم ابتسامة عجيبة تملأ القلب رعبا وخط من لعاب لزج سميك ينساب من ركن فمه العريض.. وجهه نفسه كان مشوَّها في عدة مناطق.. ثم كان هناك الزوج من الأجنحة واللذان امتزج فيهما اللونان الأبيض والأسود.. لم تدري هل يحتاج لاستخدامهما حقا؟ وإن استخدمهما فهل هما قادران على حمل هذا الجسد العملاق؟

وقف الوحش يتأملها فلم تكن كأي زائر جاء غاباته من قبل.. امرأة ضئيلة ضعيفة.. لا بد أنه يفكر في أن جمجمتها ستكون إضافة مميزة لحزام الجماجم ولكنها لن تتناسق بحجمها الصغير مع باقي الجماجم المعلقة..

استجمعت (نينشوبور) زمام أمرها فإما أن تتحدث وتتصرف الآن وإما سيخرسها الوحش للأبد.. وهي هنا لا تهتم لحياتها بقدر اهتمامها لحياة سيدتها (إينانا)، فلو كان الأمر يخصها لاستسلمت للوحش بسرعة وأنهت حياتها بدون مقاومة.. توقفت عن التراجع وشجعها ثبات الوحش فاعتدلت ببطء وعيناها لم تفارقا شعلتي النار اللتين تمثلا عينيه.. لم تدري هل سيفهمها أم لا ولكنها قررت أن تعطيه محاولة يائسة..

قالت بصوت حاولت جعله عاليا ولكنه خرج مبحوحا مرتجف النبرات رغما عنها:

- أنا (نينشوبور) وصيفة السيدة (إينانا) سليلة سيد الأسياذ (أنو).. السيدة (إينانا) في خطر داهم مجهول.. مدينة (الوركاء) كلها على وشك أن يداهمها المتمردون من الأسياذ بعد اغتيال السيد (أنو).. لا أدري هل تفهمني أم لا ولكننا نحتاج لمساعدتك في الدفاع عن (الوركاء)..

عمّ صمت رهيب كالقبور.. لم يتحرك الوحش أو يبدي أية تصرف تدل على فهمه لما قالت.. لم تدري ماذا تفعل الآن.. أمامها فرصة واحدة نادرة ولا تعرف كيف تستغلها.. لا يبدو أن الوحش قد فهمها ولكنه حتى الآن لم يُبدي أية بادرة عدائية.. قد يكون الأمل شبه معدوم ولكنه ما زال موجودا.. لم يحوّل الوحش عينيه عنها وكأنه يحاول سبر أغوار تلك الضئيلة التي اقتحمت غاباته ثم وقفت أمامه بشجاعة لم يمتلكها أي ممن وقف أمامه من رجال من قبل..

انحنى الوحش نحوها.. شعرت بالضالة وذلك الجسد الخرافي -الذي لو مال عليها لسحقها بدون أن يدري- يقترب منها.. ثم فوجئت بالكلمات تنبعث من بين شفثيه.. كلمات رنانة بلغة لم تفهم منها شيئا.. لم تبدو كجمل متعاقبة وإنما مجرد ألفاظ غير مفهومة يرددتها الواحد تلو الآخر.. ثم انفصل عنها وعيها لتغيب عن العالم في نفس اللحظة التي عاود فيها تكرار تلك الألفاظ التي تعود لزمن سحيق..

وجدت نفسها تحرق بمنطقة تعج بسحاب أبيض كثيف متراكم الطبقات.. لم ترَ لنفسها جسدا.. وكأنها صارت روحا تنسال عبر الأثير.. هل هو الموت؟ لم تعلم حقا ما قد يكون هذا حقا.. الأمر ليس مشابها لتجربة البرزخ والتواجد بالعدم.. هناك كان لها جسد وإحساس ووعي.. هنا هي فقط مجرد أفكار وعيون وأذان غير مادية.. تحرك السحاب ببطء لينبثق عن صورة من الفضاء للأرض.. اقتربت الصورة بسرعة مذهلة لتتركز الرؤية على منطقة ما بين الرافدين.. ثم تحركت الصورة لتنتقل بين المدن بسرعة يعجز عن فعلها حتى الأسياد.. رأت بكل مدينة أسيادا يختلفون عن من تعرفهم.. العوام أكثر تخلفا بكثير وكأنها صورة لعصور ما قبل التاريخ.. لقطات متتالية من عدة أماكن لحروب ونزالات وحصارات وجثث تتراكم.. ثم رآته.. الوحش (**خومبابا**) بنفس هيئته يحارب وسط الأسياد، يضرب بقبضتيه وينفث النيران من فمه، ويحلق بجناحيه.. وشعرت بالأفكار تسري بعقلها بمنتهى اليسر فتفهم ما يحدث.. هؤلاء هم نسل الأسياد الأوائل.. الآباء الذين لم يتبق منهم ممن تعرفهم سوى (**أنو**) و(**موشوسو**).. و(**خومبابا**).. دارت بينهم حروب تخللتها تحالفات ونقض للعهود.. اغتياالات وقتل.. دمار شامل لأغلب المدن.. خسر (**خومبابا**) جميع حلفائه فثار على خصومه وقضى عليهم جميعا.. كانت حربا عنيفة لم ينجو منها إلا عدد قليل.. قضى عظماء الأسياد على بعضهم البعض بحماقة وطيش ودموية تاركين فقط (**أنو**) ناجيا وحيدا من بين العظماء وسط صغار الأسياد، منهكا يستكشف جراحه غير مصدق لنجاته، يحيطه عدد من الأسياد الذي أفرعهم هلاك كبارهم وسارعوا بالاستسلام طوعا للمهيب (**أنو**) سيد الصواعق والناجي الوحيد من نسل الأوائل.. و الوحش (**خومبابا**) يتلفت حوله ناظرا للخراب والنيران والجثث... خفق بجناحيه ليطير من المكان مبتعدا عن جو الموت والهلاك لا يلوي على اتجاه أو هدف معين.. لاحت له غابات (**الوركاء**) فانعطف نحوها واختارها مكانا يقضي فيه ما بقي من عمره في سلام وسكينة نابذا أي حرب أو

عنف حتى قضى نحبه بسلام بعد فترة من الزمن.. ثم وثب الزمن لتراه مجددا وقد تم بعثه من العالم السفلي وحشا ضاريا ناقما راغبا في الانتقام.. كانت **(نينشوبور)** تفهم الأحداث وتنقل الأماكن وتواتر الأزمان مما يعني أن ذلك الوحش موجود بعقلها ويقص عليها تاريخ أسياذ ما بين الرافدين.. فلماذا قد يفعل شيئا كهذا؟

جاءها الرد في هيئة وثبات زمنية متعاقبة.. استقر **(خومبابا)** مجددا بالغابات ولكن متربصا لأي مارٍ لا ينوي له أي خير.. أشخاص يقتحمون الغابات فيمزقهم **(خومبابا)** العائد من العالم السفلي ويعلق عظامهم وجماجمهم على مدخل الغابة.. إنها رسالة منه تقول للعالم الخارجي لم تدعوني أعيش بسلام فسأنتقم منكم بسلبكم حيواتكم.. كل من اقتحم الغابات ظن نفسه ندا للوحش فلقى حتفه.. كل من أراد ترويضه واستخدامه كسلاح جبار في وجه أعدائهم من أسياذ وعامة قضى نحبه.. حتى من ولج هذه الغابات بريء تائها قام **(خومبابا)** بالفتك به بلا جريرة.. لم يستطع شخص أن يدخل الغابة ويخرج منها مجددا منذ بعثه.. هكذا ينفذ الوحش انتقامه من العالم وسط الأشجار العملاقة لآلاف السنين بجعل من يدخل غاباته يلقى مصيرا يشهد عليه حزام الجماجم الراقذ عند مدخل الغابات..

توقفت **(نينشوبور)** عن التفكير لحظة وقد استوعبت أنها قد دخلت الغابة راغبة في ترويضه هي الأخرى.. لا تختلف في شيء عن كل من سبقها وانتهى به المصير وقد فقد حياته.. فهل يقوم الوحش بهذه الرحلة العقلية لكل المقتحمين قبل أن ينهي حياتهم؟ أم أنه بالفعل قد أنهى حياتها وهي الآن تعيش مرحلة من مراحل ما بعد الموت لا يمكن فهم ماهيتها؟!!

لم يتركها الوحش غنيمة لأفكارها المظلمة.. أخبرها عبر تخاطره العقلي معها أنه يملك مستوى من التواصل العقلي فريد من نوعه يمكنه من التوصل مع أي كائن حي بدون أن يفهم لغته، مثلما يفعل معها الآن.. لم يكن هكذا من قبل بحياته الأولى.. يتذكر أن له حياتان.. **بالحياة الأولى** كان مجرد مفترس وحشي بلا عقل بلا قلب، مجرد وعاء جبار لروح جامحة، **وبالحياة الثانية** كان سيذا عاش حياة طويلة انتهت بأن تم ظلمه وقتله وتحطيم بيته على رأسه هو وجميع أسرته بمنتهى الوحشية من قبل أسياذ آخرين.. تم الحكم على الجسد الوحشي للوحش بعد موته وانتقاله للعالم السفلي بالعودة حيا مجددا للعالم العلوي بعد أن تم وهبه روح السيد الذي قُتل ظلما والتي تبغى الانتقام

من العالم كله، عاد ليجد نفسه يمتلك جسدا تتصارع بداخله الروح القديمة المفترسة مع روح جديدة دخيلة تمتلك نصيبا هائلا من ذكريات تنتهي برغبة عارمة في الانتقام ممن قتلوها في جسد آخر وحياة أخرى، في الانتقام من جميع السماويين.. أصبح يمتلك عقلا وقلبا يموجان بالرغبة في الانتقام.. ورغم شعوره بأن هذه الرغبة لا تعود إليه بشكل أساسي وإنما لشخص آخر يشاركه جسده ولكنه استعذبها واستسلم لها وصار ينفذها بمنتهى الوحشية سواء كانت نابعة عن روحه الوحشية الأولى أم عن الروح الدخيلة التي لازمته منذ عودته من العالم السفلي.. فقد أحب كلاهما سفك الدماء..

كان يستطيع من خلال امتلاكه لعقل متخاطر الآن فهم الكثير مما يخفيه الشخص عنه بجنابات عقله.. فهو الآن يدرك أنها رغبة في ترويضه فقط من أجل إيجاد سيدتها **(إينانا)** ومن أجل الدفاع عن حياة المدنيين ب**(الوركاء)**.. لهذا لن يقتلها.. شعر بالقرار يتم فرضه عليه فرضا من الروح الدخيلة عليه والتي تشاركه حياته الجديدة ما بعد موته الأخير ثم بعثه.. الروح التي لطالما دفعت الجسد الجبار للفتك والقتل بلا حدود.. الروح التي أيقظتها رغبة **(نينشوبور)** القوية والنقية لتجعلها تجاهد وتسيطر على نفسها الراغبة في الانتقام مستغلة جسد **(خومبابا)** الباطش.. وكأن الروح الدخيلة قد قامت بترويض الوحش الذي كانت تقوده لتحقيق انتقامها من العالم ردحا من الزمن بمساعدة من قوة وصدق رغبة **(نينشوبور)**، وذلك بعد أن تطهرت من ذنوبها بحياتها الجديدة وشعرت بأنها قد نالت ما يكفيها من الانتقام بل وأكثر مما يكفي..

سيتركها تعود أدرجها للمدينة حية سليمة وهذا هو منتهى الكرم منه.. ولكنه لن يتبعها ولن يغادر حدود غاباته.. لقد اكتفى من حياة الحرب والموت ويريد أن يركن للراحة ما بقي من عمره.. قرار اتخذه عن رغبة وليس عن ضعف.. قرار يراه منتهى الحكمة.. قرار اتخذته كل من الروحين اللتان تسكنان جسده معا بالاتفاق.. روح **(خومبابا)** الوحشية الحيوانية التي ماتت بعد حرب الأسياد.. والروح الغامضة الدخيلة التي كانت تموج بالانتقام، والتي تشعر بالرضا عن نفسها الآن ولا ترغب إلا في التطهر من ذنوب فاقت حد الانتقام..

انتهى التواصل العقلي بينهما لتشعر **(نينشوبور)** بجسدها يرتمي أرضا بقوة وكل عظامها تؤلمها.. ولكن فاق ألمها المعنوي ألم جسدها، فالوحش رغم أن قد صفح عنها وامتنع عن الفتك بها كما فعل مع كل من سبقها، ولكنه لن يساعدها.. تسببت قوة ونقاء

أفكارها في تصالحه مع نفسه.. ستعود حية ولكن بمهمة باءت بالفشل.. لاحظ الوحش تجمدها فأشار لها بيده باتجاه الخارج وكأنه يقول لها أن ترحل.. وقفت وقد عزمت أمرها على عدم الرحيل إلا وقد روّضت الوحش مهما كلفها الأمر.. نظر لها الوحش بغرابة.. لماذا ما زالت الفتاة تقف أمامه رافضة الرحيل؟ من المفترض ان تكون تعدو الآن بأقصى سرعة تهرب من الغابات بعد أن كسبت حياتها.. أشار لها ثانيةً مطلقاً زمجرة خفيفة فشدت قامتها أكثر بعناد محرّكة رأسها بعلامة نفي وقد بدأت دموعها الصامته تسيل ببطء على وجنتيها.. ثم أغضت عينيها محاولةً التواصل معه لمرّة ثانية.. تلقى الوحش محاولتها فوجدت نفسها مرة أخرى مجرد عقل بلا جسد..

- تملكين من الشجاعة والإصرار ما لم أراه منذ قرون بهذا العالم البائس.. يكفيكي ما أثرتيه من صراع بين روحي الوحش المتنازعتين لحد كاد يمزقهما معاً..
صوته خشن النبرات ولكن به لمسة رقة لم تتوقع (نينشوبور) أن تشعر بها تنبع من هذا الوحش..

- لا يوجد لدينا حلول سواك.. سيدتي مختفية والمدينة على وشك الدخول في حروب لا مناص من خوضها.. حروب لن تنتهي على خير.. وحتى ان انتهت بانتصارنا سنكون قد فقدنا الكثير من الآباء والأمهات والأجداد والأطفال.. وربما العديد من الأسياد كذلك..

- ولماذا قد أريد أن أساعدك؟ يكفيني أن أترك حية وهذا ما ستظنين لديني لي به مدى حياتك قصيرة الأمد!

- لأنني أملك شيئاً قد يهكم الحصول عليه..

ردّ عليها صمت طال ثم جاءها الصوت عبر تلافيف عقلها:

- وما الذي قد تملكه سماوية عادية ويحتاجه سيد جبار مثلي؟

- الانتقال لأرض البشر!

طال الصمت هذه المرة.. طال بحقّ لدرجة شعرت معها (نينشوبور) بالقلق.. فهمت أن (خومبابا) يتجوّل وسط دهاليز عقلها الباطن بقدرته الخارقة هذه ليكتشف صدق حديثه من ادعائه.. فبادرت بالقول:

- لديّ تلك المادة وقد سرقها أحد السماويين من الأرض..

جالت بذهنها صورة (زاموك) كالطيف فابتسمت رغما عنها قبل أن تكمل:

- لدي مادة الحرير الأرضية السحرية والتي بإمكانها نقلك من عالم لآخر بلفها حول الخصر فقط..

أتاها ردّ (خومبابا) العجيب:

- وهل لديك ما يكفي ليحيط جذعي السميك كناطق ناقل عبر العالمين؟!

عاودت الابتسام.. إنه يمزح.. لقد تأكد من صدقها وقرأ ذكرياتها ويعرف الآن كل شيء.. فقالت وهي تشعر بارتياح عامر غامر:

- بإمكانني أن أجلب لك من مغارة الحرير الكمية التي تكفيك وتفيض.. ولكنني أعتقد أنك لا تجهل هذا الآن..

انسحب عقلها ليعود وعيها للغابات في مواجهة الوحش.. صدمتها رؤية وجهه الكريه الأشبه بوجه ثور مشوه.. فقد كانت قد بدأت تستكين لروحه وتطمئن له.. ولكن كان حقا شكله منفرا ببشاعة.. عليها أن تعمل على حلّ هذه المشكلة منذ الآن فيبدو أنها ستراه كثيرا منذ هذه اللحظة..

- سيدتي الجميلة (نينشوبور)..

أتاها صوته واضحا هذه المرة بعقلها رغم إحساسها بجسدها وبوجودها بالغابة أمامه.. إنه يحدثها بالتخاطر العقلي مباشرة.. علاقتها تبرز تقدما ملموسا..

- بدءا من الآن أنا طوع بنانك.. تأمرين فتطاعين.. فقط كل ما عليك هو أن تفكري في اسمي صمما عبر عقلك وستجدينني أمامك.. أصارك الأمر يا سيدتي، لم أقبل بخضوعي لك بسبب مغارة الحرير.. هو سرّ عظيم كان كراما منك أن تخبريني به ولكنني لن أستخدمه أبدا.. لماذا قد أحتاج الانتقال لعالم البشر؟ ماذا سيستفيدون من وجود وحش بشع مثلي بعالمهم؟ لديهم ما يكفيهم من مشاكل بالفعل.. ولكن ما يجب فعله في الواقع هو أن أقوم بحراسة المغارة للحفاظ على سرّ الحرير السحري منعا لأي سيد قد يقوده جنونه للتفكير في الاتجاه للأرض ونشر شروره وسيطرته هناك.. بالإضافة

لشعوري بنُبل هدفك.. كل من أراد تطويعي أرادوه قهرا ولسبب شرير.. أنت فقط –
سيدتي الجميلة- أردتية باللين ولسبب يسمو على كل ما عداه من أسباب.. مشارك
بلغت من القوة ما نجح في تحريري من أسر رغبتى العمياء في الانتقام والتي جعلتني
أتحكم في روعي المتعطشة للانتقام قبل أن أتحكم في الروح الحيوانية المسكينة لهذا
الجسد الجبار.. لا مزيد من القتل.. لقد نَفَذْتُ لأسياد العالم السفلي رغبتهم وقمت بسفك
العديد من الدماء.. حان الوقت لفعل شيء تمليه عليّ مشاعري..

شعرت (نينشوبور) بامتنان لا حدّ له.. وجعلها تكراره للقب الذي أعطاه إياها
(زاموك) –لقب سيدتي الجميلة- تشعر بحنين جارف للشخص الذي أعطاه ما لم
يعطيها أحد مثله شيء من قبل قط.. أعطاه وأجذل في العطاء حتى دفع روحه نفسها
ثمنا.. ويبدو أن (خومبابا) يلاطفها بتكرار ما توصل إليه عبر العبث بذكرياتها.. عمته
فرحة هائلة جعلتها تصفق كالأطفال بجذل هاتفة:

- شكرا يا سيدي الوحش!

شعرت بسخافة ما قالته عندما لم يأتيها رد منه، ففتحنت بإجراج وهي تسأله وقد
شردت بأفكارها:

- ماذا الآن؟

أجابها ببساطة:

- استخدمى أحجارك الملونة لتستطيعي الخروج من الغابة.. وعندما تقتضي الحاجة
وجودي فقط فكري في اسمي..

نظرت له بغضب طفولي فجاءها رده بعقلها:

- عدوي لمدينتك.. عدوي ل(الوركاء) وأخبريهم أن الوحش (خومبابا) لن يدع أحدا
يقترّب من حدودها غازيا..

تم بحمدالله الجزء الأول

